الشعر في ظل سيف الدولة

310827

٩

تأليف

الدكتور

درويش الجندي

المدرس بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٥٩

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

JAMMU & KASHMIR UNIVERSITY
LIBRARY
Kashmir Division - Srinagar

0:28

Title [redacted]
Author [redacted]
Accession No. [redacted]
Call No. [redacted]

Borrower's No.	Issue Date	Borrower's No.	Issue Date

Title [redacted]

Author [redacted]

Accession No. [redacted]

Call [redacted]

Borrower's No.	Issue Date	Borrower's No.	Issue Date

الشعر في ظل سيف الدولة

تأليف

الدكتور

درويش الجندي

المدرس بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٥٩

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

M. RASHID & SONS
Prop. RASHIDIA BOOK DEPOT

RASHID & SONS
PRICE
55

KASHMIR UNIVERSITY
Iqbal Library
Acc. No 310821
Dated 15-3-89

مطبعة الرسالة
٢ شارع حموده المقاول - عابدين

دولة الروم الشرقية
ارمينية
نهر ارسناس
خرت برت
ملطيه
بحيرة وان
الجودي
ديار بكر
اذربيجان
بحيرة ارمية
ميافارقين
آمد
حصن كيفا
جزيرة ابن عمر
ماردين
كفرتوثا
كواشي
كردستان
نصيبين
دجلة
حران
راس عين
ارفه
سروج
قلعة الروم
دلوك
مرعش
عين زربه
عربسوس
طوانة
هرقليه
سلوقيه
طرسوس
اذنه
المصيصة
الاسكندرونة
انطاكيه
اعزاز
منبج
حلب
الاثارب
قلعة نجم
الرقة والرافقة
بالس
قنسرين
معرة النعمان
فاميه
اللاذقيه
حماه
شيزر
سلمية
الرستن
حمص
طرابلس
بحر الروم او الابيض المتوسط
بيروت
دمشق
طبرية
عكا
حيفا
سنجار
الموصل
بلد
الحسينية
الزاب الاعلى
الزاب الاسفل
البوازيج
السن
تل عفار
ماكسين
الفرات
قرقيسيا
رحبة مالك بن طوق
عانه
هيت
البويهية
٤٣٣ - ٤٤٦
بغداد
العراق
القرامطة
دولة بني حمدان
بقلم
الشيخ محمد فخر الدين بك

Title [redacted]

Author [redacted]

Accession No. [redacted]

Call No. [redacted]

Borrower's No.	Issue Date	Borrower's No.	Issue Date

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لعل الذى دفعنى إلى بحث موضوع « الشعر فى ظل سيف الدولة » هو إعجابى الكبير برجلين يعدان من أقوى الدعائم التى يقوم عليها ذلك الموضوع وأعنى بهما سيف الدولة الذى نتحدث عن الشعر فى ظلاله ، والمتنبى أحد شعرائه .

فسيف الدولة قد بنى لنفسه مجداً عريضاً خالداً لا يفنى على مر الغداة وكر العشى ، بتلك البطولة العارمة التى مجدها شعراؤه ، وسطرها التاريخ بمداد من الثناء والإعجاب ، إذ قضى ردحا من الزمان يدفع عن العروبة ، وحوزة المسلمين - شبح الروم البغيض ، ولم يثنه عن عزمه ما يمتاز به العدو العنيد من وفرة فى العدد والعتاد ، وقعود سائر الدويلات العربية التى كانت تحت ظلال الأعاجم - عن نصرة هذا الفتى العربى العظيم ، والوقوف إلى جانبه فى الذياد عن حياض العروبة والإسلام .

كما بنى ذلك المجد بتلك الأريحية السمحة التى وجد العلم والأدب فى رحابها ظلا ظليلا ومقاما كريما . يقول بروكلمان « ولئن كان سيف الدولة يدين بما تم له من شهرة عريضة لنضاله الموفق ضد الروم فى المحل الأول ، ليس من شك فى أنه مدين بذلك - فى المحل الثانى - لعطفه على العلوم والفنون ورعايته لها[1] » .

ولئن أوقفتنى دراسة حياة سيف الدولة - ضمن ما درست فى هذا البحث - على أن هذا الأمير لم يخل من العيوب والمساوىء التى من أجلها وصفه بعض المؤرخين

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية جـ ٢ ص ٩١ .

بالجور والاستبداد – إننى مع ذلك ما زلت راضيا عن أمير بنى حمدان ، معجبا بما اضطلع به من أعباء ثقال لم يستطع غيره أن يضطلع بها فى ذلك الزمان .

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

كما يقول الصنوبرى أحد شعرائه[1] .

وأما المتنبى فقد أرانا كيف يخلع الأدب لباس الجلال والخلود على البطولة لتراها الأجيال اللاحقة وضاءة وضاحة فتحفز الهمم وتحيى العزائم ، وكيف تهز البطولة أوتار القلوب الشاعرة فتجود بعيون الشعر وفرائده ، ثم صور لنا كيف أن القوة سبيل الحياة وأنه لا حياة للضعيف فى كل زمان ومكان . فهو الذى يقول فى إحدى سيفياته .

من أطاق التماس شىء غلابا واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

وهو القائل :

أعلى الممالك ما يبنى على الأسل والطعن عند محبيهن كالقبل

وما تقر سيوف فى ممالكها حتى تقلقل دهرا قبل فى القلل

وأنا أعشق هذا الطراز القوى من الشعر الذى يزيد حياة الناس قوة . وكم كنت أود أن يكون كل الشعر فى ظل سيف الدولة من هذا الطراز ، ولكن ذلك ما لم يكن ، فما كان كل شاعر من شعرائه أبا الطيب ، وإن كانت ظلال هذا الأمير الحمدانى قد انفردت عما سواها فى ذلك العصر بكثير من شعر القوة والبطولة .

* * *

وربما قوى ذلك الدافع عندى ، أنى أريد بهذا البحث أن أوجه الدعوة إلى

---

(١) الروضيات ص ٦٣ .

شعرائنا الذين أفرطوا فى إنتاج ذلك الشعر الذى يمثل العواطف المريضة الرخوة ، ألا يجاروا ميول الجمهور ، و يسايروا رغباته ، فيكونوا تجاراً أكثر منهم قادة ، بل يقتدوا بما قاله الشعراء فى ظل سيف الدولة ، ممـا يعمل على إحياء النخوة العربية وإنهاض الإحساسات القومية ، فما أشد حاجتنا إلى ذلك فى هذه الظروف العصيبة التى لا كلمة فيها لغير القوة ، والتى يبدو فيها التعصب ضد العروبة سافراً بعيداً عن المصانعة والمداراة .

ولئن كان فى ظل سيف الدولة كثير من هذا الشعر الفاتر الرخيص الذى استلزمته حياة الترف والمجون فى ذلك العصر بوجه عام — لقد كان إلى جانبه كثير من الشعر القوى النفيس . ولا بأس أن يجتمع الضدان ويتجاور النقيضان ، فالأدب كما يقول أستاذنا الجليل أحمد أمين عود ذو أوتار . ويجب أن تـكون أوتاره على نظام ما عند الانسان من عواطف جدية وهزلية ورقيقة وقوية وضاحكة وباكية ورخيصة وغالية . فهل يتقى الله الفنانون والأدباء فى الجيل الناشىء ، فيصلحوا أغانيهم ، ويكملوا مانقص من أوتارهم ويستدركوا ما فاتهم (١) ... ؟

* * *

وسواء أكان الدافع إلى اختيار هذا الموضوع هو ذلك الذى أزعمه أم كان شيئاً آخر أحسه ولا أستطيع الإفصاح عنه ـ فإن موضوع الشعر فى ظل سيف الدولة من الموضوعات الجديرة بالبحث وعناية الدارسين ، لأنه يمثل حلقة لها شأنها فى سلسلة الشعر العربى فى القرن الرابع بوجه خاص ، وفى سلسلة الشعر العربى فى مختلف العصور بوجه عام .

وعنوان موضوع البحث وهو « الشعر فى ظل سيف الدولة » يشير إلى أن هناك شعراً إقليمياً خاصاً ، فى بيئة خاصة ، هى تلك البيئة التى كانت فى ظل أمير بعينه هو سيف الدولة ، بعد أن انقسمت الدولة العباسية دويلات استقل بها

---

(١) فيض الخاطر ج ١ ص ٢٠ .

الأمراء المتغلبون ، فنشأت الآداب القومية فى ظلال هؤلاء الأمراء[1] .

ولما كان الأدب بطبيعته صورة للبيئة التى تحيط به من طبيعية واجتماعية وسياسية وثقافية وفنية ، كان على الدارس للشعر فى ظل سيف الدولة أن يصور بيئة هذا الشعر ، وأن يبين العوامل التى كونتها وأثرت فيها ، ثم يكشف عن صدى هذه البيئة فى أغراض ذلك الشعر وفنونه ، وفى الخصائص الفنية لأساليبه ومعانيه ، ليستبين بعد ذلك مدى الإقليمية فيه ، ومدى اتصاله بسلسلة الشعر العربى وما آل إليه من تطور فى القرن الرابع بوجه عام .

وكذلك فعلت أنا ، فسلكت هذا النهج الذى ذكرته الآن مجملا ، ويراه القارىء مفصلا بعد فى الفصول التاليات .

* * *

ومهما يكن من شىء فقد لاقيت فى اعداد هذا الموضوع كثيرا من الصعوبات التى كان أعظمها قلة المراجع التى تجلى النواحى المتصلة به ، مع أنى كنت أحسب الطريق فى بادىء الأمر معبدا سهلا ، ولعل ذلك الحسبان يرجع إلى هذا الدوى الذى أرسله المتنبى قويا منذ اتصل بسيف الدولة والذى جعل يزداد على مر الأيام واختلاف العصور قوة وانتشارا ، مما يوهم الدارس أن الشعر عامة فى ظل سيف الدولة شأنه فى سهولة الدراسة شأن شعر المتنبى، مالىء الدنيا وشاغل الناس ، ولم أكد أسير فى البحث حتى راعنى أنى لم أجد لغير شعر المتنبى من

---

(١) يقول بلاشير : إن تعدد مراكز الثقافة والأدب فى ذلك العصر لم يحل دون بقاء الأدب ذا صبغة عامة مشتركة بين الآداب القومية وذلك بسبب تنقل الأدباء من إقليم إلى آخر وتأثر بعضهم ببعض وبسبب بقاء الخلافة فى بغداد رمزا للوحدة الإسلامية وبقاء بغداد فى نظر الأدباء الوطن الأول للأدب يستوحونه حيثما كانوا . انظر :

Blachére - R. Un poète Arabe du IVe siècle de l'Hégire (Xe Siècle de J. — C.) : About Tayyib Al - Motanabi. (Essai d'histoire Littairère) p. 10.

عناية تجدى الباحث وتغنى الدارس ، وأن ذلك الشاعر العملاق قد طغى على كثير من شعراء القرن الرابع فأخمد ذكرهم وصرف الأدباء والنقاد عن العناية بتاريخهم وأدبهم .

ولكنى مضيت فى الموضوع متذرعا بالصبر مستعينا بالله حتى انتهى هذا البحث على النحو الذى تراه فى تلك الصفحات .

ولست أدعى أنى وفيت الشعر فى ظل سيف الدولة حقه من الدراسة فلم أترك بعدى زيادة لمستزيد ، فذلك ما لا يستطيع أن يدعيه أحد فى أى بحث من البحوث بل فى أى عمل من الأعمال ، والكمال لله وحده ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه ، وإنما كل الذى أدعيه أنى بذلت فى هذا الموضوع الجهد الذى استطعته فى محيط ما اكتنفه من الصعاب .

الفصل الأول

الشام الشمالية

جغرافيتها وتاريخها حتى عصر سيف الدولة

(ا) القسم الجغرافي :

بلاد الشام بالنسبة إلى قارة آسيا نافذة تطل منها تلك القارة على البحر المتوسط ؛ ذلك البحر الذى يربط جنوبى أوربا الشرق بغربى آسيا وشمالى أفريقية .

والشام بفضل هذا الموقع محاط بأعرق الدول فى الحضارة وأعظمها نصيبا من الرقى . ويجاوره من الغرب مصر وبلاد الإغريق ، ومن الشمال بلاد الحثيين ومن الشرق بابل وآشور وفارس ، ومن الجنوب بلاد العرب حيث قامت حضارات معين وسبأ وحمير وما تفرع عنها . فكان الشام واسطة الاتصال بين هذه الحضارات جميعاً كما كان مطمح أنظار الغزاة من مصريين وحثيين وآشوريين وبابليين وفرس وإغريق ورومان وعرب .

وتحد الشام شمالا بجبال طوروس التى تفصلها عن الأناضول ؛ وتحد جنوبا بشبه جزيرة بلاد العرب وشبه جزيرة سينا ؛ وشرقا ببادية العراق وسهول الجزيرة ، وغربا ببحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) .

وأقسامها الطبيعية من حيث السطح خمسة نطق[1] بعضها مرتفع والبعض

---

(١) قسمها المقدسى أربعة صفوف فالصف الأول على بحر الروم وهو السهل رمال منعقدة ممتزجة ... والصف الثانى الجبل . والصف الثالث الأغوار ... والصف الرابع سيف البادية .. ص ١٨٦ أحسن التقاسيم .

الآخر منخفض ، وكلها تمتد من الشمال إلى الجنوب محاذية للساحل تقريبا .

فالنطاق الأول من ناحية الغرب هو السهل الساحلى الممتد على طول ساحل البحر المتوسط من خليج إسكندرونة إلى شبه جزيرة سينا . وهذا السهل يقل اتساعه فى الشمال ويكثر فى الجنوب . أما قسمه الأوسط فإنه يضيق فى بعض الأماكن حتى لا يزيد عن ثلاثة وثمانين ومائة كيلو متر عند جبل الكرمل وهو خصيب فى أكثر أجزائه ، ولنيل مصر نصيب فى هذا الخصب إذ يصل إليه بعض غرينه .

والنطاق الثانى جبلى يبدأ فى الشمال بجبل أمانوس المعروف عند العرب بجبل اللكام[1] .

وهذا الجبل فرع من جبال طوروس ، وهو يدور حول خليج إسكندرونة ، ويليه جنوبا الجبل الأقرع ، ويمتد إلى قرب اللاذقية حيث يعرف باسم جبل النصيرية[2] . ويلى هذا جنوبا سلسلة جبال لبنان الغربية ، وهى التى يعنيها الناس إذا أطلقوا جبال لبنان . وهذه السلسلة تمتد إلى نهر ليطانى الذى يعرف عند مصبه باسم القاسمية . وتجىء بعد ذلك مرتفعات ذات أسماء محلية تتدرج فى الانخفاض إلى الإقليم الجدب المعروف باسم النجب[3] .

---

(١) هذه التسمية مأخوذة من التسمية السوريانية وهى أوكاما بمعنى أسود . ويسميه الترك جبل الكفار لوقوعه على الحدود البيزنطية قديما . انظر :

Phillip K. Hitti : History of Syria, London, 1951, p. 31.

(٢) وجبل النصيرية هو الذى يسميه الإصطخرى جبل بهراء — مسالك الأبصار طبعة ديغويه بليدن سنة ١٨٧٠ ص ٥٥ .

(٣) النجب بالجيم القاهرية هو اسمها العبرى ومعناه الأرض الجافة . انظر :

Phillip K. Hitti : History of Syria p. 38.

ويفسرها جورج آدم سمث بالأرض الجنوبية . انظر :

Smith, George Adam The Historical Geography of Holy land p. 49.

وليس للقارىء أن يتصور هذا النطاق الجبلى سدا حاجزا بين السهل الساحلى و بقية الشام ، فإن الطبيعة أبت إلا أن تصل بين أجزاء هذا القطر ، فخفضت جبال أمانوس إلى الشرق من خليج إسكندرونة ، وجعلتها طريقا من البحر المتوسط وسهول الجزيرة مارا بحلب . وجاءت الطبيعة عند الطرف الجنوبى من هذا النطاق ، فمهدت سبلا إلى مصر ، وأخرى إلى جزيرة العرب . وفى وسط هذا النطاق ممرات أخرى أهمها مرج ابن عامر الذى يصل البحر المتوسط عند عكا وحيفا ببحيرة طبرية .

والنطاق الثالث أخدود طويل ضيق يبدأ فى الشمال عند انحناء نهر العاصى إلى الغرب . وأهم أجزائه وادى البقاع حيث بعلبك ، ووادى الأردن و يسمى العرب أكثره الغور ، ثم البحر الميت ، ووادى عربة الممتد إلى خليج العقبة . وهذا الأخدود منطقة زلازل حدث آخرها فى قسمه الشمالى سنة ١٨٢٢ م وحول حلب ومدنا أخرى وإلى كومات من الأنقاض .

وإلى الشرق من الأخدود يجىء النطاق الرابع ، وأهم أجزائه جبل لبنان الشرقى ، و يبدأ إلى الجنوب من حمص ويحاذى جبل لبنان الغربى تقريبا ، و ينتهى بجبل حرمون . وهذا الجبل يسمى أيضا الجبل الشيخ لأن قمته يتوجها الجليد كما يتوج المشيب رأس الشيخ ، ويسميه المقدسى جبل الثلج (١) .

ويتمم هذا النطاق هضبة حوران ومرتفعات شرق الأردن التى تتممها حرات مكة والمدينة وغيرها من حرات الحجاز . وهذا النطاق هو الذى أغفله المقدسى فى تقاسيمه .

والنطاق الخامس يشمل السفوح الشرقية من هضاب حوران وشرق الأردن ، تلك السفوح التى لاتلبث أن تنخفض سهولا وحرات (٢) ورمالا ، ثم إذا

---

(١) أحسن التقاسيم ص ١٦٠ .

(٢) الحرة : أرض ذات حجارة سود « القاموس المحيط » .

هى صحراء تعرف باسم بادية الشام، وما بادية الشام إلا الجزء الشمالى من صحراء جزيرة العرب . ويقابل بادية الشام من ناحية الشرق بادية الجزيرة فى الشمال ، و بادية العراق أو السماوة فى الجنوب . وهذه البوادى الثلاث صحراء واحدة مثلثة الشكل تقريبا ، قاعدتها خط من خليج العقبة إلى خليج الكويت ، ورأسها عند حلب . وهى بحكم موقعها تحتم على أهلها البداوة وتجعل منهم وسطاء يتجرون مع الحضر من أهل الشام والجزيرة والعراق و بلاد الغرب على السواء كما تضطرهم إلى التغلغل فى الهلال الخصيب[١] بالغلبة أحيانا ، وبالتسلل السلمى أحيانا أخرى ؛ وهم فى كلتا الحالين يمدون الحضر بدم بدوى يزيدهم همة ونشاطا .

* * *

وتقع الشام فى المنطقة التى تهب عليها الرياح العكسية شتاء والرياح الدائمة صيفا[٢] . ولذلك كان مناخها دفئا مطيرا فى الشتاء وجافا حارا بقية السنة ، وكانت السفوح الغربية من جبال الشام صاحبة الحظ الأوفر من المطر ، وكان قسمها الشمالى أكثر مطرا من قسمها الجنوبى . ومعنى ذلك أن المطر يتناقص من الغرب إلى الشرق ، و من الشمال إلى الجنوب ، ومن أعلى إلى أسفل وكذلك شأن درجة الحرارة ؛ مع ملاحظة أنه فى الشتاء يكون للبحر أثر فى تدفئة الهواء بالقرب من الساحل ، ويكون للقارة الآسيوية أثر فى خفض الحرارة ، حتى إن الهضاب الشرقية ينتابها الصقيع والثلج ، على حين يندر ذلك على الساحل . أما فى الصيف فإن سلسلتى جبال لبنان تمنعان الهواء المعتدل من التوغل إلى الداخل[٣]

---

(١) العراق والجزيرة الشام .

(٢) كانت هذه الرياح منذ بضع سنوات تسمى الرياح التجارية وهذه تسمية اتضح خطؤها لأن كلمة trade ترجمت تجارية بالمعنى الحديث على حين أن الترجمة الحقيقية لها بالمعنى الأصيل : الدائمة .

(٣) وقد أدرك المقدسى هذه الحقيقة فعبر عنها بقوله « إن الشام إقليم متوسط الهواء إلا وسطه من الشراة إلى الحولة فإنه بلد الحر » ص ١٧٩ أحسن التقاسيم .

فيشتد الحر فى دمشق وحلب وأمثالها ، ويزيد الحال سوءاً هبوب رياح صحراويه محملة بالغبار ، أشدها وقعاً السموم التى تقبل من الشرق أحياناً ومن الجنوب الشرقى أحياناً أخرى ، وبخاصة فى الربيع والخريف حين يثقلها الغبار فتصير خانقة .

والذى يعنينا من بلاد الشام إنما هو الإقليم الشمالى منها ، حيث قامت دولة سيف الدولة فيما يلى دمشق شمالا إلى جبال طوروس ، ذلك الإقليم الذى علينا أن نعنى عناية خاصة بجغرافيته أولا ، وبتاريخه ثانيا — لما لذلك كله من علاقة وطيدة بالشعر فى ظلال أمير بنى حمدان .

وطبيعة هذا الاقليم لا يمكن أن تنفصل عن طبيعة بلاد الشام عامة ، وإن كانت السياسة تستطيع أن تفصل ماتشاء . فهو سهول ساحلية ، وسهول منخفضة متوسطة ، و بين هذه و تلك مرتفعات ، ويلى السهولة المتوسطة هضبة وبادية . والكلام عن مناخه هو ما سبق أن قلناه فى المناخ العام لبلاد الشام ، وإن كنا يجب أن نلاحظ أنه يتميز عن سائر أقاليم الشام بأنه فى الشمال ، فهو بالإضافة إلى هذه الأقاليم أخف حراً صيفاً ، وأكثر برودة ومطراً شتاء بوجه عام . ومن الأنهار التى ينتفع بها هذا الإقليم نهر الفرات الذى يتاخمه من الشرق ، وهو يفيض سنويا من مارس إلى سبتمبر ، وأعلى ما يصل إليه فى شهر مايو . ولهذا النهر زمن فيضانه طغيان عظيم على السهول المجاورة ، فيزيدها خصبا [١] . ومن أشهر بلاد سيف الدولة الفراتية الرقة و بالس ، ومن الأنهار أيضاً نهر العاصى ، وأصل منبعه عند بلدة تسمى اللبوة ، ثم يسير شرقى المرتفعات الغربية مسافة طويلة مارا بحماة وشيزر وفامية ، ثم ينعطف نحو الغرب ، حيث يمر فى منقطع للمرتفعات الغربية ، ثم ينحرف نحو الجنوب الغربى ويمر على أنطاكية ويصب فى البحر المتوسط بالقرب من السويدية . ولحلب نهر معروف بنهر قويق ، وشرب أهلها منه ، ومنبعه من

---

(١) يرجع الى نهر الذهب ج ١ ص ٢٦ .

بلاد عينتاب ، و غوره فى المطخ[١] ، وكان يجرى فى عصر سيف الدولة فى الشتاء وينقطع فى الصيف[٢] ، ويدل على ذلك ما يقوله الصنوبرى أحد شعراء سيف الدولة :

قويق على الصفراء ركب جسمه　　فما لهب القيظ الأليم يطابقه
إذا جد جد الصيف غادر جسمه　　ضئيلا ولكن الشتاء يوافقه

قال ابن الشحنة فى الدر المنتخب — يريد أن أصحاب الأمزجة الصفراوية تنتحل أجسامهم فى الصيف ويوافقهم الشتاء ، وأن قويق يقل ماؤه فى الصيف حتى يصير حول المدينة كالساقية[٣] .

وتمد هذا النهر قبل وصوله إلى حلب عدة عيون ، فيعظم وتدور به الأرحاء[٤] وكذلك كان فى عهد سيف الدولة . قال الصنوبرى :

وسربل بالأرحاء مثنى وموحدا　　كما سربلت غصنا من البان أوراق
وفاضت عيون من نواحيه ذرف　　ولما تعاونها جفون وأحداق

ولهذا النهر فى بعض السنين طغيان عظيم من كثرة الأمطار ، فينبسط ماؤه مسافة قد تبلغ ميلا بين جانبيه . وقد طغى أيام سيف الدولة ذات مرة حتى أحاط بداره فى سفح جبل الجوشن وفى ذلك يقول المتنبى :

حَجَّبَ ذا البحرَ بحارٌ دونه　　يذمها النـــاس ويحمدونه
ياماء هل حسدتنا معينــه　　أم اشتهيت أن ترى قرينه

(١) المصدر نفسه ص ٤٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ٤٩ غير أن الترك العثمانيين قد حولوه إلى أرضهم كايه ، ومنذ انفصال الشام عن الدولة العثمانية صار قويق ومدينة حلب جافين طول الصيف . انظر :
Edde, Jacque ; Géographie du Liban de Syrie p. 108.
(٣) نهر الذهب ج ١ ص ٤٩ .
(٤) المصدر نفسه ص ٤٨ .

أم انتجعت للغنى يمينه أم زرته مُكَثِّراً قطينه
أم جئته مخندقا حصونه إن الجياد والقنا يكفينه

إلى أن يقول : —

بحر يكون كل بحر دونه شمس تمنى الشمس أن تكونه

ومن الأنهار التى فى الشمال الغربى من هذا الإقليم نهرا جيحان وسيحان وهما ينبعان من جبال طوروس ويصبان فى البحر المتوسط . ومن بلاد سيف الدولة على جانبى جيحان : كفر بيا والمصيصة ، وكانتا حصينتين جدا كما يقول ابن حوقل (١) .

وأما سيحان فهو دون جيحان فى الكبر ، ومن بلاده أذنة وطرسوس (٢) .

وبشمال الشام بعض البحيرات كبحيرة أفامية ، وتعرف الآن ببحيرة قلعة المضيق . وماؤها حلو يأتى إليها من نهر العاصى ، وهى قليلة العمق . وكبحيرة أنطاكية ، وهى بحيرة منبسطة على أرض تعرف بالعمق ، ويخرج من جنوبها نهر يتصل بالعاصى (٣) .

* * *

ويتجمع بعض المطر فى مجار تحت سطح الأرض ، وينبثق عيونا فى نواح متعددة — تسقى الإنسان والحيوان والنبات .

* * *

ويقوم أغلب سكان هذا الإقليم من قديم الزمان بالزراعة فيزرعون

---

(١) المسالك والممالك لابن حوقل ص ١٢٣ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) يرجع إلى نهر الذهب ج ١ ص ٢٣ .

الحبوب كالقمح والشعير والباقلاء ، ويغرسون الأشجار ذات الثمر الطيب ، ومنها الموالح كالبرتقال والليمون والنارنج ، وكثير من أشجار الفاكهة المختلفة كالتين والتفاح والكرم والأترج والصنوبر وأشجار النقل كالفستق ، ويكثر الزيتون الجيد بهذا الإقليم فى السهول المنخفضة .

ويزرع القطن حول حلب كثيرا ، وتكثر الرياحين والورود وسائر أزهار الربيع فى معظم جهات ذلك الإقليم . وفى البادية حيث يسقط القليل من المطر ينمو العشب الذى ترعاه الماشية ، وإن كان كثيرا ما يقل العشب فلا يفى بحاجة الماشية ، مما يضطر هؤلاء البادين إلى الإغارة على الحضر .

وقد كتب كثير من الرحالة وعلماء الجغرافيا فى القرن الرابع وفى النصف الأول من القرن الخامس — عن نبات بلاد الشام ما يجعلنا نلم بكثير مما كان فيها فى عصر سيف الدولة من أنواع النبات .

فقد ذكر المهلبى أنه تجلب من كور حلب وضياعها ما يجمع جميع الغلات النفيسة ، فإن بلدة معرة مصرين وجبل السماق كلاهما بلد التين والزبيب والفستق والسماق والحبة الخضراء (١) . ويقول ابن حوقل عن معرة النعمان : إنها مدينة كثيرة الخير والسعة والتين والفستق وما شاكل ذلك من الكروم (٢) . والمقدسى يقول إن القطن كان مما يجلب من حلب (٣) . ونعرف من المسعودى أن الأترج فى ذلك العصر كان كثيرا فى طرسوس وأنطاكية وغيرها من بلاد الشام (٤) ، وأن أحسن تفاح فى ذلك العصر كان تفاح الشام ، وكان مضرب المثل فى الحسن (٥) .

---

(١) خطط الشام ص ١٦٤ ج ٤ .

(٢) ابن حوقل ص ١١٨ .

(٣) أحسن التقاسيم ص ١٨١ .

(٤) عن نهر الذهب ج ١ ص ٣٣ .

(٥) عن الحضارة الإسلامية لآدم متز ج ٣ ص ٢٥٩ .

وابن بطلان يقول : إن أنطاكية تزرع الحنطة والشعير تحت شجر الزيتون[١] .

* * *

وقد قامت على بعض الحاصلات النباتية فى هذا الإقليم بعض الصناعات منذ القدم . فاشتهرت الشام لكثرة الكرم بالخمر ، وكان العرب فى الجاهلية يسمونها بلاد الخمر[٢] . ويستدل بالحفريات التى أجريت فى حمص أنه كان بها معاصر لزيت الزيتون[٣] . وذكر الثعالبى أن زيت الشام يضرب به المثل فى الجودة والنظافة ، وقد سمى بالزيت الركابى لأنه كان يحمل على الإبل من الشام وهى أكثر بلاد الله زيتونا ، وفيه ما فيه من البركة والمنفعة[٤] . وكانت حلب فى القديم مختصة بماء الورد النصيبى الذى يستخرج من بعض أعمالها كما كان الحلبيون يستقطرون زهر القرنفل الذى ينبت فى أراضيهم[٥] . وذكر المقدسى[٦] أن الثياب كانت من التجارات التى ترتفع من حلب . وقد عرفنا أن القطن كان من حاصلاتها وتجارتها ، فلا شك أن هذا القطن كان مما تصنع منه الثياب التى ترتفع منها .

* * *

وفى تربة بعض الجهات الشمالية مواد قامت عليها أيضاً بعض الصناعات . يقول المقدسى .. وبحلب مغرة جيدة[٧] . ويقول ياقوت إن فى جبل البشر —

---

(١) ص ١٦٦ جـ ٤ خطط الشام .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٣ .
(٣) ص ١٦٦ جـ ٤ خطط الشام .
(٤) المصدر نفسه ص ١٦٦ .
(٥) المصدر نفسه ص ١٧٤ .
(٦) أحسن التقاسيم ص ١٨١ .
(٧) المصدر نفسه ص ١٨٣ .

ويمتد إلى الفرات من أرض الشام من جهة البادية[١] — أربعة معادن : القار ، والمغرة ، والطين الذى يعمل منه بواتق لسبك الحديد ، والرمل الذى يعمل منه فى حلب الزجاج ، وهو رمل أبيض كالإسفيداج[٢] . وكانت صناعة الزجاج من أهم الصناعات التى عرفت بلاد الشام بها منذ القدم ، وكانت الزعامة فى إنتاج التحف الزجاجية فى فجر الإسلام لمصر والشام ، وكان صانعو الزجاج فى العراق يقلدون أشكال الأوانى والأساليب الزخرفية فى التحف الزجاجية التى كانت تنتجها أمهات المدن فى سوريا وفلسطين ، مثل صور وأنطاكية وعكا والخليل ودمشق وحلب[٣] . وقد عد الثعالبى صناعة الزجاج الجيد من خصائص الشام فقال : إن الزجاج الشامى يضرب به المثل فى الرقة والصفاء فيقال : أرق من زجاج الشام[٤] .

* * *

وأما حيوانات ذلك الإقليم فهى كثيرة مختلفة ، فمن الأليف منها : الخيل الأصيلة[٥] والبراذين والبغال والإبل والحمير والبقر والغنم والجاموس . وبه القطط والكلاب وكلاب الصيد وغيرها ، ومن الحيوانات الوحشية أنواع الغزال وحمار الوحش وبقر الوحش والذئب والضبع ، وكان الأسد والفهد منتشرين قديما وقد انقرضا الآن[٦] .

---

(١) بين الرقة وتدمر ويثبت على الخرائط الحديثة باسم جبل بشرى .

(٢) الخطط ج ٤ ص ١٧٧ .

(٣) ص ٥٨٢ فنون الإسلام .

(٤) الخطط ج ٤ ص ٢٣٨ .

(٥) دخلت الخيل إلى الشام بطريق الهكسوس فى نحو القرن الثامن عشر قبل الميلاد ومن الشام أدخلت بلاد العرب قبل مولد المسيح وبانعزال الخيل العربية عن غيرها حافظت على سلالتها الأصيلة ولم تهجن باختلاطها بغيرها . انظر :
Phillip K. Hitti : History of Syria p. 52.

(٦) المصدر نفسه ص ٥٠ .

وأما الطيور فمنها الدجاج والإوز والبط والحمام ، ومنها حمام الزاجل الذى كانت بلاد الشام مشهورة به من قديم الزمان . ومن طيور ذلك الإقليم كذلك العصفور والبلبل والصلصل والدراج والحجل والتدرج الذى يسمى دجاج القنبيط وهو يفد على بساتين حلب فى الخريف و يبقى مادام القنبيط موجودا .

و يفد إلى بعض مافى سوريا الشمالية من البحيرات كثير من طيور الماء التى تصاد[1] فضلا عن السمك الذى يصاد منها كما يصاد من الأنهار والبحر المتوسط .

* * *

هذه البيئة الطبيعة المتنوعة المناظر المختلفة المشاهد : من البر والبحر ، والسهول والوديان والجبال ، والأنهار والبحيرات والعيون ، والزروع والأشجار والثمار والأزهار والحيوان الأليف والوحشى والطير البرية والمائية والداجنة وغير الداجنة ... الخ كل أولئك قد فتن بعض شعراء العصر الحمدانى ، حتى لقد وقف بعضهم شعره كله أو جله على التغنى بمشاهد هذه البيئة ورسم صورها ، كما سنتحدث عن ذلك فى موضعه .

و يكفى الآن أن نمثل ببعض الأبيات لشاعر من شعراء سيف الدولة يعد شعره من أهم الوثائق الجغرافية التى تدلنا على بعض ما كان فى هذه البيئة من ألوان الأزهار والأشجار والأطيار .

ذلك الشاعر هو الصنوبرى الذى يعده آدم متز[2] شاعر الطبيعة الأول لكثرة ماوقف شعره على البيئة الشامية الطبيعية والتحدث عنها .

---

(١) نهر الذهب ج ١ ص ١٣٧ و الخطط ج ٤ ص ٢٠٢ .

(٢) الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٤٣٤ .

يقول الصنوبرى من قصيدة[(١)] له فى حلب : —

أى حسن ما حوته حلب أو ما حواها

سرورها الدانى كما تد نو فتاة من فتاها

آسها الثانى القدود السهيف لما أن ثناها

نخلها زيتونها أو لا فأرطاها[(٢)] غضاها

قَبْجُهَا[(٣)] دُرَّاجُهَا[(٤)] أو فحُبَارَاها[(٥)] قطاها

ضحكت دُبْسِيَّتُهَا[(٦)] وبكت قمريتاها

بين أفنان يناجى طائريها طائراها

تدرجاها[(٧)] حُبْرُجَاها[(٨)] صُلْصُلاَها[(٩)] بلبلاها

و يقول فى هذه القصيدة أيضاً : —

حلب أكرم مأوى وكريم من أواها

بسط الغيث عليها بسط نور ما طواها

وكساها حللا أبـ دع فيها إذ كساها

---

(١) من ص ٣٣ إلى ص ٤٢ الروضيات .

(٢) شجر نوره كنور الخلاف وثمره كالعناب مرة تأكلها الإبل غضة وعروقه حمر الواحدة أرطاة — القاموس المحيط .

(٣) القبج : الحجل والقبجة تقع على الذكر والأنثى : المصدر نفسه.

(٤) طائر : المصدر نفسه .

(٥) من طير الماء : المصدر نفسه .

(٦) الدبسى طائر أدكن يقرقر وهى بهاء . المصدر نفسه .

(٧) سبق الكلام عنه .

(٨) من طير الماء « القاموس المحيط » .

(٩) طائر : المصدر نفسه

حللا لحتهـا السو سن والورد سداها
اجن خيرياتها بالـ ـلحظ لا تحرم جناها
وعيون النرجس المنـ ـهل كالدمع نداها
وخدودا من شقيق كاللظى الحر لظاها
وثنـــايا أقحوانا ت سنا الدر سناها
شاع آذريونها إذ ضاع من تبر ثراها
وطلى الطل خزاما ها بمسك إذ طلاها
و... ... ... الخ

أرأيت إلى الصنوبرى كيف يقدم لنا من شعره ما يخفف عنا شيئا كثيرا من مئونة البحث والتنقيب ، فيما خلفه لنا الرحالة والجغرافيون القدماء عن هذه البيئة من معلومات يحتاج إليها الدارسون ، ويجرى وراءها الباحثون ؟ .

لقد استدل صاحب نهر الذهب بذكر الصنوبرى للنخيل ضمن أشجار حلب مع أنه لا أثر له الآن فيها(١) — على أن الجو قد تحول فيها من الحر إلى البرد ، لأن النخيل من الأشجار القليلة التحمل للبرد .

* * *

وفضلا عن أن هذه البيئة التى عنينا بالكلام عنها كانت موضوعا من موضوعات الشعر فإن معرفتها توضح لنا كثيراً من ألوان الحياة الاقتصادية لمن كانوا يعيشون فى تلك البيئة فى هذا العصر الذى نتحدث عن الشعر فيه ، ولا يخفى ما فى ذلك من التأثير فى أمزجة الشعراء ومشاعرهم .

---

(١) نهر الذهب ص ٣٤ .

هذا إلى أن موقعها الجغرافى ووفرة خيراتها قد جعلاها مطمعا لكثير من المغيرين والفاتحين ، مما سنبينه فى القسم التالى التاريخى .

(ب) القسم التاريخى :

أقدم الشعوب التى سكنت هذا الإقليم — فيما يحدثنا به التاريخ — الآراميون ، وفى فترة من فترات التاريخ القديم تغلب عليهم المصريون ، ثم دخلوا ضمن مملكة خيتا (مملكة الحثيين) التى نشأت فيما وراء جبال طوروس[١] . واتخذ الحثيون قادش على نهر العاص عاصمة لما وقع من سوريا ضمن ملكهم . والمشهور أنهم هم الذين بنوا حلب[٢] . وتدل الآثار المصرية الفرعونية على أن حلب كانت فى عهد الحثيين مملكة خاضعة لملكهم ، واشتركت معهم فى حروبهم مع المصريين . ومن أشهر هذه الحروب ما وقع بينهم و بين المصريين فى عهد رمسيس الثانى ، فى السنة الخامسة من ملكه تقدم بجيشه لمحاربة الحثيين لنقضهم شروط محالفة كانوا قد عقدوها مع سلفه ساتى الأول ، وجرت بين الفريقين موقعة عظيمة عند قادش اشتهر بها ملك حلب ، وكان تحت قيادته وحده ثمانية عشر ألف جندى ،[٣] ولكن الحثيين انهزموا ، وغرق ملك حلب فى نهر العاصى وأنقذه رجاله . وقد سجلت الآثار المصرية على جدران هيكلى الكرنك والأقصر هذه الموقعة ورسم ملك حلب — أو حلبو كما كان يسميها المصريون — مقلوبا يحاول رجاله إفراغ ما ابتلعه من الماء[٤] .

ويبدو أن سوريا فى عهدهم كانت ممالك أو إمارات صغيرة ينازعهم عليها

---

(١) الخطط ج١ ص ٨٧ ، مصر فى العصور القديمة ص ٧٧ .

(٢) سيف الدولة وعصر الحمدانيين ص ٤٩ .

(٣) الدر المنتخب ص ٢٨ .

(٤) مصر فى العصور القديمة ص ٩٥ .

جيرانهم من الطامعين فى ملك هذه البلاد العظيمة الخيرات — من المصريين والآشوريين والبابليين .

فقد أحصى ملوك سوريا الذين خضعوا لتجلت فلاصر ملك آشور فى حرب له مع الحثيين ، فكانوا خمسة وعشرين ملكا[1] . وأشهر هذه الممالك مملكة حماة ومملكة حلب .

والحثيون شعب قوى مختلف فى جنسيته ؛ وكان من أهم صناعاته صناعة العمارة ونحت الحجر وإتقان التحصين[2] ، ويقال إنهم أول من بدأ فى بناء قلعة حلب . وقد انقرض ملكهم من الشام فى القرن الثامن قبل الميلاد على يد سرجون ملك آشور[3] .

وأما الشعب الآشورى فهو شعب فطر على حب الحرب ؛ وقلما تراهم فى الصور التى نقشوها إلا مسلحين ممتطين متون الخيل مستعدين للنزال والضراب . وقد عرفوا بالخيانة وسفك الدماء ، وأذلوا الشعوب التى حكموها إذلالا لم يعهدوه فى حكم غيرهم[4] . وقد لقيت سوريا فى عهدهم كثيرا من ألوان المحن والعذاب . وعرفت حلب فى لغتهم باسم حلوان .

وما زالت هذه البلاد بعد انقراض ملك الحثيين تتأرجح بين الآشوريين والبابليين والمصريين : أيهم يقوى تكون له الغلبة عليها أو على بعضها ، حتى قامت دولة الفرس فاستولت على بلاد الشام كلها ، وعلى عهد دارا من ملوك الفرس جعلت صيدا عاصمة البلاد الشامية . وما برحت بلاد الشام فى قبضة الفرس إلى سنة ٣٣٣ ق م إذ قضى الإسكندر المقدونى على دولة الفرس ، وبسط سلطانه على بلادها فصارت الشام ولاية يونانية[5] .

---

(١) تاريخ حماة ص ١١ . (٢) المصدر نفسه ص ١١ .

(٣) المصدر نفسه ص ١١ .

(٤) مذكرات التاريخ السياسى للعرب القدامى والأمم التى تجاورهم للأستاذ محمد فخر الدين ص ١٣٤ .

(٥) يرجع إلى خطط الشام ج ١ ص ٩٢ .

ولما هلك الإسكندر اقتسم الامبراطورية اليونانية قواده الثلاثة ، فكانت الشام من حصة سلوقوس ، وقد جدد سلوقوس هذا حلب ، وأكمل بناء أنطاكية وزخرفها وسماها على اسم والده أنطيوخس[١] واتخذها عاصمة له كما بنى مدنا أخرى كاللاذقية وسلوقية وفامية[٢] وسميت حلب فى عهده « باروا » وكذلك كان اسمها فى سائر العهد اليونانى وفى عهد الرومان فيما بعد[٣] .

والراجح أن اليونانيين قد نقلوا أسماء كثير من بلادهم فى مقدونيا إلى ما جددوه أو بنوه من مدن الشام[٤] .

وكانت الدولة السلوقية اليونانية دولة حرب ونزاع ، فمنيت البلاد بسوء الحال وقلة الرجال ، ولما ضاق الشاميون ذرعا بملوكهم اليونانيين استنجدوا بملك أرمينية ، فأتى إليهم واستولى على البلاد سنة ٨٣ ق م واستمر ملكه فيها إلى أن جاءها الرومان سنة ٦٦ ق م[٥] .

وفى أواخر النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى (٣٩٥م)[٦] انقسمت الدولة الرومانية إلى دولة غربية عاصمتها رومة ، ودولة شرقية عاصمتها القسطنطينية وهى المعروفة بدولة الروم . وكانت هذه أسعد حظا من أختها وأطول عمرا

---

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب ج ١ ص ١٦ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الدر المنتخب ص ٢٩ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) خطط الشام ج ١ ص ٩٣ .

(٦) فى هذه السنة توفى الإمبراطور تيودسيوس الكبير مخلفا لولديه أركاديوس وهنوريوس تراثا ضخما فتولى أركاديوس أمر الشرق وهنوريوس أمر الغرب فصارت الدولة منقسمة قسمين : شرقى وغربى — دائرة فريد وجدى المجلد الرابع ص ٤٥٧ وإن كان الحق أن ذلك الانقسام قد بدأ منذ تأسيس القسطنطينية سنة ٤٣٠ م — يرجع إلى كتاب الإمبراطورية البيزنطية فى الفصل الأول الملحق بالكتاب ص ٣٢٠ و ٣٢١ وإلى محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ١٨٣ .

وأصبحت القسطنطينية فى عهدها مبعث العلم، ومركز الحضارة، ومرجع الدين فى أنحاء الامبراطورية البيزنطية.

وقد كانت الشام فى عهد الروم إحدى عشرة ولاية، على كل منها حاكم والغالب أن يكون بطريقا[1] وعلى حكام الولايات الشامية جميعا حاكم عام يقيم فى أنطاكية، وكان لهذا الحاكم أن يولى ويعزل من يشاء من حكام الأقاليم وهو يتولى جباية الخراج والإنفاق على الجند وسائر الأعمال[2]. فكانت أنطاكية المدينة البارزة فى الشام على عهد اليونان والرومان، فهى العاصمة السياسية الكبرى التى يقيم بها الحاكم العام للشام، كما كانت كذلك مباءة علم وأدب وحكمة.

وقد فت فى عضد البلاد ما كان يقع فيها من الاضطرابات والفتن بسبب المنافسات الشديدة بين الرؤساء فى الشام، مما أضر بزراعة السكان وتجارتهم.

ثم كثرت الحروب كذلك بين دولتى الروم والفرس، كل تريد أن تبسط سيطرتها على البلاد الأخرى، وقد أصيبت بلاد الشام من جراء ذلك بالعنت الكبير.

هذا فضلا عن أن النصرانية فى الشام قد تشعبت إلى مذاهب مختلفة كمذاهب النساطرة واليعاقبة، واضطهدت بيزنطة التى كانت تدين بالمذهب الأرثوذكسى الملكانى — ما عداه من المذاهب، وإلى ذلك كله كان الروم

---

(١) البطريق عند الروم غير البطريرك وإنما هو لقب جماعة من شرفاء المملكة الرومانية نشئوا بنشوء مدينة رومية وكان لهم نفوذ عظيم فى دولة الرومان وكانوا بعد انقسام المملكة الرومانية قد انحط شأنهم ولم يعد لهم عمل فى الحكومة فلما امتدت تلك المملكة إلى أفريقية وسائر المشرق رأت الحكومة أن هذه الولايات البعيدة تحتاج الى من يتولاها ويكون له هيبة وسطوة فجعلوا يولونهم الولايات فى تلك المستعمرات وفى جملتها الشام ومصر وما يليها — تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ٢١٨ — وفسر الخضرى البطريق بالقائد ص ٣٨٨ محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية: الدولة العباسية.

(٢) تاريخ التمدن ج ١ ص ١١٨.

يرهقون البلاد بشتى ألوان الظلم والعسف ، ويكلفون أهلها مالا يطيقون من الجبايات والمغارم ، حتى لقد كانوا يبيعون أولادهم ليوفوا ما عليهم .

وقد ظل أهل الشام على تلك الحال السيئة حتى أنقذهم الفتح العربى الإسلامى من جور الطغاة ، كما أنقذ غيرهم .

ولبلاد الشام صلة قديمة بالعرب ، يرجع تاريخها إلى ما قبل الإسلام ، وقد عمل على تكوين تلك الصلة عوامل عدة ، منها قرب الشام من جزيرة العرب فتيسرت هجرة بعض القبائل العربية إلى تلك البلاد ، ومعظم هذه القبائل يمنية ، وقد كان انهيار سد مأرب حافزا لهجرتها ، وهى تكثر فى جنوب بلاد الشام وتقل فى شمالها ، وبعض هذه القبائل كان يسكن بالقرب من مدينة حلب فى مكان يدعى حاضر حلب[1] .

وهؤلاء العرب كانوا يعدون أنفسهم شاميين ، ولغتهم مزيج من الآرامية والعربية[2] ومن تلك العوامل أيضا تجارة الشاميين التى كانت مع اليمنيين أولا ثم مع قريش ثانيا ، وكان من أثرها تبادل الألفاظ اللغوية بين العرب وبين الشاميين .

ومنها تلك البعوث الدينية الشامية التى كانت تجوب جزيرة العرب للدعاوة لنشر اليهودية والنصرانية ، وقد اتصل يهود الشام ونصاراهم بيهود العرب ونصاراهم[3] ، بل إن بعض المؤرخين يروى أن الوثنية أيضا انتقلت إلى بلاد العرب عن الشاميين ، نقلها عمرو بن لحى[4] ؛ مما يسوغ القول بأن الاتصال الدينى بمختلف أنواعه كان من العوامل الروحية التى قربت الشاميين من العروبة

---

(١) سيف الدولة وعصر الحمدانيين ص ٥٢ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة شام .

(٣) فجر الإسلام ص ١٤ .

(٤) مروج الذهب ج ١ ص ٣٦٧ و ج ٢ ص ١٣٦ .

إلى حد ما ، فضلا عن أنه كان من عوامل نشر اللغة العربية فى الشام ، فقد اضطر المبعوثون الشاميون إلى تعلم اللغة العربية التى يتكلم بها من بعثوا إليهم ، وساعد على ذلك إقامتهم بينهم .

ومما يذكر من تلك العوامل قيام بعض الدول العربية فى الشام كالأنباط وكانت لغتهم الرسمية هى اللغة الآرامية[1] وعاصمتهم سلع أو البتراء . والأنباط عرب من بقايا العمالقة والعمالقة قوم من عاد . وهم الجبارون فى الشام[2] . وقضى الرومان على استقلال سلع سنة ١٠٦م وضموها إلى امبراطوريتهم ، فعرفت عندهم باسم المقاطعة العربية[3] .

وكدولة تدمر ، وعاصمتها تدمر ، وكانت السيادة فيها للعرب بالرغم من أن الآراميين كانوا يؤلفون معظم السكان فيها[4] . وقد دمر الرومان تدمر سنة ٢٧٣ م وآخر ملوكهم زنوبيا[5] .

وملكت الروم من عرب اليمن بالشام تنوخ والضجاعمة وغسان[6] ، ليمنعوا عرب البادية من العيث ، وليكونوا عدة تقف دون عدوان الفرس وأشهر ملوك غسان الحارث الخامس[7] الذى جعله يوستنيانوس بطريقا ، وأنعم عليه بالتاج عام ٥٢٩ م ، ومنحه السلطة المطلقة على جميع العرب فى شمالى سورية[8] ، وآخر ملوكهم جبلة بن الأيهم . وقد وفد الشعراء على الغساسنة : كالنابغة والأعشى والمرقش الأكبر وعلقمة الفحل وحسان .

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ج ١ ص ٢٠ .
(٢) خطط الشام ج ١ ص ٦٠ .
(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ج ١ ص ٢١ .
(٤) المصدر نفسه .
(٥) المصدر نفسه ص ٢٢ .
(٦) خطط الشام ج ١ ص ٦٢ .
(٧) هو الحارث بن جبلة ص ٢٣ فجر الإسلام .
(٨) تاريخ الشعوب الإسلامية ج ١ ص ٢٣ .

كل ما سبق يؤكد صلة الشام بالعروبة من قبل الفتح الإسلامى ، مما سوغ لبعض الباحثين أن يعد الشام عند ذلك الفتح نصف عربية[١] .

ونحن فى حاجة إلى تعرف تلك الصلة لسببين : —

السبب الأول : أنها كانت إلى جانب حال الشام التى شرحناها قبل الفتح العربى الإسلامى — داعيا قويا للشاميين أن ييسروا إلى حد ما ذلك الفتح ، ويشدو أزر العرب المضطلعين به ، وهذا هو ما نحن بصدده فى هذا القسم التاريخى الذى نعقده الآن .

والسبب الثانى : هو أن تَعَرُّفَ تلك الصلة الآن سينفعنا كثيرا فيما بعد ولا سيما فى الفصل الذى سنعقده عن الحياة الأدبية .

* * *

ومهما يكن من شىء فقد فتح العرب بلاد الشام وأجلوا الروم الظالمين عنها . ولكن شاء الحظ العاثر لسوريا الشمالية أن يقف الفتح الإسلامى عند نهايتها أو ما فوق نهايتها بقليل ، فإن العرب لما فتحوا الشام وبلغوا السفوح الجنوبية الشرقية عند جبال طوروس — وجدوها أشد بأسا من جنود الروم بسبب وعورتها وبردها ، والبرد عدو لا يقهره العرب .

وبسبب هذين الدرعين : وعورة طوروس وبرد آسيا الصغرى — وقف الفتح العربى فى هذه الناحية[٢] فبقى شمال الشام مجاورا للروم الذين لم ينسوا هذا القطر الجميل وخيراته بعد أن غلبهم المسلمون عليه فى عهد عمر ، وودعه

---

(١) خطط الشام ج ٤ ص ١٤ .

(٢) الجغرافية التاريخية الإسلامية للأستاذ محمد حسونة ص ٣٢ ويقول فيليب حتى إن اللغة العربية تجمدت على السفوح الجنوبية من تلك الجبال ولم يتحدث بالعربية أى جزء من الأناضول فى أى زمن من الأزمان وكان سكان الأناضول من أقدم العصور من غير الساميين انظر :
Phillip K. Hitti : History of Syria p. 423.

هرقل قيصر الروم وداعه الحزين حين قال : وداعا يا سورية ، وداعا أيها القطر الجميل ، وداعا لا لقاء بعده فأنت اليوم بلاد الأعداء[1] . ومن أجل ذلك كان هؤلاء الروم لا يفتئون يغيرون عليه من الشمال ، فكثرت الحروب بينهم وبين المسلمين ، وتعددت الوقائع بين هؤلاء وهؤلاء وكان ميدانها سوريا الشمالية، مما جعل العناية بالقلاع والحصون وشئون الحرب فى تلك البلاد — أمرا لا مفر منه ، لصد غارات هؤلاء الأعداء الطامعين .

وقد دعت هذه الحال أن يكون فى أقصى شمالى الشام إقليم يسميه المسلمون بالعواصم والثغور ، فأما العواصم فيراد بها أعالى الشام وراء حلب إلى اسكندرونة ، وقد أطلق عليها هذا الاسم لكثرة ما أقيم بها من الحصون المنيعة التى يعتصم بها الجنود المرابطون لصد هجوم الأعداء[2] ، وأما الثغور فهى ما وراء العواصم إلى حدود جبال طوروس من البلاد الواقعة على الحدود بين المسلمين والروم من الثغور الجزرية التى تلى الجزيرة و الثغور الشامية مما يلى الشام ، وكان الجميع يحسب من الشام . وقد سميت بالثغور لأنها مواضع المخافة من الأعداء ، وكانت هذه الثغور كثيرة القلاع والحصون أيضاً كالعواصم ، بل هى أولى بالوقاية والتحصين ومن أجل ذلك قد يدخلون الثغور فى العواصم ، ويطلقون عليها جميعا اسم العواصم[3] .

ومن بلاد العواصم والثغور بالس ومنبج وأنطاكية وملطية وحصن منصور والحدث ومرعش وزبطرة وخرشنة والهارونية وإسكندرونة والتينات والمصيصة وأذنة وطرسوس .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) فى نخبة كاتارس ص ٦٢ « وإنما سمى كل واحد منها عاصما لأنه يعصم الثغر وعده فى أوقات النفير » .

(٣) التمدن الإسلامى ص ٣٣ ج ٣ .

وقلما يعرف الجغرافيون القدماء ببلدة من هذه البلاد دون أن يذكروا حصنا أو أكثر كان بها ، بل إن ابن حوقل مثلا كثيرا ما يعرف البلد بأنها حصن ، مما يشير إلى أن بعضها إنما كان الأصل فى إنشائه أن يكون حصنا ، فزبطرة مثلا : حصن كان من أقرب الثغور إلى بلد الروم خربه الروم ، والهارونية : حصن صغير بناه هرون الرشيد فنسب إليه ، وإسكندرونة : حصن على ساحل بحر الروم ، والتينات : حصن على شط البحر أيضاً ، والكنيسة : حصن فيه منبر . . . الخ[1] . ولا شك أن كثيرا من هذه الحصون قد اشتركت فى بنائه معظم الأمم التى تدوالت حكم هذه البلاد المتنازع عليها منذ القدم ، وربما كان منها ما يرجع إلى الحثيين الذين كانوا مشهورين بصنعة العمارة وإتقان التحصين كما عرفنا من قبل ، وقد كانت هذه المنطقة على تخوم مملكتهم خيتا التى كانت وراء جبال طوروس ، ثم بسطوا سلطانهم عليها وعلى بعض ما يقع جنوبها من بلاد الشام .

ثم آلت إلى المسلمين فزادوا فيها وجددوا على مر الأيام ما تقوض منها وتهدم . وأول من أطلق على هذه الجهات اسم العواصم هرون الرشيد[2] وقد جعلها جندا خاصا من أجناد الشام .

وأصل تسمية أقاليم الشام أجنادا أن ولاية الأعمال فى عهد المسلمين كانت فى بادىء الأمر أشبه بالاحتلال العسكرى منه بالتملك ، وكان العمال أو الولاة من قواد الجند المقيم بضواحى البلاد المفتوحة ، الذى يعبر عنه بالرابطة أو الحامية ، وكانت الجنود الإسلامية منقسمة قوات تقيم فى محطات عسكرية ، فكانت عساكر الشام أربعة أجناد ، تقيم فى دمشق وحمص والأردن وفلسطين[3] ، وقد

(١) يرجع إلى المسالك والممالك لابن حوقل ص ١١٩ و ١٢٠ و ١٢١ .
(٢) نهر الذهب ج ٣ ص ٢١ .
(٣) تاريخ التمدن ج ١ ص ١١٩ و ١٢٠ .

جرى هذا التقسيم على النظام الذى سلكه أبو بكر فى فتح الشام ، إذ عقد اللواء لأربعة من القواد : أبى عبيدة ووجهته حمص ، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين ، ويزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق ، وشرحبيل بن حسنة ووجهته وادى الأردن [١] . وقد ولى أبو بكر كل واحد من هؤلاء البلد الذى هو سائر لفتحه قبل خروجه إليه [٢] .

وظلت الشام على ذلك التقسيم الإدارى حتى ولى الخلافة يزيد بن معاوية فجعلها خمسة أجناد [٣] : الأربعة السابقة ، وجند قنسرين الذى جعلت حلب قصبته ، وكان هذا الجند من قبل مضافا إلى حمص . وفى عهد عبد الملك بن مروان أفردت الجزيرة عن [٤] جند حمص كذلك وجعلت جندا قائما بذاته فبلغت الأجناد ستة إلى عهد هرون الذى أفرد العواصم عن جند حمص أيضاً وجعلها وحدها جندا كما سبق .

وإذن فقد صارت سوريا الشمالية من عهد الرشيد ثلاثة أجناد : جند حمص وقصبته حمص ، وجند قنسرين وقصبته حلب ، وجند العواصم وقصبته أنطاكية .

وقد دعا إلى إفراد هذا الجند — كثرة الضغط على البلاد القريبة من إغارات الروم وعدوانهم .

والحق أن موقع شمالى الشام جنوبى جبال طوروس التى وقف عندها الفتح الإسلامى ـ قد كتب عليه أن يتصل شقاؤه السالف بشقاء لا حق لازمه أجيالا طويلة من جراء هؤلاء الأعداء المرابطين بجواره ، فقد اتصلت الحرب بين العرب والروم منذ فتح هذه البلاد ، فالروم يودون أن يستعيدوا بلادا كانت لهم إن استطاعوا ، أو يحتفظوا بما انتهت إليه حدودهم عند جبال طوروس

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ١٩٠ و ١٩١ .
(٢) تاريخ التمدن ج ١ ص ١١٩ .
(٣) نهر الذهب ج ٣ ص ٢٠ .
(٤) المصدر نفسه .

إن لم يمكنهم العرب من التوغل بعد هذه الحدود ، وكذلك الحال لدى المسلمين ، يريدون أن يفتحوا البلاد كلها ، لينشروا دعوة النبى المرسل إلى الناس كافة ، وليغنموا من وراء الفتح بسطة فى الرزق وسعة فى الخيرات ، فإن لم يستطيعوا الفتح فليحفظوا للإسلام حرمته ، ويمنعوا حدود بلاده من عبث الكفار والمشركين ، وليستبقوا لأنفسهم ما يتمتعون به من خيرات البلاد التى جاهد فى فتحها السلف الماجدون .

ومن أجل ذلك كانت الحدود بين هؤلاء وهؤلاء تميل نحو أرض الروم تارة ونحو أرض المسلمين تارة أخرى ، ولا تكاد تستقر على حال منذ عهد الراشدين .

وعلى هذا الوضع من علاقة هذا الإقليم بالروم سيجده سيف الدولة عند قدومه إليه ، وإن كان موقف المسلمين إزاء الروم إذ ذاك قد ازداد ضعفاً .

* * *

وأما باقى الجوانب من التاريخ السياسى لهذا الإقليم إلى عهد سيف الدولة — فقد اختلف باختلاف السياسة العامة للدولة الإسلامية ، واختلاف ما كان يجرى داخل الدولة من أحداث .

وقد كانت الدولة الإسلامية قوية بوجه عام فى عهد الراشدين ، وفى عهد الأمويين وفى العصر الأول للعباسيين . ومن أجل هذا فقد كان كثير من الولايات التابعة لها تنعم بكثير من الطمأنينة والاستقرار ، وقد صارت بلاد الشام مستقر عاصمة الدولة فى عهد الأمويين ، مما جعلها فى ذلك العهد خاصة — أكثر استقرارا وأبعد عما كان يحدث فى بعض الولايات الأخرى من أحداث ، كالذى كان من فتنة الزبيريين فى الحجاز .

وقد نقلت العاصمة من بلاد الشام إلى العراق فى عهد العباسيين ، وكان فى

أول هذا العصر فتن وثورات بسبب تغيير دولة وقيام أخرى ، وبسبب تشيع البلاد الشامية للدولة الأموية الراحلة ، ولكن سرعان ما كان العباسيون يخمدون هذه الثورات ويعود الهدوء والاستقرار .

ومهما يكن من شيء فقد مضى العصر العباسي الأول على الشام مضيا حسنا بوجه عام ، وكان بعض الخلفاء يهتمون به فيولون على أقاليمه حكاما عظاما يسوسون البلاد سياسة حكيمة ، كما فعل المهدي إذ ولى ابنه هرون جند قنسرين[1] من شمال الشام .

* * *

ثم ضعفت الدولة العباسية على أيدى الأعاجم ولا سيما الأتراك الذين استكثر منهم المعتصم فى الجيش ، فكانوا نكبة على الخلافة الإسلامية وشرا مستطيرا على الخلفاء على ما سنوضحه فى الفصل التالى ؛ وكان للأقاليم الإسلامية عامة ولشمالى سورية خاصة — بعد ضعف الخلافة العباسية — شأن آخر يخالف ما كانت عليه فى العصر الزاهر للعباسيين ، لما نشأ فيها بعد هذا العصر من الانقلاب والاضطراب ، بسبب تنافس الأمراء والولاة على الانفراد بالحكم والسلطان .

وكان من سنة الخلفاء بعد أن ضعفت سلطتهم المركزية فى بغداد — أن يجعلوا بعض الأقاليم الإسلامية إقطاعا لأولياء عهودهم أو لبعض القواد من الترك ، وكان هؤلاء القواد الأتراك يؤثرون البقاء على مقربة من (بلاط) الخلفاء خشية أن تدبر الدسائس ضدهم أو أن يبعدوا عن مسرح الأحداث السياسية ، وكان الخلفاء أنفسهم يرحبون ببقائهم فى العاصمة خشية أن يستقلوا بما يولونه من الأقاليم . ومن أجل ذلك كان هؤلاء الولاة لا يحكمون بأنفسهم ، بل يوفدون

(١) خطط الشام ج ١ ص ١٩٥ .

KASHMIR UNIVERSITY
Iqbal Library

إلى تلك الأقاليم نوابا عنهم ، ويتلقون منهم ما يتبقى من الضرائب بعد دفع نفقات الإدارة ، فيدفعون إلى بيت الخلافة جزءا منه[1] وبذلك ضعفت الصلة بين الخلافة المركزية وبين هذه الولايات مما ساعد على استقلالها عن الخلافة العباسية ،

وكذلك استقل أحمد بن طولون بمصر ، وقد كان نائبا عن القائد التركى الوالى الأصيل بايكباك[2] المقيم فى بغداد ، وأسس الدولة الطولونية فيها سنة ٢٥٤ ﻫ ، وإن بقيت تابعة تبعية اسمية للخلافة العباسية . وهنا تصبح بلاد الشام محصورة بين الخلافة العباسية فى بغداد ودولة الطولونيين فى مصر . وتدلنا حوادث التاريخ القديم التى سردناها فيما مضى على أن بلاد الشام كانت دائما مطمعا لكل الدول التى تقوم إلى جوارها ، فكانت مطمعا المصريين والحثيين والبابليين والآشوريين قديما . وقد لقيت من جراء ذلك عنتا كبيرا ، وإرهاقا عظيما ، إذ كانت مسرحا للحروب بين الطامعين والمتغلبين ، ثم هى تصير أخيراً لأول مرة بعد الفتح الإسلامى ـ مطمعا للطولونيين .

وقد استطاع ابن طولون أن يضمها إلى مصر ، ولكنها صارت ميدانا للمنازعات والمنافسات بين الخلافة العباسية وقوادها وولاتها وبين الطولونيين ، بل كذلك بين الطولونيين وبين أتباعهم الذين كانوا يخرجون عليهم أحيانا كالذى حدث من لؤلؤ مولى أحمد بن طولون — وقد كان واليا من قبله على قنسرين وحلب وحمص من شمال الشام وديار مضر من الجزيرة — إذ خرج على مولاه وسار إلى بالس على الفرات ونهبها[3] .

وكانت الأحوال فى الدولة العباسية تسير من سىء إلى أسوأ ، فضعف

---

(١) مصر فى عصر الإخشيديين للدكتورة سيدة إسماعيل كاشف ص ١٣ .

(٢) خطط الشام ج ١ ص ١ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٤ .

الخلافة يزداد، والمنافسة بين الولاة والقواد تشتد لاستنزاف دماء الرعية واستلاب أموالها وثرواتها، فضلا عن إهمال شئونها وعدم القيام على ما يكفل لها الحياة الكريمة.

ومن أجل ذلك ظهرت بعض المذاهب الهدامة التي كان أشدها خطراً على كيان الدولة الإسلامية ـ مذهب القرامطة [١] الذين كانوا يستبيحون الحرمات ويهدمون الشرائع وينكرون الحياء ويقوضون الأسرة والمجتمع.

وبينما كان الشام يضطرب بين العباسيين والطولونيين، إذا به يلقى من جراء هؤلاء القرامطة أذى كبيرا، فقد عاثوا في أرضه يقتلون سكان المدن والقرى.

وغلب صاحب الخال [٢] إمامهم من شمال الشمال على حمص وحماة ومعرة النعمان، وحاصر القرامطة حلب وروعوا أهلها [٣]. وقد تضافرت جيوش العراق

---

(١) القرامطة فرقة من الشيعة الباطنية نسبوا إلى حمدان قرمط، وهو رجل من ناحية خوزستان نزل سواد الكوفة مظهرا التقشف والعبادة ولقب بقرمط لقرمطته في خطوه أو في خطه. وقيل لأنه مرض؛ فحمله رجل اسمه كرميته على ثور له، وجاء به إلى بيته، فغلب عليه اسم صاحب الثور، فسمى قرميطة. وكرميته — بلغة النبط — أحمر العين، وكان صاحب الثور أحمر العين وقد أجمعت كتب الفرق والنحل والأهواء على أن هؤلاء القرامطة جميعا كانوا يستبيحون المحرمات وأنهم غلاة الإباحية وهدمة الشرائع، ينكرون الحياء، ويقوضون الأسرة والمجتمع بتعاليمهم الفوضوية الفاحشة وآرائهم التي تمت إلى المجوسية، كما ذكر أبو منصور البغدادي، وقد عاصر أواخر حركاتهم. وقد تجوز المؤرخون في كلامهم على العصر العباسي فسموا من شق العصا على الدولة خارجيا فكان عندهم الزنادقة والعصاة والشيعة والغلاة والمناوئون وأصحاب النحل ومذاهب الإباحية وذوو البغي خوارج، ومن هذا القبيل عدوا القرامطة رأس الخوارج، بل كان الخارجي في أكثر ما يعنون — هو القرمطي (شعر الحرب في الأدب العربي ص ١٣٨ — ١٤٠، الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ١٥١ ودائرة معارف وجدي ص ٧١٣ — ٧١٥، وكتاب الفرق بين الفرق لأبي منصور البغدادي صفحة ٢٦٦ وما بعدها

(٢) صاحب الخال أو الشامة هو الحسين الذي تزعم القرامطة بعد مقتل أخيه المعروف بالشيخ وقد تسمى الحسين بن أحمد وأظهر شامة في وجهه زعم أنها آيته فسمى بصاحب الشامة ص ٢٠٩ خطط الشام ج ١.

(٣) المصدر نفسه ص ٢١٠.

وجيوش مصر فى أواخر عهد الطولونيين على صد عدوانهم عن بلاد الشام ، وإن كان هؤلاء القرامطة لم ينصرفوا عن حلب إلا بعد حرب دامية بينهم و بين الحلبيين ، ومعهم أبو الأغر الذى كان الخليفة المكتفى قد ولاه حلب ، وزوده بجيش لمحاربة صاحب الخال[1] .

* * *

وفى سنة ٢٩٢ ﻫ يقضى على الدولة الطولونية القضاء الأخير ، وتعود الشام ومصر إلى الخلافة العباسية بين جو من الفتن والاضطرابات والمنازعات والمنافسات بين الولاة والقواد . هذا إلى أنه كان من أثر الفوضى التى نشرها القرامطة فى البلاد بعبثهم وعدوانهم ـ أن أصاب بعض الأعراب الذين يسكنون بادية الشام مغانم ، فاستطابوا هذا المذهب والسير على منهاجه ، وقد ساعد على ذلك أن مراعيهم كما عرفنا من قبل فى الكلام عن البيئة الجغرافية — كانت كثيراً ما لا تكفى ماشيتهم التى عليها مدار حياتهم ، فيضطرون إلى الإغارة على الحضر. وقد عاث بنو تميم فى أعمال حلب ، وأفسدوا إفساداً عظيما ، وحاصروا واليها ذكا بن الأعور ، فكتب المقتدر بالله إلى الحسين[2] بن حمدان عم سيف الدولة

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) وقد أشار إلى ذلك أبو فراس فى رائيته المطولة فقال :

أذل تميما بعد عز وطالما أذل بنا الباغى وعز المجاور

(ديوان أبى فراس ص ١١١)

قال ابن خالويه فى شرح هذا البيت : — « حاصرت بنو تميم ذكا ابن أمير جند قنسرين والعواصم واستباحت الأعمال ، فكاتب المقتدر الحسين بن حمدان فى إنجاده فأسرى إليهم من الرحبة حتى أناخ عليهم بخناصرة ، فأخذ منهم أربعمائة أسير قسرا وحملهم فى غرائر الشعر على أجمالهم ، وانصرف ، فلم يلق ذكاه . فمات أكثرهم فى المحبوس ببغداد إلى أن سئل فيهم « الأغر السلمى » فأطلقوا ، ولم تسكن تميم بعدها » . (المصدر نفسه ص ١٢٧)

فى إنجاد « ذكا »[١] بحلب، وكانت بين هؤلاء و بين الحسين موقعة سنة ٢٩٤ هـ هزموا فيها الحسين أولا ، ثم استطاع أن يتغلب عليهم، ولم يترك حلب إلا بعد أن أزال جموعهم عن أرضها[٢] .

* * *

ثم كانت دولة الإخشيديين فى مصر ، واستطاعوا بعد سلسلة من المنازعات والمنافسات أن يوطدوا أقدامهم فيها ، وأن يضموا إليها الشام كما فعل الطولونيون ولكن الشام لم ينعم أيضاً فى هذا العهد بشىء من الهدوء والاستقرار ، بل كان كما فى عهد الطولونيين نهباً للقلاقل وميداناً للمنافسات بين العباسيين و بين الإخشيديين ، و بين الولاة المذبذبين بين أولئك وهؤلاء ، و بين الولاة وعشائرهم الحاقدين عليهم ولا سيما فى الشمال البعيد عن مركز الإخشيديين فى مصر .

ومما زاد الحال سوءا أن الروم بعد أن رأوا ضعف الخلافة العباسية وتنازع الولاة والقواد — قد اشتد ضغطهم على شمال الشام وأوغلوا فيه حتى حوموا حول حلب[٣] .

* * *

و إذ ذاك فى أواخر الثلث الأول من القرن الرابع يقدم سيف الدولة إلى

---

(١) ورد فى زبدة الحلب جـ١ ص٨٩ «أن المكتفى ولى حلب الحسين بن حمدان بن حمدون عم سيف الدولة ، فعاثت عليه العرب من كلب واليمن وأسد وغيرهم فاجتمعوا بنواحى حلب فخرج للقائهم فى شهر رمضان من سنة ٢٩٤ أربع وتسعين ومائتين فهزموه حتى بلغوا به باب حلب ، وجرى بينه وبين القرامطة فى هذه السنة وقعة فكسرهم واستأصلهم ثم إنه عزل عن حلب وولى عيسى غلام النوشرى » وهذا يخالف ماقيل من أن الوالى إذ ذاك كان ذكا بن الأعور الذى أنجده الحسين بن حمدان بأمر المقتدر بالله .

(٢) سيف الدولة وعصر الحمدانيين ص٦٧ ، ٦٨ . هذا ومن شعر المتنبى ما يستفاد منه أن أبا الهيجاء بن حمدان (وهو أبو سيف الدولة) كانت له جهود مشكورة فى تأديب القرامطة أيضاً كأخيه ، ولكن فى مكان آخر هو نجد ومن ذلك قوله فى مدح سيف الدولة :

ابن المعفر فى نجد فوارسها ... بسيفه وله كوفان والحرم

(٣) المصدر نفسه ص ٦٩ .

الشام فيكون دولة فى شماليه عاصمتها حلب ، فى بيئة ـ عرفنا مما سبق فى هذا الفصل ـ أنها :

(١) بيئة قد أسبغت عليها الطبيعة حلل الجمال، وجادت عليها بوفور الخيرات.

(٢) وأنها كانت منذ القـــدم مطمح الفاتحين[1] ، فألف أهلها حكم النازحين وجور المستبدين .

(٣) وأن موقعها قد جنى عليها خاصة بعـد الفتح الإسلامى فجعلها هدفا للروم المتربصين .

(٤) وأن القرمطية الخارجة على القانون والنظام قد لعبت فيها بأصابعها ولا سيما بين الأعراب والبادين .

فمن سيف الدولة ؟ .

---

(١) وقد كان للأمم التى تداولتها آثار فنية سنتكلم عنها فيما بعد عند الكلام عن الحياة الفنية التى هى إحدى دعائم الحياة الأدبية .

الفصل الثانى

سيف الدولة

يقولون إن الأصل تتبعه الفروع ؛ ولعل أقوى دليل على صدق ذلك المثل ما ورث سيف الدولة عن أسلافه من خصائص ومميزات حتى لكأن صفاتهم البارزة كلها خيرها و شرها قد انطبعت فيه ، وجرت متدفقة فى عروقه ، فما أصل سيف الدولة ؟ .

عربى صريح [1] من قبيلة تغلب إحدى قبائل ربيعة التى تتجلى فيها صفات العروبة بأجلى مظاهرها . و إذا كانت صفة الفروسية هى أبرز صفات العروبة وأوضحها – فهى فى ربيعة تكاد تبلغ المنتهى . يقول المسعودى « كانت القبيلة تمتاز بشىء تعرف به و يذيع بين القبائل خبره ، وتفاخر به من سواها ؛ فكانت مضر مثلا تفتخر بفصاحتها ؛ وربيعة تفخر بفروسيتها ونجدتها » [2] .

ولقد أتى على عرب الشمال [3] حين من الدهر وقعوا فيه تحت سلطان اليمن ، تستأجرهم فى حروبها كما يفعل أهل المدن اليوم بأهل البادية ، وكانوا يؤدون لها الإتاوة ، وقد رسخ فى اعتقادهم عظمة تلك الدولة لما تهيأ لها من أسباب الحضارة ، فأصبحوا يتوالى الأجيال يعدون الأذعان لها فرضا ، فلما رأوا ما أصابها فى حروبها مع الحبشة فى أواسط القرن الرابع الميلاد – إذ فتحها

---

(١) ورد فى تجديد ذكرى أبى العلاء للدكتور طه حسين ص ٩٥ بالهامش « يشك بعض المؤرخين فى عربية بنى حمدان » ولا أدرى مصدر ذلك الرأى .

(٢) تاريخ التمدن ج ٤ ص ١٣ .

(٣) أهل البادية منهم .

الأحباش بمساعدة قيصر الروم سنة ٣٤٥ م ومكثوا إلى سنة ٣٧٤ م[١] — تبين لهم عجزها عن حفظ سيادتها ، وذهبت هيبتها من قلوبهم ، وأخذوا يفكرون فى الخروج من سيطرتها . وأول من كسر هذا القيد من قبائل العرب قبيلة ربيعة وقد تم لها ذلك أخيراً على يد فارسها كليب الذى خلف أباه ربيعة على ربيعة آخر القرن الخامس ، إذ جمع كليب معدا تحت لوائه وحارب اليمن عند أُراط والكُلاَب ، ثم فى معركته الكبرى عند جبل خَزَازى ، حيث تهاوى بفرسانه ليلا نحو النيران الموقدة على رءوس الجبال ، وأحاطوا بأهل اليمن فحطموهم حتى لم تقم لهم قائمة بعد ، وأصبحت لهم السيادة فى هضاب نجد ، ونظرت معد إلى كليب نظرها إلى منقذ عظيم ، فولوه الملك عليهم وجعلوا له قِسْمَ الملك وتاجه ، وكان ذلك آخر عهدهم باليمن[٢] .

وفى كليب هذا يتجلى الإباء العربى الربعى التغلبى ، والعزة التى صارت مضرب الأمثال ، والكبرياء التى لا حد لها ؛ فلقد حمى مواقع السحاب ، فكان يمنع غيره الرعى حتى تمتلىء بطون إبله ، والماء حتى يصدر عنه عبيده ؛ وحمى الوحش فى الفلاة ، فلا يستطيع غيره أن يصيد بها ظبيا أو يحترش ضبا[٣] ، وكان لا يتكلم أحد فى مجلسه ، ولا يحتبى أحد عنده[٤] .

وإذا ذكر كليب ذكر المهلهل بطل الوقائع الغر التى شنها على بكر فى حرب البسوس للأخذ بثأر أخيه كليب . وبهذين البطلين التغلبيين يقرن ابن ليلى

---

(١) فتح الأحباش اليمن مرتين وتلك هى المرة الأولى وقد ملكوها ثانية سنة ٥٢٥ م إلى أن وقعت تحت سيادة الفرس — دائرة معارف وجدى ص ٢٤٠ ج ٦ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية جورجى زيدان ج ١ ص ٦٢ والمهلهل : فريد أبو حديد ص ٧ .

(٣) المهلهل ص ٣٢ .

(٤) مجمع الأمثال للميدانى ص ٥٠٤ .

بنت المهلهل - عمرو بن كلثوم التغلبي الذى قتل ملك الحيرة عمرو بن هند إذ سولت له نفسه أن يجعل أم هذا التغلبي تخدم أمه .

وقبيلة تغلب هى التى قالت لعمر بن الخطاب لما فرض عليها الجزية - وكانت ما تزال على النصرانية - : « يا أمير المؤمنين لا تذلنا بين العرب باسم الجزية ، واجعلها صدقة مضاعفة » - ففعل [١] .

من هذه الأصول الشامخة نبتت الأسرة الحمدانية التى منها بطلنا العظيم سيف الدولة .

فقد كان من تغلب فى الإسلام - كما يقول ابن خلدون - ثلاثة بيوت : آل عمر بن الخطاب العدوى [٢] ، وآل هرون بن المغمر ، وآل حمدون بن الحارث [٣] بن لقمان بن أسد بن راشد [٤] .

وسيف الدولة هو على بن أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان [٥] بن حمدون ابن الحارث بن لقمان بن أسد بن راشد .

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٢٧ .

(٢) عمر ابن الخطاب العدوى قرشى ، وليس فى تغلب اسم عمر ولا الخطاب ، ولعل ذلك لخطأ النساخ ، ولعل الكلام أصله : آل حنظلة بن قيس بن هوبر قائد تغلب أيام عمر ابن الخطاب . انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسى ص ٢٨٨ .

(٣) وقد أشار إليه أبو فراس فى رائيته المطولة بقوله :

أنا الحارث المختار من نسل حارث ... إذا لم يسد فى القوم إلا الأخاير

قال ابن خالويه : « أراد جده الأدنى » الحارث بن لقمان الوارد فى شعر المتنبى فإنه أصلح بين قبيلة تغلب وودى قتلاهم من ماله وكانوا مئة قتيل وقال شاعرهم :

عصفت رياح الحارث بن ربيعة ... وجرى لها بالنحس أشأم طائر

حتى انبرى لعمودهـا فأقامه ... صافى أديم العرض خير الأخاير

حمل العظيم ولم يكلف قومه ... جم البعير إلى البعير الدائر

[ديوان أبى فراس ص ٦٣]

(٤) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٤ ص ٢٢٧ .

(٥) وقد أشار إليه أبو فراس فى رائيته المطولة بقوله :

وجدى الذى انتاش الديار وأهلها ... وللدهـر ناب فيهم وأظـافر =

يقول المتنبي :

فأنت أبو الهيجا بن حمدان يا بنه   تشابه مولود كريم ووالد
وحمدان حمدون وحمدون حارث   وحارث لقمان ولقمان راشد[1]

وحمدان جد الأسرة الحمدانية من بلدة تسمى « رباح » بالعراق[2] بجوار الموصل ، وكان أجداده الربعيون التغلبيون قد تنقلوا ــ شأن القبائل البدوية ــ من تهامة إل نجد إلى الحجاز إلى أراضى ربيعة إلى ضفاف الفرات فى سهل الرقة الفسيح[3] ، ثم نزل حمدان إلى جوار الموصل فى رباح . وكان ذا مكانة عالية بين قومه ينظرون إليه بعين الإجلال والإكبار . ومن عهده يبدأ الجهاد الحمدانى المتواصل لتنال تلك الأسرة الحمدانية ما هى جديرة به من شرف السيادة وعزة الملك .

= قال ابن خالويه : « أراد جده الأدنى « حمدان بن حمدون » وذلك أنه عمر بلاد الموصل وديار ربيعة بالمير ثلاثة أعوام تواترت بالمحل فسمى مكابد المحل وقيل إن الذى وهبه فى سنة واحدة ثلاثة آلاف كر . والكر يومئذ قيمته ثلاثون ألف دينار . ووفد عليه فيمن وفد « بنو حبيب » وكانوا أعداءه وأعداء قبيلته فساواهم بأقرب عشيرة وفيه يقول الشاعر :

ما زلت فى كبد المعيشة جاهدا   حتى أبنت مكابد المحل
أعطى وقد بخل الزمان ولج فى   إعطائه إذ لج فى البخل

وأشار إليه كذلك أبو فراس فى قوله من هذه الرائية :

أسا داء ثغر كان أعيا دواؤه   وفى قلب ملك الروم داء مخامر

قال ابن خالويه : « بنى حمدان بن حمدون سورا على ملطية أنفق عليه سبعين ألف دينار ووقف عليه أربعمائة حجرة من خيله . قال أبو فراس قال سيف الدولة « دخلت ملطية أنا وعمى أبو العلاء سنة ثلثمائة وثلاث عشرة (أو ثمانى عشرة) فقرأت اسم جدى على سورها » قال أبو فراس ودخلت أنا مع سيف الدولة بعد فتحها بعشرين سنة وقد اجتزنا بها فى بعض غزواته وقصدنا موضع الاسم فوجدناه مكتوبا » .

[ديوان أبى فراس ص ١٢٥ — ١٢٦]

(١) ديوان المتنبي شرح البرقوقى ج ١ ص ٣١٦ ، ٣١٧ .

(٢) شعر الحرب فى أدب العرب ص ٢١٣ .

(٣) سيف الدولة : سامى الكيال ص ١١ .

وكانت الخلافة العباسية فى ذلك العصر قد بلغت مبلغاً من الضعف يتيح لكل ذى قوة أيا كان جنسه أن ينال ما تصبو إليه نفسه من أطماع وآمال . ذلك بأن العصبية العربية التى كانت العامل الأول فى حفظ كيان الدولة العربية — قد انحلت وتلاشت ، مما أدى إلى سيطرة أصحاب السيوف من الأعاجم على الخلافة فوهن أمرها وفسدت إدارتها واختل قضاؤها ، وآذنت كل هذه العوارض باضمحلال الدولة وانهيارها وانسلاخ الأمصار عنها ، إذ جعل كل فريق يسعى حثيثا فى الانتقاص من أطرافها بما أوتى من قوة واقتدار ، وأحاط بالعروبة جو عاصف ، تعصف فيه بها ريح صرصر عاتية من سائر الأجناس الأخرى ذوى المطامع المكبوتة والنفوس الثائرة . منها من يريد أن يستعيد مجداً ضائعاً كالفرس أو يستحدث مجداً منشودا كالترك ؛ ومنها من ينظر بعين الغيظ إلى بلاد كانت تحت نيره يستبعدها ويستأثر بخيراتها كالروم ، الذين رأوا الفرصة سانحة لزيادة كراتهم ، وقد فترت النزعة الإسلامية حتى رأينا المسعودى يشكو من ضعف الإسلام فى هذا الوقت وذهابه ، وظهور الروم على المسلمين ، وفساد الحج ، وعدم الجهاد ، وانقطاع السبل وفساد الطريق ؛ وانفراد كل رئيس ، وتغلبه على الصقع الذى هو فيه ، كفعل الطوائف بعد مضى الإسكندر[1] .

على أن انهيار صرح العروبة الحق قد بدأ بسقوط الدولة الأموية وقيام الخلافة العباسية التى لم تقم إلا على أكتاف الفرس الذين اتخذوا من مناصرة العباسيين تكأة لاستعادة مجدهم الغابر وسلطانهم القديم . وقد أحس العباسيون بذلك حتى فى عصرهم القوى الزاهر فغدر أبو العباس بأبى سلمة وقضى المنصور على أبى مسلم وفتك الرشيد بالبرامكة ، واحتال المأمون للقضاء على الفضل ابن سهل .

(١) الحضارة الإسلامية لآدم ميتز ج ١ ص ٧ .

ولكن التبعة فى ذلك إنما تقع على العباسيين أنفسهم ، فلقد أوغلوا فى كراهية العنصر العربى لأنه متهم بحب بنى أمية ، وهم الذين عملوا على إذلال العروبة إذلالا لاقوا جزاءه الطبيعى العادل ، على أيدى هؤلاء الموالى الذين احتضنوهم ومكنوا لهم ، و بسطوا نفوذهم ، على حين كانوا ينفرون من العرب و يودون التخلص منهم . ألم يرد فى وصية إمامهم إبراهيم بن محمد لأبى مسلم أكبر بناة دولتهم « وإن استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل ، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله[1] » .

ولقد زاد المعتصم الطين بلة حين فقد الثقة بالفرس أيضاً بعد ما تبين ميلهم إلى الاستئثار بالملك فيما مضى من عهود آبائه ، فاستكثر من الموالى الترك وفتح لهم الأبواب إلى أكبر مناصب الدولة ، فقوى سلطانهم واستولوا على الخلفاء يولون و يعزلون و يتصرفون فى أمور الدولة كما يشاءون ، فكانوا و بالا عليها ، ومعولا لهدم كيانها ، وتقويض أركانها .

وقد ظهر شرهم المستطير — أول ما ظهر فى صورة بشعة — فى قتلهم المتوكل الذى كانت مأساته مقدمة لأخوات لها تجرعها الخلفاء العباسيون علقما وصابا ، وليس أدل على ذلك مما فعله هؤلاء الأتراك بالمعتز ؛ فقد قتلوه شر قتلة — جروه برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأقاموه فى الشمس بالدار ، فكان يرفع رجلا و يضع أخرى من شدة الحر و بعضهم يلطمه بيده[2] ؛ والمستكفى سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات فى الحبس[3] ؛ و بلغ من فقر القاهر أنهم حبسوه وهو ملتف بقطن جبة وفى رجله قبقاب من خشب[4] . و بعد أن

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ج ٦ سنة ١٢٨ .

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ٧٧ .

(٣) المرجع نفسه ج ٨ ص ١٧٧ .

(٤) المرجع نفسه ج ١ ص ١٧٣ .

كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحلف لهم [١] .

وهكذا زالت هيبة الخلفاء ولعب بهم هؤلاء الأعاجم لعبا يسطره التاريخ بمداد من الأسى والحسرة ، تدمع لرؤيته عينا كل من يمت إلى العروبة بسبب ، وكل من يستشعر قلبه الكرامة والإباء ، وكان ذلك مؤذنا بأفول نجم العباسيين.

* * *

والذى يهمنا فى هذا المقام أن الأسرة الحمدانية سليلة العرب الصناديد لم تحجم وسط ذلك المعترك الصاخب أن تنهض إلى تحقيق أطماعها هى أيضاً فى السيادة والملك ، وأن تدفع عن شرفها عادية الخضوع لتحكم الأعاجم وسيطرتهم واستبدادهم ، وبذلك تدلل على أنها تربطها رابطة الدم والنسب بأمثال كليب والمهلهل وعمرو بن كلثوم ، أباة الضيم ومناط السيادة ، وموئل العروبة وحصنها العالى الوطيد .

فبدأ حمدان سيرته على مسرح السياسة العباسية بالثورة على السلطان ، وإعلان الملك ، فاستولى على قلعة ماردين ، وأعلن استقلاله بها سنة ٢٧٤ هـ [٢] ، فى عهد المعتضد . ويبقى الحال كذلك إلى أن استطاع الخليفة المعتضد سنة ٢٨١هـ [٣] أن يخرجه منها ثم يتعقبه حتى يقبض عليه ويسجنه ، وكان قد ظهر بالجزيرة خارجى يدعى هارون الشارى واستفحل جمعه واشتدت قوته حتى لم يحار به جند من جنود السلطان إلا هزمه ، فرأى المعتضد أن يفل الحديد بالحديد ، فندب الحسين ابن حمدان لحرب هرون فحار به حتى هزمه ، ثم مازال يتبعه حتى ظفر به وقاده

---

(١) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٧٦ .

(٢) ٢٧٤ تبدأ فى ٢٨/٥/٨٨٧ ميلادية وتنتهى ١٥/٥/٨٨٨ وسنة ٨٩٠ توافق ٢٧٦ و ٢٧٧ هـ .

(٣) طبرى ثامن ص ١٦٨ — ١٦٩ حوادث سنة ٢٨١ هـ وفى حوادث ٢٨٢ يستسلم حمدان للمعتضد .

أسيراً إلى المعتضد، فخلع على الحسين وطوقه وخلع على إخوته ، وأمر بفك أبيه[١] والتوسعة عليه والإحسان إليه ، فكان هذا بدء ظهور الأسرة الحمدانية .[٢]

ولما توفى المعتضد وخلفه ابنه المكتفى سنة ٢٨٩ هـ سار على خطة أبيه من الثقة بآل حمدان ، فولى أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان الموصل وأعمالها سنة ٢٩٣ هـ[٣] . ولكن ولايته لها كانت محفوفة بالزعازع والانقلابات : لم تكن ولاية مستقرة آمنة . وكيف تكون كذلك وولى الأمر فى بغداد لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا؟ أألعوبة فى أيدى الطامعين فى الملك، وفى الثروة من جميع الأجناس المتضاربة المتنافسة. هو مع الغالب أيا كان، أراد أم لم يرد ؛ لأنه لا يستطيع أن يحمى نفسه ، وهو مع القوى لأنه ليست لديه قوة تمنعه . فسلطة أبى الهيجاء فى الموصل ليست مستمدة من الخليفة إلا اسما فقط ، لأن الخليفة لا يملك سلطة فعلية على الولايات ، وإنما سلطته مستمدة من قوته هو، ما دام مستطيعاً أن يحمى نفسه وأن يرد كيد الكائدين .

(١) بروكلمان ص ٨٨ .

وقد أشار أبو فراس الى ذلك بقوله فى رائيته المطولة : —

وأقبل بالشارى يقاد أمامه ولقيد فى كلتا يديه ضفائر « ١١٥ الديوان » .

« ابن خالويه » قيل لما استفحل أمر هارون الشارى وغلب على الأعمال وهزم جيوش السلطان وكان بنو حمدان فى بقية النكبة التى نكبهم المعتضد — أشار بدر على المعتضد بإنفاذ الحسين فأنفذه ومعه موشكير فلما وصلا تقدم الحسين وسار إلى هرون فأوقع به وقتل رجاله وأسره وسار به متوجها الى المعتضد وخالفه موشكير الى الموصل فلم ير الحسين بها وكتب الى الملك بسرعته ومطابقته للشارى فغلظ ذلك على المعتضد وأمر بقتل أبيه حمدان بن حمدون وكان فى حبس المعتضد فسأله بدر التوقف ووافى الحسين بالشارى فاشتد سرور المعتضد وحمه فى ثلاث حوائج فسأله إطلاق أبيه فأطلقه وإزالة الإتاوة على بنى تغلب فأزيلت وإثبات خمسمائة فارس منهم يضمون اليه فأثبتوا .

[١٢٨ ص ديوان أبى فراس]

(٢) ابن خلدون ج ٢ ص ٣٩٦ وابن الأثير ج ٧ ص ١٧٠ والطبرى سنة ٢٨٣ ثامن ص ١٧٣ — ١٧٤ .

(٣) ابن خلدون ج ٢ ص ٣٩٦ — ابن خلكان أول ص ٣٨٧ يجعلها سنة ٢٩٢ وأنه دخل الموصل سنة ٢٩٣ — وبروكلمان يتفق مع ٢٩٣ لأن سنة ٩٠٥ م التى ذكرها توافق تلك السنة ص ٨٨ .

ولاية أبى الهيجاء للموصل إذن كانت هدفا لسهام الطامعين ، تزعزعها المنافسات وشهوات الغلبة والسيطرة من الأتراك ونحوهم ، بل من أفراد الحمدانيين أنفسهم ، فلقد كان بعضهم لبعض عدوا فى الكثير الغالب ، وكأن الانقسام فى المحيط الأكبر : محيط الدولة الاسلامية جميعا ـ قد أعداهم ، فارتسمت صورة ذلك الانقسام فيهم ، وعاشوا كل يتربص الدوائر بأخيه . فلا نعجب إذا رأينا المنافسات على أشد ما تكون بين أبى الهيجاء و بين أخيه الحسين الذى كان يطمع فى هذه الولاية لنفسه ، و يرجو أن يكون له النصيب الأوفى بين بنى حمدان ، فهو الذى حارب هرون الخارجى وهزمه ، وهو الذى انتزع العفو لأبيه من الخليفة ببطولته الفائقة وشجاعته النادرة ، فكان ما كان من إغداق الخليفة على إخوته والإنعام عليهم لهذا نراه لا يقنع بأن يظل فى خدمة الخليفة على قيادة الجيش على حين أخوه أبو الهيجاء أمير يكاد يكون مستقلا بالموصل ، و يبدو أن الحسين لما بويع المقتدر سنة ٢٩٥ هـ وأبقى الحال على ما كان عليه أيام سلفه ـ حفزه ذلك إلى الاشتراك فى المؤامرة التى دبرت لخلعه . ولما أحبطت هذه المؤامرة[١] ، فر الحسين فى جنح الليل ، فكتب وزير المقتدر إلى أبى الهيجاء أن يتعقب أخاه ، فلا يتردد أبو الهيجاء فى ذلك ، بل يتعقبه حتى يدركه عنه جبل سنجار[٢] ، وأخيراً يشفع له هذا الوزير لدى المقتدر فيعفو عنه ، ثم ما يلبث المقتدر أن تضعف ثقته بأبى الهيجاء فيعزله[٣] عن ولاية الموصل ، ولكنه لا يخضع لهذا العزل ولم يستطع

---

(١) بهزيمة أعوان ابن المعتز وقتله .

(٢) طبرى ٢٩٦ هـ ثامن ص ٢٥٢ يقول إنهما التقيا فى موضع يعرف بالأعمى بين تكريت والسودقانية غربى دجلة فانهزم عبد الله واستأمن الحسين فأمن .

(٣) فى بروكلمان ص ٨٨ ، ٨٩ ج ٢ تولى أبو الهيجاء الموصل سنة ٩٠٥ وحكمها إلى يوم وفاته سنة ٩٢٩ م (٣١٧ هـ) وكان ابنه حسن يعاونه فى الحكم منذ ٩٢٠ م ومد حسن ملكه إلى الجزيرة بأجمعها وإلى شمال الشام . وفى سنة ٩٤١ م فر المتقى وابن رائق إلى الموصل فأمر حسن بقتل ابن رائق وأجبر الخليفة على إحلاله محل ابن رائق بلقب ناصر الدولة له ولقب سيف الدولة لأخيه ، وقد عزله أهله سنة ٩٦٨ قبل وفاته بسنة .

مؤنس المظفر الذى جهزه الخليفة لمقاتلته أن يخضعه ، مما ألجأ الخليفة أن يقلده هذه الولاية للمرة الثانية سنة ٣٠٢ هـ[١] .

وفى السنة التالية (أو السابقة على خلاف فى ذلك) ولد[٢] ابنه على سيف الدولة : ذلك البطل المغوار محور البحث الذى نحن بصدد إعداده — فى مدينة ميا فارقين التى يحدثنا ياقوت فى معجمه أحاديث طويلة عن ازدهارها بالأبراج الكنسية و بصور القديسين وأقاصيصهم منذ عهد البيزنطيين[٣] و بذلك طلع نجم جديد سيكون له شأن أى شأن فى فلك الحمدانيين وفى فلك القرن الرابع جميعاً .

ولا يكاد التاريخ يعلم شيئا عن طفولة سيف الدولة ومستهل حياته ؛ و كل ما يقال عن نشأته الأولى وثقافته وتربيته إنما هو مبنى على الفرض والحدس استنباطا مما عرف عن شخصية سيف الدولة فيما بعد من تبريز فى ناحيتى البطولة والأدب ؛ وفى جانبى الجد واللهو .

ولا علينا إذا قلنا مع المستشرق أندره دايفتس متحدثا عن طفولته فى روايته التاريخية الغرامية عن سيف الدولة « إنه عندما ابتدأ المشى عرف الناس أنه سيكون الأكثر جمالا بين أبناء بنى حمدان ، وكان وجهه يبتسم كما يبتسم الياسمين فى الربيع ، وبرقت عيناه بنور النجوم ، وامتلأ قلب والدته انتعاشا ، وكانت ابتسامته تتفتح على الناس كما تتفتح براعيم الأزهار فى الصباح . وكان ذكاؤه حادا مستغربا ، لهذا وضعه والده بين أيدى حكماء الموصل العظام الذين

---

(١) سيف الدولة : سامى الكيال ص ٣٢ .

(٢) سنة ولادته مختلف فيها فقد قيل انها سنة ٣٠٣ وقيل انها سنة ٣٠١ ابن خلكان ج ٢ ص ٦٩ .

(٣) سيف الدولة : سامى الكيال ص ٦ .

لفنونه العلوم والشعر ، وكان يريد أن يجعله عالما يفوق جميع علماء (بلاطه) . إنما الله وحده يعرف ما يعرف وما قدر يكون »[1] .

أو قلنا مع الأستاذ سامى الـكيال « إن أميرنا الطفل لم يولد فى بيت زرى ولم يحتوه كوخ فى جوانبه الأقذار ، فقد ولد فى بيت تشرق الشمس فى آفاقه وتفوح العطور فى أجوائه ؛ ولا شك أن أباه قد رعاه هذه الرعاية الأرستقراطية التى جعلت عينه تتفتح على مباهج الحياة ومفاخر الملك ، وعنقه يتطاول إلى صولجان الملك ... إذن فلم يكد الأمير سيف يبلغ العقد الأول من حياته حتى أسلمه أبوه إلى العلماء والحـكماء يدربونه ويلقنونه الحـكمة وصنوف العلم ، وقد كان ذكاؤه خير مشجع له أن يزدرد حكمة وعلوم ذلك العصر ، أى أن يأخذ من كل شىء بطرف ، وأن يهز قلبه الأدب والشعر أكثر من كل شىء ، وأن يكون لهوه فى القنص وركوب الخيل والرمى ، وأن تخفق قلوب الفاتنات بحبه ، وأن تكون أقاصيص الغزوات والحروب أشهى ما يستهوى فؤاده »[2] .

أو قلنـا أخيرا مع الدكتور طه حسين : « وكانت ثقافة سيف الدولة واسعة عميقة فيما يظهر ، فقد كان على احتفاظه بكثير من خصال البداوة ــ أبعد الناس عن حياة البدوى الجاهل الذى لا يعرف إلا الشجاعة والبأس والـكرم والجود ، وكانت بيئته الخاصة التى نشأ فيها ــ تهيئه لحياة مثقفة لها حظ لا بأس به من المشاركة فى العلم والأدب والأخذ بأسباب الحضارة الراقية الزاهية التى كانت مسيطرة فى بغداد . فهو لم يخرج من البادية فجأة ، وإنما سبقت أسرته إلى شىء غير قليل من المجد ، وشاركت فى الحياة السياسية ، ونهضت ببعض المناصب العامة ، ثم انحازت إلى فكرة القومية من جهة ، وتأثرت بالطمع وحب النفس من جهة أخرى ، ففـكرت فى الاستقلال وسعت إليه ، وظفرت به وأيسر النتائج لهذا

---

(١) سيف الدولة المستشرق الفرنسى دايفنس ص ٦ :

(٢) سيف الدولة : سامى الـكيال ص ٦ ، ٧ ، ٨ .

أنها أخذت بأسباب الترف. وعاشت عيشة المتسلطين، ولم ترسل أبناءها هملا بغير تربية ولا تثقيف، وإنما اتخذت لها الأساتذة والمؤدبين، وعلمتهم مالم يكن بد من تعلمه، للنهوض بمثل ما كانت تنهض به من جلائل الأعمال[1] ». فذلك كله يؤيده ما عرف من تاريخ أسرته من ناحية وما عرف عن سيف الدولة الكبير من ناحية أخرى، فيجب أن نؤمن به وألا يتطرق إلينا الشك فيه، وإن كنا لا نعرف من أساتذة سيف الدولة فى صغره إلا أباذر الذى يذكره صاحب اليتيمة بعنوان « أبوذر أستاذ سيف الدولة » ويذكر له شعرا رقيقا. قال : —

نفس الفداء لمن عصيت عواذلى ... فى حبه لم أخش من رقبائه
الشمس تطلع فى أسرة وجهه ... والبدر يطلع من خلال قبائه

وله أيضاً : —

مروع منك كل يوم ... محتمل فيك كل لوم
إن كنت أنكرت ملك رقى ... غصبا سِراحا بغير سوم
فقـــل لجفنى أين قلبى ... وقـــل لعينى أين نومى[2]

* * *

ويترعرع سيف الدولة بين أحضان هذا العصر الزاخر بالفتن والاضطرابات. وقد زادت حال الخلافة العباسية ضغثا على إبالة؛ وأصبحت الخلافة مصيبة فادحة يرزأ بها من ساقها القدر إليه، ويرى أسرته وقد زجت بنفسها بين الصراع القائم على شهوة الملك والتسلط، فأصبحت لها فى الموصل وأرض الجزيرة دولة ولكنها دولة وسط رياح هوج، لا يهدأ لها عصف، ولا تسكن لها ثائرة، كما قلنا من قبل.

(١) مع المتنبى ص ٢٣٨ و ٢٣٩ .
(٢) اليتيمة ج ١ ص ٨٥ .

وما يكاد يبلغ منتصف العقد الثانى من عمره حتى تحدث المأساة الكبرى لوالده : تلك المأساة التى تتجلى فيها النجدة العربية ، وتبدو فى صفحاتها المروءة والتضحية فى عصر غاض فيه معين التضحية والمروءة، وسفرت فيه الأثرة القبيحة الشوهاء ، فكل لا يرى إلا نفسه ، ولا يرعى لغيره ذماما ولا يصون عهدا ففى سنة ٣١٧ هـ خلع المقتدر بالله عن الخلافة ، وكان مؤنس قد اضطر الخليفة أن يخلع نفسه ، وأشهد عليه القاضى أبا عمرو بالخلع[١] ، وكان أبو الهيجاء حينئذ فى بغداد ، وقد أناب عنه فى ولاية الموصل ابنه ناصر الدولة[٢] . فلما حدث خلع المقتدر قام إليه وقال له : — ياسيدى يعز على أن أراك على هذه الحال ، وقد كنت أخافها عليك وأحذرها وأنصح لك ؛ وأحذرك عاقبة القبول من الخدم والنساء فتؤثر أقوالهم على أقوالى ، وكأنى كنت أرى هذا . و بعد فنحن عبيدك وخدمك . ودمعت عيناه وعينا المقتدر[٣] . ولما استقر الأمر للقاهر[٤] ثارت العامة، وكانت فتن واضطرابات بدار الخليفة القاهر يريدون إعادة المقتدر ، والجمهور يصيح : يا مقتدر يا منصور . وكان أبو الهيجاء إذ ذاك فى دار القاهر ، فهرب كل من كان فى الدار من الوزير والحجاب وسائر الطبقات . وأراد أبو الهيجاء أن يخرج من الدار ، فتعلق به القاهر وقال : أنا فى ذمامك ، فقال : والله لا أسلمك أبدا ، وأخذ بيده، وقال له قم نخرج جميعا، وأدعو أصحابى وعشيرتى ليقاتلوا معك ودونك ، فقاما ليخرجا ، فوجدوا الأبواب موصدة ، والناس فى الخارج يموج بعضهم فى بعض ، وتقدم إليهم خدم القصر ومن معهم بالسلاح يريدون قتلهما أخذا بثأر المقتدر ، فجالدهم أبو الهيجاء مجالدة قوية ، وأبلى بلاء حسنا وأظهر همة وشجاعة ، ولكنه وحده وهو أعزل إلا من سيفه — لم يقو على هذا الجمع المستلئم

(١) الكامل لابن الأثير فى حوادث سنة ٣١٧ هـ .
(٢) ابن الأثير الكامل حوادث سنة ٣١٤ هـ .
(٣) المصدر نفسه حوادث سنة ٣٧١ .
(٤) المصدر نفسه .

فما زالوا يرشقونه بالسهام حتى سقط ، فقصده بعضهم فضربه بالسيف فقطع يده اليمنى ، وأخذ رأسه فحمله بعضهم ومشى ، فلما أعيد المقتدر وهدأت الحال سأل عن أخيه القاهر وعن ابن حمدان فقيل : هما على قيد الحياة ، فكتب لهما أمانا بخطه ، وأمر خادما أن يسرع بكتاب الأمان خوفا أن يحدث لأبى الهيجاء حادث ، فمضى بالكتاب ، فلقيه الخادم الآخر ومعه رأسه ، فعاد معه ، فلما أخبر المقتدر برأسه ورآه — قال : «إنا لله و إنا إليه راجعون» وعظم عليه قتله ، وقال : ما كان يدخل عليّ ويخفف عنى الغم هذه الأيام غيره [1] .

* * *

قصصت هذه المأساة على طولها ، لأن فيها عبرا شتى تلقى ضوءا على ذلك العصر ، فالخليفة المقتدر لا يحقد على أخيه القاهر ، لأنه لا ذنب له فيما كان [2] ، و إنما هو مسوق إليه سوقا ، إذ الأتراك هم الذين يولون ويعزلون ، وأبو الهيجاء كان يحذّر المقتدر الضعيف الإرادة الذى كان يطيع ما يشير به الخدم والنساء ولا يستمع لهذا الناصح الأمين ، وحسبك ما يقال من أن أمه وقهرمانته [3] صار لهما الحكم فى كل ما يجرى من الشئون ، واليهما يتقرب بالرشوة من يريد عملا أو وزارة ، والمقتدر لاه بما هو فيه من اللعب واللهو والسرف ، لا يفكر فى صلاح ، ولم يعد بيده شىء [4] وتلك معرة فى جبين الخلفاء ، ولون من ألوان

---

(١) تعليق نجاتى على ناصر الدولة فى هامش ابن خلكان طبعة دار المأمون والكامل لابن الأثير فى حوادث سنة ٣١٧ هـ وفى الصلة سنة ٣١٧ هـ ما يفيد رضاء المقتدر عن أبى الهيجاء .

(٢) الكامل سنة ٣١٧ هـ .

(٣) القهرمانة رئيسة الحرم والقهرمان فى الفارسية البطل الذى لا يقهر ولعل المقصود بقهرمانته هنا زيدان أم موسى المذكورة فى حوادث سنة ٣١١ هـ فى الكامل وقد بلغ من أمرها أن يحبس عندها الوزير المعزول وهو على بن موسى أجل وزراء العصر وكذلك كان ابن الفرات محبوسا عندها .

(٤) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية جـ ٢ ص ٢٣٨ .

الخزى طبعت به الخلافة العباسية فى ذلك الزمان ، مما سار بهم إلى الفوضى والانهيار. ثم إن أبا الهيجاء لا يظهر للمقتدر شماتة، و إنما تدمع عيناه ويقول له: نحن عبيدك وخدمك[1]. وهو كذلك لا يتخلى عن القاهر وقد استجار به ، مع أن الحال منذرة بالهلاك المحقق الذى لا ريب فيه ، إن لم يلتمس لنفسه النجاة بالهرب كافعل غيره ، وذلك يدل على أن الحمدانيين كانوا غالبا أرفق بالخلفاء من غيرهم من الأجناس الأخرى، لما بينهم وبين الخلفاء من وشيجة العروبة، وكثيرا ما اعتمد عليهم الخلفاء فى قمع الفتن والثورات واحتموا بقوتهم ومنعتهم — وعلى أن الشهامة البدوية والنجدة العربية لم تفارقا ابن حمدان التغلبى حتى فى أشد الظروف حرجا ، وأروعها هولا . ثم قصصتها من بعد ذلك ، لأنى لا أراها إلا لبنة فى بنيان سيف الدولة ، ووسم طباعه ومزاجه فهذا التاريخ الدامى لتلك الأسرة كان يطبع سيف الدولة منذ نشأته بطابع البطولة والشجاعة ، ذلك الطابع الذى هو عنوان نفسه، ومفتاح شخصيته التى أظلت الشعر فى دولته التى سيكونها فيما بعد فى حلب — بظلال الفروسية والنضال .

* * *

وبعد موت أبى الهيجاء يصبح سيف الدولة فى كنف أخيه الكبير ناصر الدولة الذى صار الوالى الأصيل لولاية الموصل ، وتظل عجلة تلك الحياة الثائرة الدامية تدور إلى الأجل المسمى الذى كتبه علام الغيوب ، والمملكة الإسلامية تغلى غليانا فى الاضطرابات والدسائس ، والطامعون فى الملك والجاه والثروة بعضهم ينهش لحوم بعض ، وهم جميعا يحفرون مقبرة الإمبراطورية الكبرى بهذا التفكك الذى أطمع البيزنطيين أن يعيدوا الكرة على بلاد الإسلام ، فافتتحوا كيلكيا وسورية ، فكانت البلاد تواجه خطر الانقسامات الداخلية ، وخطر هجمات الروم الخارجية .

---

(١) فى صلة الطبرى أن أبا الهيجاء هو الذى أغرى مؤنسا بالمقتدر بسبب عزل المقتدر له عن الدينور — حوادث سنة ٣١٧ هـ .

ويقتل المقتدر نتيجة المنافسات بين بعض قواد الدولة ووزرائها ، ويتولى بعده القاهر ، وينتهى الأمر به إلى الخلع وسمل عينيه[١] ثم يتولى الراضى ٣٢٢ هـ ، ويحبس ناصر الدولة عنه الأموال التى كانت تجبى إليه من الموصل ، فيستغل الراضى ما كان بين الحمدانيين من منافسة وشحناء ، فيوكل أبا العلاء سعيدا عمه بجباية هذه الأموال ، ويطمعه فى أمارة الموصل بدل ابن أخيه ، فيسير أبو العلاء إلى الموصل ، ليعلن سلطة الخليفة ، ويجبى إليه الأموال ؛ ولكن ابن أخيه يدبر له مكيدة تودى بحياته[٢] .

ولما ازدادت حال الخلافة سوءا فى عهد الراضى ، ولم يستطع الوزراء إدارة شئون البلاد وجباية الأموال — استحدث الراضى مضطرا منصبا جديدا هو منصب إمارة[٣] الأمراء، وبه صار إلى أمير الأمراء الحل والعقد، والخليفة يأتمر بأمره وليس له من نفوذ الكلمة شىء ، وكان ذلك المنصب مثار منازعات سياسية بين المتغلبين ، كل يريد أن يحظى به ، ليكون له الأمر والنهى وجباية الأموال وتصريف الشئون ، فكان ذلك المنصب نكبة جديدة ، إلى مامنيت به الخلافة العباسية من نكبات .

ولم يحجم ناصر الدولة عن السعى لنيل هذا المنصب ، وقد وجد الفرصة سانحة فيما كان من فتنة البريدين الذين اضطروا الخليفة المتقى إلى الاستنجاد ببنى حمدان والاحتماء بهم .

---

(١) الكامل حوادث سنة ٣٢٢ هـ .

(٢) ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٢٣ هـ .

(٣) وقد يكون أمير الأمراء ملكا أو مثل ملك وأول من لقب به ابن رائق وكان أمير البصرة وواسط ص ٢٥ ج ١ تاريخ التمدن الإسلامى — فإذا رأينا ناصر الدولة على ما سيأتى أميرا للأمراء فإن هذا لا يتنافى مع احتفاظه بإمارة الموصل .

ذلك بأن هؤلاء البريديين قد استفحل أمرهم حتى قصدوا بغداد، وهزموا ابن رائق أمير الأمراء، فتحصن فى دار الخلافة، ثم خرج مع الخليفة وابنه — على أقبح صورة — على دابتين بغير غلام، وخرج عامة الكتاب والقواد على أقبح من هذه الصورة، وملك أبو الحسن البريدى بغداد، وتحكم فيها بما أراد من القتل والسلب واستخراج الأموال والتشفى من الأعداء، وسار الخليفة وجماعة من أرباب الدولة إلى تكريت عراة، على أسوأ حال[1].

وفى هذه الظروف العصيبة استنجد المتقى بأبى محمد الحسن (ناصر الدولة) ابن حمدان، فأرسل أخاه سيف الدولة لنصرته، فلقيه هو وابن رائق بتكريت، فرجع معهما إلى الموصل، وهناك جاء ناصر الدولة واغتال[2] ابن رائق، ليحل محله فى إمرة الأمراء، وقد كان ذلك، فإن المتقى خلع عليه وسماه أمير الأمراء سنة ٣٣٠هـ، ولقبه بناصر الدولة ولقب أخاه عليا سيف الدولة[3] وطوق كلا منهما بطوقين وأربعة أساور من الذهب، وأمر أن يكتب اسماهما على الدنانير والدراهم، وهذه فضيلة لم يسبقهما أحد إليها[4]. بعد ذلك قصد بنو حمدان ومعهم الخليفة إلى بغداد، فلما قاربوها هرب عنها البريدى وسار إلى واسط، ودخل بنو حمدان ومعهم الخليفة بغداد فى جيوش كثيرة.

ثم سار بنو حمدان يريدون واسط لأخذها من البريدى، فأقام ناصر الدولة بالمدائن، وسير أخاه سيف الدولة لقتال البريدى، فالتقى به تحت المدائن

---

(١) نخبة تاريخية أدبية لسكاكار ص ١١.

(٢) ابن الأثير حوادث سنة ٣٢٣ — فصاح ابن حمدان بأصحابه: اقتلوه، فقتلوه وألقوه فى دجلة.

(٣) المصدر نفسه — وابن كثير فى حوادث سنة ٣٣٠.

(٤) مروج الذهب ج ٤ ص ٢٦٦.

بفرسخين[١] ، وكانت مقاومة البريدى شديدة ، فانهزم سيف الدولة ومن معه وعادوا إلى المدائن ، فقواهم ناصر الدولة بجنود أخرى ، ورجعوا فقاتلوا أبا الحسين وهزموه ، ولكن سيف الدولة لم يتبعه إلى واسط ، لما فى أصحابه من الوهن والجراح[٢] ، ولما اندملت جراحهم سار سيف الدولة إلى واسط فأخذها ، وانحدر أبو الحسين البريدى إلى البصرة ، وكان يريد أن يتبعه إليها فلم يمكنه لقلة المال ، فكتب إلى أخيه فلم يسعفه[٣] فحصل بين الأخوين وحشة .

وهنا موقف جدير بالسؤال والتأمل . لماذا لم يسعف ناصر الدولة أخاه سيف الدولة ، وهو أمير الأمراء و بيده الحل والعقد ؟

إن سيف الدولة استولى على واسط فى العراق ، وهو يريد أن يستولى على البصرة . ومن يدرى ؟ فلعله يفكر بعد البصرة فى غيرها من الأمصار العراقية ليكون لنفسه ملكا يجتاح كل ما يجاوره ، حتى لقد يجتاح إمارة أخيه بالموصل. نعم لعل ناصر الدولة قد أحس بأن أخاه يريد أن يكوّن له هناك ملكا بعد أن كبر واشتد عوده ، وعرف خبرته فى الحرب والقتال ، وهو يعلم بلا شك من أمر سيف الدولة و بطولته ما ليس يعلمه غيره . قد يكون إذن ناصر الدولة قد خشى أن يطغى عليه سلطان أخيه هنالك ، والغيرة والمنافسة بين أفراد هذه الأسرة فى غير حاجة إلى تنويه ، فلعله أراد أن يحد من تلك القوة هناك . وإذا كان لابد لسيف الدولة أن يكون ملكا ، فليكن فى مكان آخر لا يزاحم فيه ناصر الدولة .

---

(١) الفرسخ ثلاثة أميال عربية . ويقدر طه الهاشمى الفرسخ العربى بأربعة كيلو مترات ونصف أو أربعة كيلو مترات — انظر مجلة الرسالة لسنة ١٩٣٤ عدد ٦٨ وفى المقدسى ص ٦٥ و ٦٦ ان الفرسخ اثنا عشر ألف ذراع والذراع أربعة وعشرون إصبعا والإصبع ست حبات شعير بطون بعضها الى بعض والميل ثلث الفرسخ .

(٢) ابن الأثير — الكامل — حوادث سنة ٣٣٠ .

(٣) المصدر نفسه .

لقد كان كل من الأخوين يجل الآخر ويحبه ، ولقد كان سيف الدولة خاصة يعد أخاه الكبير أبا ، لأنه هو الذى رعاه بعد وفاة والده ، ولكن شهوة الملك شىء آخر غير الحب والإجلال. وأحب أن تستمع معى إلى أبيات، يقول صاحب اليتيمة : إن سيف الدولة بعث بها إلى أخيه ناصر الدولة وقد جرت بينهما وحشة . ومن يدرى ؟ فلعلها الوحشة التى نحن بصددها الآن :

رضيت لك العليا وقد كنت أهلها وقلت لهم بينى وبين أخى فرق

ولم يك بى عنها نكول وإنما تجافيت عن حقى فتم لك الحق

ولابد لى من أن أكون مصليا

إذا كنت أرضى أن يكون لك السبق(١)

فسيف الدولة لايكره لأخيه العليا ، وهو مقر معترف بأنه مقدم عليه ، ولعل أناساً أرادوا أن يغروه بأن يعمل ، ليكون موضع أخيه فى إمارته وملكه ، ولكنه يرعى حقه ويحفظ ذمته ويعرف فضله ـ فرد عليهم بهذا الجواب ، ولكنه مع ذلك يقول : إنه كان جديرا بأن يكون له سلطانه وإمارته ، ولكنه تواضع ولم ينزل نفسه ماهى جديرة به من رفعة وسلطان إكراما لأخيه وكأنه بذلك قد تهاون فى حقه ، ولكنه لا يستطيع أن يهمل نفسه إهمالا ، فإذا لم يكن سابقا لأخيه أو مساويا له فلا أقل من أن يكون لاحقه .

وتلمح تصميمه على نيل الملك وشرف السيادة فى قوله : ولا بد لى من أن أكون مصليا . ذلك كله يرجح ماقلته من أن التنافس هو الذى حدا ناصر الدولة إلى التقاعد عن إسعاف أخيه ، كما يرجح أن سيف الدولة قد انتهز فرصة البريدين ليكون له ملكا فى العراق، كما انتهزها ناصر الدولة لينال إمرة الأمراء ، ولكن الله أراد له هذا الملك فى غير العراق على ما سيأتى .

---

(١) اليتيمة جـ ١ ص ٢٦ .

على كل حال لم يسعف ناصر الدولة أخاه . وكان القواد الذين معه من الأتراك قد قلت عندهم هيبته لقلة المال فكبسوه ليلا ، فهرب وترك معسكره ، ثم إن توزون أكبر قواد الديلم — استطاع بعد ذلك أن ينال منصب أمير الأمراء[1] بدل ناصر الدولة ، ولم يكن حسن السياسة ، مما اضطر المتقى إلى أن يلجأ إلى الحمدانيين فى الموصل[2] ثم عاد إلى بغداد مغترا بوعد توزون أنه لا يغدر به ، ولكنه بعد أن قبل له الأرض ، مظهرا الطاعة — سمل عينيه وخلعه سنة ٣٣٣هـ[3] .

ثم ماذا ؟

إن سيف الدولة ، وقد شهد هذه المهازل النكر تمثل على مسرح الخلافة العباسية المزيلة — لا يستطيع أن يقف مكتوف اليدين بعيدا عن الملك والسلطان ، وقد رأى كلا ينتزع لنفسه ملكا ويقيم لنفسه دولة ، ولا يرضى لنفسه أن يبقى أن يبقى جنديا من جنود الخلافة يرد هذا ، ويصد عادية ذاك ، تحت إمرة أخيه ناصر الدولة الذى تبين أنه لا يرضى أن يكون لأخيه ملك مجاور له فى العراق لأنه يخشى بأسه وسلطانه ، كما لا يرضى كذلك أن يقتطع له من ملكه ولاية له ، فقد روى أنه قال لأخيه وقد طلب منه ذلك : أمامك الشام ومافيه أحد يمنعك فى بقاعه. ولم يشأ هو أن ينازع أخاه ملك الموصل ، لأنه رأى بعد أن فكر وقدر أن يرعى حقه ويعرف فضل رعايته له .

فليتجه إذن نحو الشام[4] وقد أعدته الحياة الماضية للكفاح والنضال ، ولنترك

---

(١) الكامل لابن الأثير حوادث سنة ٣٣١ هـ وابن كثير سنة ٣٣١ هـ ويكتبه تورون بالراء وهو خطأ .

(٢) الكامل لابن الأثير حوادث سنة ٣٣٢ هـ .

(٣) براجع ما ورد فى محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية جـ ٢ من ص ٣٥٦ الى ص ٣٧١ وابن الأثير سنة ٣٣٣ وابن كثير سنة ٣٣٣ .

(٤) يقول بروكلمان « لقد أدرك سيف الدولة أن من المتعذر عليه التمكين لنفسه فى العراق بوصفه عامل الخليفة المقدم ص ٨٩ تاريخ الشعوب الإسلامية جـ ٣ — ويعنى بروكلمان بهذا أن سيف الدولة قد راعى جانب الخليفة فلم يشأ أن يكون له ملكا بجوار مركز الخلافة =

نحن ولاية الموصل ، وكفى أنها فى محيط الحوادث التى مرت بها قد أعدت لنا سيف الدولة ليكوّن ملكا كان للشعر فى ظلاله دولة. نعم لنترك ولاية الموصل تتعثر فيها توالى عليها من أحداث انتهت بزوالها ، ويكفى أن نقول تتمة للكلام عنها : إن آل بويه — وقد وقعت الخلافة العباسية تحت حكمهم فى خلافة المستكفى — كان لا بد أن تصطدم سلطتهم الجديدة بناصر الدولة وأولاده . وظلت الحرب بين البويهيين والحمدانيين سجالا حتى تنازع أولاد ناصر الدولة أمرهم بينهم — شأن أبناء العصر جميعا — فاستطاع بذلك عضد الدولة البويهى أن يطرد أبا تغلب بن ناصر الدولة وأن يدخل الموصل وديار ربيعة سنة ٣٦٨ هـ . على أن الحمدانيين قد استعادوا الموصل وما يليها سنة ٣٧٩ هـ ، ولكنهم لم يلبثوا أن فقدوا ملكهم هناك نهائيا سنة ٣٨٠ هـ على يد الأكراد والعقيليين (١) .

فلنمض إذن فيما نحن فيه من الكلام عن سيف الدولة، وقد عرفنا أنه انتوى أن يكوّن له ملكا فى الشام ، فجعل يرقب الحالة عن كثب ، وحدث أن

= وهو عامل الخليفة المقدم ضد أعدائه من الأتراك والبويهيين ولكن لا أحسب أن تلك هى العلة وإلا فلم أباح الحمدانيون لأنفسهم أن يكونوا لهم ملكا فى الموصل من قبل ولم يكونوا جميعا إلا عمال الخلافة وقوادها ؟ — وفى نخبة كانار ص ٤٠٤ ، ٤٠٩ خبر طويل يرويه أبو يعلى محمد بن يعقوب البريدى الكاتب على لسان سيف الدولة نفسه ، نفهم منه أن الذى دفع سيف الدولة إلى الانصراف عن العراق إلى الشام أن أخاه ناصر الدولة كان يضيق الخناق عليه فى العراق وأنه اقتصر به على نصيبين ولم يكن خراجها يكفيه ، كما يفهم من ذلك الخبر أن سيف الدولة قد سلك كل الوسائل لحمل أخيه على أن يساعده فى تكوين ملك له بالشام ، وأنه حظى منه بتلك المساعدة أخيرا لحادثة خاصة لم تكن فى الحسبان . ويمكن إجمال ما يستفاد من ذلك الخبر فيما يأتى : —

(١) أن ناصر الدوله لم يفسح لأخيه سيف الدولة فى العراق .

(٢) وأن سيف الدولة هو الذى فكر فى الاتجاه إلى الشام ولم يكن ذلك بإشارة أخيه. وقد أطمعه فى الشام ما كان يسوده فى ذلك الحين من قلاقل واضطرابات .

(٣) وأن ناصر الدولة قد ساعد أخاه فى تكوين ملكه بالشام بعد أن كان يائسا من مساعدته .

(١) تاريخ الإسلام السياسى والثقافى والاجتماعى ج ٣ ص ١٣٨ .

الإخشيد قد ولى على حلب أبا الفتح عثمان بن سعيد الكلابى ، ولكن عشيرته من الكلابيين حسدوه على هذه الولاية وراسلوا سيف الدولة ليسلموا إليه حلب ، فلما رأى سيف الدولة اختلاف الكلابيين وضعف أبي الفتح عن مقاومته — سار إلى حلب ودخل أبو الفتح فى طاعته سنة ٣٣٣[١] ثم مد سلطانه على شمالى سورية وأقام الدعوة فيه المستكفى الخليفة العباسى ، ولأخيه ناصر الدولة ولنفسه[٢] ، ثم تقدم يريد دمشق ، فسار إليه الإخشيد فى جيش كثيف هزمه الحمدانيون ، فأطلق عشرة آلاف من صناديد جنده ، فبددوا شمل العدو ، ودخل الإخشيد حلب حاضرة الحمدانيين ، واسترد دمشق ، إلا أنه على الرغم من انتصاره تصالح مع الحمدانيين على أن يترك لهم حلب وما يليها من بلاد الشام شمالا ، وتعهد لهم بأن يدفع جزية سنوية فى مقابل احتفاظه بدمشق[٣] . ويبدو أن الإخشيد قد سعى إلى عقد الصلح مع سيف الدولة ، وأكده بتزويج سيف الدولة فاطمة بنت أخيه عبيد الله بن طغج ، ذلك لأنه كان يعلم حق العلم أن سيف الدولة قد وطد العزم على أن يكون له ملكا بالشام ، وأنه لن يتخلى عن ذلك ما استطاع ، ومن أجل ذلك فستطول الحرب معه . وكان قواد الإخشيد وجنده يكرهون هذا الصلح ، ويودون مواصلة القتال للقضاء على سيف الدولة ، وقد طلبوا من شيخ من شيوخ دمشق كان الإخشيد يأنس به — أن يلومه على ما تم بينه وبين سيف الدولة من الصلح والمصاهرة ، فلما حدثه الشيخ فى ذلك أجاب بقوله : « اعلم أن على بن حمدان كاتبناه من الرملة فبذلنا له فلم يفعل ، وكاتبناه من طبرية فامتنع ، ثم سرنا إليه ورزقنا الله تعالى النصر عليه وعلى أصحابه فلم

---

(١) زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج ١ ص ١١١ — تاريخ الشعوب الإسلامية ابروكلمان ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) مصر فى عهد الإخشيديين ص ٣٩٣ .

(٣) تاريخ الإسلام السياسى والثقافى — ج ٣ ص ٢١١ .

ينصرف وخيم حذاءنا بوجه صفيق وقلة حياء فتوقفت عنه ، فقال لى الغلمان : دعنا نمض تلقاءه ، ففكرت فى قولهم ، ولم أخل من أحد وجهين : إما أن يهزمنا و يرزق علينا النصر فتكون الفضيحة ، و إما أن نرزق عليه النصر فنأخذه فايش أعمل به ... فرأيت أن مسالمته ومصالحته أفضل وأصلح[١] .

وكان الحمدانيون كذلك يعرفون أن الإخشيد قد سعى إلى الصلح مضطرا و يستبين ذلك من قول أبى فراس الحمدانى . —

فلما رأى الإخشيد ما قد أظله تلافاه يثنى غربه ويكاشر[٢]

رأى الصهر والرسل الذى هو عاقد ينال به مالا تنال العساكر

وقد عرّض المتنبى بذلك فى إحدى مدائحه لسيف الدولة فقال : —

ولم تفترق عنه الأسنة رحمة ولم تترك الشام الأعادى له حبا

ولكن نفاها عنه غير كريمة كريم الثنا ما سب قط ولا سبا

وجيش يثنى كل طود كأنه خريق[٣] رياح واجهت غصنا رطبا

ومع هذا فمن المحتمل أن الإخشيد كان قد فكر وقدر ، ثم رأى أنه قد ينفعه أن تبقى دولة الحمدانيين حصنا منيعا يكفيه مئونة محاربة البيزنطيين الذين كانوا لا يفترون عن مهاجمة الولايات المتاخمة لبلادهم .

وقد سر سيف الدولة بهذا الصلح فأجاب إلى السلم وعقد النكاح ، ونثر للحاضرين ثلاثين ألف دينار ، ونثر خارج المضرب أربعمائة ألف درهم[٤] .

على أن الإخشيد لم يأمن جانب سيف الدولة بهذا الصلح ، بل استقر

---

(١) نخبة كانار ص ٣١ ومصر فى عهد الإخشيديين ص ٣٥٢ .
(٢) كشر عن أسنانه فى الضحك وغيره أبدى والمقصود الملاينة .
(٣) الخريق الريح الباردة الشديدة وقيل هى اللينة وهى من الأضداد .
(٤) تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٢١٠ ، « نخبة أدبية تاريخية .. » ص ٣٠ » .

فى دمشق ليمنعه من العودة إلى غزوها مرة أخرى ، ولـكن المنية لم تلبث أن عاجلته فى نهاية سنة ٣٣٤ هـ فخلفه ابنه أنوجور ، وسار كافور بجند مولاء من الشام إلى مصر ، فخلت دمشق من حامية قوية ترد عنها الحمدانيين ، فانتهز سيف الدولة هذه الفرصة ، واستولى على دمشق مرة أخرى ، بعد أن استسلم له حاكمها الإخشيدى.

وقيل إن سيف الدولة — بعد أن استولى على دمشق — كان يسير يوما فى الغوطة[١] بظاهر دمشق ، ومعه كبير من وجوه القوم فيها اسمه الشريف العقيقى ، فقال له سيف الدولة : ما تصلح هذه الغوطة إلا لرجل واحد[٢] ، فقال له الشريف : هى لأقوام كثيرة ، فقال سيف الدولة : لئن أخذتها القوانين ليتبرؤن منها[٣] ، فأسرها الشريف فى نفسه ، وأعلم أهل دمشق بذلك ، وألح سيف الدولة فى مطالبته للدمشقيين بودائع الإخشيد[٤] فكاتبوا كافورا يستدعونه ، فجاءهم ومعه سيده أنوجور ، وخرج سيف الدولة إلى اللجون[٥] وأقام قريبا من معسكر الإخشيديين ، ثم نشب القتال بين الجيشين ، وكان النصر للمصريين ، فتقهقر سيف الدولة إلى دمشق فحمص ، ثم كر على المصريين شمالى دمشق ، وكان النصر له فى البداية ، ولـكنه انهزم فى النهاية ، وتفرقت جيوشه ، وطارده الإخشيديون إلى حلب فهرب إلى الرقة ، ثم عقدت بين الفريقين معاهدة بنفس الشروط التى عقدت بها فى أواخر عهد الإخشيد إلا الجزية ، فإن الإخشيديين لم يقبلوا هذه المرة أن يدفعوها لسيف الدولة مقابل احتفـــاظهم بدمشق[٦] . وعاد أنوجور وكافور إلى مصر بعد عقد هذا الصلح ، وظل السلام

(١) الغوطة بالضم موضع بالشام كثير الماء والشجر وهى غوطة دمشق .
(٢) يعنى نفسه .
(٣) يعرض بمصادرتها ونزع ملكيتها .
(٤) زبدة الحلب ج ١ ص ٣٧١ و ٣٧٢ — ومصر فى عهد الإخشيديين ص ٣٥٣ .
(٥) إلى الجنوب الشرقى من حيفا انظر معجم البلدان لياقوت ج ٧ ص ٣٢٣ .
(٦) تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٢١١ وزبدة الحلب ج ١ ص ٣٧٣ و ٣٧٤ ومصر فى عهد الإخشيديين ص ٣٥٤ .

قائما بين سيف الدولة والإخشيديين منذ سنة ٣٣٦ هـ . هذا ويقول ابن خلكان فى ترجمة سيف الدولة : ورأيت فى تاريخ حلب أن أول من ولى حلب من بنى حمدان ـ الحسين بن سعيد ، وهو أخو أبى فراس ، وأنه تسلمها فى رجب سنة ٣٣٢هـ ، وكان شجاعا موصوفا ، وفيه يقول أبو النجم .

وإذا رأوه مقبـلا قالوا ألا إن المنايا تحت راية ذا كا[1]

وعلى هذه الرواية لم ينتزع سيف الدولة حلب من يد عامل الإخشيد ، وإنما انتزعها من يد ابن عمه . وليس ذلك ببعيد ، فقد كان التنافس بين أفراد الأسرة الحمدانية على قدم وساق ، وقد شاهدنا صورا من ذلك فيما سبق .

ومهما يكن من شىء فقد أسس سيف الدولة فى شمالى سورية — دولة[2] يحمد لها التاريخ ما قامت به من جهود مشكورة ، فى سبيل الدفاع عن البلاد الإسلامية ضد الروم ، الذين كانوا لا يفتأون منذ أن فتح المسلمون الشام والعراق ـ يحاولون أن يسترجعوا ما كان فى حوزتهم من تلك البلاد .

على أن الحمدانيين قد تصدوا لحرب الروم حين قام ملكهم فى الجزيرة ، فكان للحسين بن حمدان معهم أحداث ، وكان لسيف الدولة معهم وقائع قبل أن يكون دولته فى حلب ، وأولى غزواته معهم كانت سنة ٣٢٤ ، وفيها سار الدمستق[3] بجيوش الروم إلى آمد وميمساط فى عهد الراضى ، فسار سيف الدولة

---

(١) ابن خلكان جـ ٢ ص ٦٩ .

(٢) شملت هذه الدولة جند حمص وجند قنسرين وديار مضر وديار بكر والثغور الشامية والثغور الجزرية .

[نخبة كانار ص ٨٣]

(٣) الدمستق هو لقب امبراطور القسطنطينية ومعناه الخادم الأعظم لجيش آسيا وكان لقب قسطنطين ماليينوس السابع ملك القسطنطينية وهو المعاصر لسيف الدولة . وقد حاز عاهل الروم هذا اللقب عقب ظفره الكبير على المسلمين ، وهو أيضا لقب نيقفور الروم نيسيفور فوكاس امبراطور آسيا الوسطى ، ولم يصر نيسفور امبراطورا على القسطنطينية إلا بعد حروبه =

إلى آمد وحار به بها ، وانتهت الحرب بأن ملك الدمستق سميساط وأمن أهلها[١] .

فلما استقر سيف الدولة فى حلب كان لابد أن يوطن نفسه على حروب مع الروم ، لاتخمد جذوتها ، ذيادا عن ملكه وصيانة لدولته . وقد أنشأ جيشاً كبيراً وظل يحارب الروم عشرين عاما لم تخمد نيران الحرب بينه و بينهم سنة واحدة منها. و يقول الثعالبى « إن سيف الدولة غزا الروم أر بعين غزوة له وعليه[٢] . فهو إذن قد قضى معظم أيام ولايته فى هذه الحروب والاستعداد لها .

وقد أوغل سنة ٣٣٩ حتى كان على سبعة أيام من القسطنطينية . وقد منى هذا البطل المجاهد بهزائم ، أفظعها ماوقع سنة ٣٥١ هـ إذ قاد نقفور مائتى ألف إلى أبواب حلب ، واستولى على المدينة إلى القلعة ، وخرّب الروم حلب ، وقتلوا وأسروا ألفا ومائتين ، ونهبوا دار سيف الدولة خارج المدينة وخربوها ، وفى هذه السنة أسر الأمير الشاعر أبو فراس فى منبج[٣] .

يقول شلمبرجر المستشرق الفرنسى « كان سيف الدولة عظيما فى انتصاره ، كما كان عظيما فى انكساره ، وكانت إمبراطورية البيزانطيين هذه التى ملكت العالم القديم ـ تخافه منتصر وتجله منكسرا[٤] .

وكانت القبائل العربية فى مملكته تزيد همومه وتثقل أعباءه بالثورة بين الحين والحين . وممن خالفه ـ كما يقول الثعالبي ـ بنو كلاب ، فخار بهم ، وكان اصطنعهم وأدناهم وأمن سربهم ، فقهروا العرب وعلت كلمتهم إلى أن بدرت

= المتعددة لسيف الدولة . فكان الدمستق قسطنطين هو الإمبراطور ونيسفور قائده الأعظم ص ٢٢٦ من شعر الحرب فى أدب العرب وفى نخبة كانار ص ٨٩ معنى الدمستق نائب البلاد فى شرق قسطنطينية وفى محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية ص ٣٨٨ « والدمستق عند الروم الرئيس الأكبر للجيش » .

(١) النجوم الزاهرة حـ ٣ ص ٢٥٨ .

(٢) اليتيمة حـ ١ ص ٢١ .

(٣) كانار ص ١٥٤ وذكرى أبى الطيب ص ١٠٠ .

(٤) عن سيف الدولة وعصر الحمدانيين لسامى الكيال ص ١٤٨ .

منهم هفوة أحفظته ، فأسرى إليهم وأوقع بهم وملك حرمهم وأموالهم ، ثم صفح عنهم وكرم وجمع الحرم ووكل بهن الخدم وأفضل عليهن[(١)] .

وقد أوقع مرة أخرى ببنى عقيل وقشير و بنى العجلان و بنى كلاب — حين عاثوا فى عمله وخالفوه عليه[(٢)] .

ومما كان يشعل نيران الثورة بين هذه القبائل — ماسبق أن ذكرناه فى الفصل الأول من انتشار بعض المذاهب الهدامة بينها ، كمذهب القرامطة الذين لبثوا مدة ينشرون الفزع فى جزيرة العرب والحجاز والشام[(٣)] .

وقد ظهر منهم فى عهد سيف الدولة رجل يعرف بالمبرقع : دعا الناس إلى نفسه فى بادية السماوة ، والتفت عليه القبائل ، وافتتح مدائن أطراف الشام . وأسر تغلب بن داود بن حمدان ابن عم سيف الدولة وخليفته على حمص ، وألزمه شراء نفسه بعدد من الخيل وجملة من المال ، فأسرى سيف الدولة من حلب حتى لحقه فى اليوم الثالث بنواحى دمشق ، فأوقع به وقتله ووضع السيف فى أصحابه ، فلم ينج إلا من سبق فرسه ، وعاد سيف الدولة إلى حلب ومعه أبو وائل و بين يديه رأس الخارجى على رمح[(٤)] .

وقال ابن قاضى شهبه فى حوادث سنة ٣٥٢ : إن أهل أنطاكية خرجوا عن طاعة سيف الدولة لاشتغاله بنفسه ، فتفرغ لهم وقاتلهم قتالا شديدا ، ثم انتصر وأسر خلائق من أهلها فصادر أعيانهم وأخذ خطوطهم بأموال عظيمة ، حتى قيل إنه قتل منهم نحو خمسة آلاف رجل[(٥)] .

---

(١) اليتيمة حـ ١ ص ١٥ .
(٢) خطط الشام حـ ١ ص ٢٢٠ .
(٣) ذكرى أبى الطيب ص ٦ .
(٤) اليتيمة حـ ١ ص ١٨ .
(٥) خطط الشام حـ ١ ص ٢٢١ .

فحياة سيف الدولة كان معظمها جهادا وكفاحا إما مع الروم ، وإما مع المنتقضين عليه من القبائل النازلة فى ملكه ، وصدق المتنبى إذ يقول —

أنت طول الحياة للروم غاز   فمتى الوعد أن يكون القفول

وحسبك أن سيف الدولة كان قد جمع من نفض الغبار الذى يجتمع عليه فى غزواته — شيئا ، وعمل لبنة بقدر الكف ، وأوصى أن يوضع خده عليها فى لحده ، فنفذت وصيته . وكانت هذه الحروب كلها مجالا خصبا للشعر العربى على ما سنبينه عند الكلام عن الشعر ، بل كانت أبرز جانب من جوانب الشعر فى ظل سيف الدولة ، فقد أوجدت لنا أدبا عربيا حماسيا قويا ، كقصائد المتنبى وأبى فراس فى وصف تلك الحروب ، كما كانت سببا فى أسر عدد كبير من الروم واسترقاق كثير منهم وانتشار الجوارى الروميات فى القصور ، ولذلك أثره فى انتشار الخلاعة والمجون والتغزل بالغلمان والجوارى .

* * *

وجانب آخر غير الحرب نراه لامعا فى شخصية سيف الدولة — هو نزعته الأدبية التى كانت أقوى حافز له فى العمل على نهضة الشعر بوجه خاص والعلوم والآداب بوجه عام ، ولم يستطع غيره من الملوك فى زمانه مجاراته فى هذا المضمار .

وإذا كنا قد صورنا فى سيف الدولة نزعة الحرب والبطولة والطموح إلى الشرف والسيادة ، وبينا أن تلك كانت نزعة أصيلة تحدرت إليه من الأجداد والآباء — فإن تلك النزعة أيضا أصيلة فى سيف الدولة ، بل لا تقل أصالة عن الشغف بخوض المعارك وامتشاق الحسام .

سيف الدولة من بنى حمدان من تغلب من ربيعة كما قلنا ، وربيعة فوق اشتهارها بالفروسية هى أول من نبغ فى الشعر على لسان المهلهل التغلبى الربعى

الذى يقال : إنه أول من هلهل الشعر ، أى أرقه ، أو أول من قصد القصيدة .
قال الفرزدق :

ومهلهل الشعراء ذاك الأول[١]

وكانت ربيعة كذلك أول من نهض للاستقلال من عرب الشمال البادين — على يد كليب التغلبى الربعى أخى المهلهل .

ولما انتقلت ربيعة إلى العراق زادتها مناظر ذلك الوادى سعة فى الخيال[٢] وكان من شعرائهم فى الجاهلية عدا المهلهل — عمرو بن كلثوم التغلبى من أصحاب المعلقات ، وفى الإسلام فى العصر الأموى — الأخطل .

فلا عجب أن نرى لسيف الدولة بل للحمدانيين جميعاً — تلك الشخصية الأدبية الممتازة إلى جانب الشخصية الحربية والبطولة النادرة ، ولا عجب أن كانوا أدباء حربيين وشعراء فرسانا .

وقد عنى الثعالبى بذكر كثير من ملح شعرهم تدل على ذوق سليم وفطرة صافية فى هذا الفن الرفيع ، وهو يقول عنهم : « كان بنو حمدان ملوكا وأمراء ، أوجههم للصباحة ، وألسنتهم للفصاحة » . كما يقول : أخبرنى جماعة من أهل الأدب أن المتنبى لما عوتب فى آخر أيامه على تراجع شعره — قال : قد تجوزت فى قولى ، وأعفيت طبعى ، واغتنمت الراحة منذ فارقت آل حمدان وفيهم من يقول :

وقد علمت بما لاقته منا ‏ ‏ قبائل يعرب وبنو نزار
لقيناهم بأرماح طوال ‏ ‏ تبشرهم بأعمار قصار

يعنى أبا زهير نصر بن حمدان .

---

(١) الشعر والشعراء ص ٥٨ .
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية جورجى زيدان جـ ١ ص ٦٦ .

ومنهم من يقول(١) : —

أأخا الفوارس لو رأيت مواقفى ... والخيل من تحت الفوارس تنحط(٢)
لقرأت منا ما تخط يد الوغى ... والبيض تشكل والأسنة تنقط

يعنى أبا العشائر :

ويقول الثعالبى عن سيف الدولة : « وكان أديبا شاعرا محبا لجيد الشعر شديد الاهتزاز لما يمدح به ، فلو أدرك ابن الرومى زمانه لما احتاج إلى أن يقول

ذهب الذين تهزهم مداحهم ... هز الكماة عوالى المران(٣)
كانوا إذا امتدحوا رأوا ما فيهم ... ما لأريحية منهم بمكان(٤)

فسيف الدولة عربى ، وطبيعة العرب بوجه عام شعرية لأنهم ذوو نفوس حساسة وشعور رقيق ، تقعدهم الكامة وتقيمهم — شأن أهل الفروسية والنجدة المعبر عنهما عند الإفرنج بالشفاليرى(٥) .

وقد أورد صاحب اليتيمة لسيف الدولة شعراً يدل على أنه سلك مضايق الشعر وعرف مآتيه ، كما يدل على سمو خيال ورقة مزاج ، فمن شعره فى وصف قوس قزح(٦) : —

وساق صبيح للصبوح دعوته ... فقام وفى أجفانه سنة الغمض(٧)

---

(١) اليتيمة حـ ١ ص ٧١ .
(٢) النحيط الزفير — القاموس المحيط .
(٣) المران : الرماح وهو فى الأصل اسم لنوع من الشجر مستقيم طويل .
(٤) يريد من الأريحية والشعر باليتيمة حـ ١ ص ١١ .
(٥) تاريخ آداب اللغة العربية جورجى زيدان حـ ١ ص ٦٦ .
(٦) اليتيمة حـ ١ ص ٢٤ .
(٧) الصبيح : الجميل والصبوح شرب أول النهار والسنة النوم الخفيف والغمض النوم .

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا على الجو دكناو الحواشى على الأرض[1]

يطرزها قوس الغمام بأصفـــر على أحمر فى أخضر تحت مبيض

كأذيال خود أقبلت فى غـــلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض[2]

ومن شعره[3] : —

أقبـله على جزع كشرب الطائر الفزع

رأى ماء فأطمعـه وخاف عواقب الطمع

وصادف فرصة فدنا ولم يلتـذ بالجرع

على أن ما أثر عن سيف الدولة من الشعر — ويكاد لا يتعدى ما أورده صاحب اليتيمة — إنما هو مقطعات معظمها فى الغزل . فلم يؤثر عن سيف الدولة ديوان يدل على شاعرية غزيرة متعددة الفنون ومتنوعة الأغراض . فما علة ذلك؟ ألأنه لم يوهب هذه الشاعرية التى نلحظها لدى الشعراء المكثرين ؟ أم أنه وهبها ولكن شغلته شئون الملك وتوطيد دعائمه عن قول الشعر الكثير ، أم أنه اقتصد فى قول الشعر كبرياء وأنفة أن يعد فى الشعراء ، وهو يراهم كلهم أو جلهم يتكسبون بالشعر ويطوفون به على الأمراء والعظماء ؟ وقد كان أبو فراس لهذه العلة يلقى بشعره إلى أستاذه ابن خالويه ويحظر عليه نشره ، ولم يجمعه ويشرحه إلا لما رأى الركبان قد سبقته به ، كما يقول فى مقدمة النسخة المأثورة عنه لشعر أبى فراس[4] .

---

(١) الجنوب ريح الجنوب ، والمطارف أردية من خز مربعة لها أعلام . المفرد : مطرف بضم الميم وكسرها والدكنة لون يضرب إلى السواد .

(٢) الخود الحسنة الخلق الشابة أو الناعمة والغلالة الثوب الرقيق يلبس تحت الثياب وتروى هذه الأبيات لابن الرومى — الحضارة الإسلامية حـ ١ ص ٤٢٦ ، ٤٢٧ .

(٣) اليتيمة حـ ١ ص ٢٤ — ٢٥ .

(٤) ديوان أبى فراس — توطئة الناشر ص ١٨ .

تلك هى الاحتمالات القريبة التى يصح عندى أن تعلل بها قلة شعر سيف الدولة المأثور . وبعيد فيما أرى أن يكون سيف الدولة قد قال شعرا كثيراً ، ولم يصل إلينا معظمه لأنه حظر نشره أو لأن الأيام قد عدت عليه بالتضييع . فمثل سيف الدولة لا يخمل أدبه ، ولا يحول دون ذيوعه الحظر وتحريم النشر . بل إن مثله جدير أن ينتحل له الشعر وتدعى نسبته إليه . وقد أنكر بعض المؤرخين جل الأشعار المنسوبة إلى سيف الدولة . قال كمال الدين ابن العديم « وينسب إلى سيف الدولة أشعار كثيرة لا يصح منها له غير بيتين، ذكر أبو القاسم الحسين بن على المغربى كاتبه — وهو جد الوزير أبى القاسم المغربى — أنهما لسيف الدولة ولم يعرف له غيرهما وكتب بهما إلى أخيه ناصر الدولة ، وقد مد يده إلى شىء من بلاده المجاورة له من ديار بكر ، وكانت فى يد أخيه :

لست أجفو وإن جفوت ولا أتـــرك حقا على فى كل حال

إنما أنت والد والأب الجا فى يجازى بالصبر والاحتمال[(١)]

وعلى ذلك فهذا القليل هو — مع حسن الظن بنسبته إليه — أكثر ما قال من الشعر ، وإن كان العنوان الذى أدرج تحته الثعالبى هذا الشعر وهو «ملح من شعر سيف الدولة » يوحى بأن له عدا ذلك كثيرا .

وأما أن معظم المأثور من شعره غزل ، فعلته — فيما أعتقد — أن هذا البطل الذى نذر عمره لحرب البيزنطيين فسكب أنهارا من دمائهم ، قد أغرم بفتاة بيزنطية سابية الحسن وكان لها عليه سلطان عظيم[(٢)] . وقد ذكر الثعالبى[(٣)]

---

(١) زبدة الحلب حـ ١ ص ١٥٢ .

(٢) شعر الحرب ص ٢١٨ .

(٣) اليتيمة جـ ١ ص ١٥ .

هذه الجارية فقال » ويحكى أنه كانت لسيف الدولة جارية من بنات ملوك الروم لا يرى الدنيا إلا بها ويشفق من الريح الهابة عليها ، فحسدتها سائر حظاياه على لطف محلها منه ، وأزمعن إيقاع مكروه بها من سم أو غيره ، وبلغ سيف الدولة ذلك ، فأمر بنقلها إلى بعض الحصون احتياطا على روحها ، وقال :

راقبتني العيون فيك فأشفقـــت ولم أخل قط من إشفاق
ورأيت المذول يحسدني فيـــك مجدا يا أنفس الأعلاق
فتمنيت أن تكوني بعيدا والذي بيننا من الود باق
رب هجر يكون من خوف هجر وفراق يكون خوف فراق

وأنا أنتهز هذه الفرصة فأضم ذلك العامل القوى — عامل الحب — إلى غيره في إذكاء هذه الشخصية الأدبية وإنمائها والعمل على لطفها ورقة حواشيها .

وإذا كان إنتاج سيف الدولة الشعري قليلا ضيق الأغراض — فإن شخصيته الأدبية وذوقه الأدبي يبدوان أكثر جلاء في نقده الأدبي لبعض ما كان يعرض في مجالسه من شعر وغيره ، وفي مقدرته الممتازة على إدارة هذه المجالس وإشعال نار المنافسة بين الشعراء والعلماء ، مما يدل على أن هذا الاستعداد الأدبي الموروث قد صقل ونمى بثقافة واسعة في الأدب واللغة .

واستنشد سيف الدولة المتنبي قصيدته التي أولها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وكان معجبا بها كثير الاستعادة لها ، فاندفع أبو الطيب ينشدها ، فلما بلغ قوله فيها :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

قال قد انتقدنا عليك هذين البيتين كما انتقد على امرىء القيس قوله :

كأنى لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لخيلى كرى كرة بعد إجفال

وبيتاك لا يلتئم شطراهما ، كما ليس يلتئم شطرا هذين البيتين ، وكان ينبغى لامرىء القيس أن يقول :

كأنى لم أركب جوادا ولم أقل لخيلى كرى كرة بعد إجفال
ولم أسبأ الزق الروى للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولك أن تقول :

وقفت وما فى الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك فى جفن الردى وهو نائم

فقال : أيد الله مولانا ، إن صح أن الذى استدرك على امرىء القيس هذا كان أعلم بالشعر منه — فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك ، لأن البزاز يعرف جملته ، والحائك يعرف جملته وتفاريقه ، لأنه هو الذى أخرجه من الغزلية إلى الثوبية ، وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد ، وقرن السماحة فى شراء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء . وأنا لما ذكرت الموت فى أول البيت أتبعته بذكر الردى وهو الموت ليجانسه ، ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوسا ، وعينه من أن تكون باكية — قلت ووجهك وضاح وثغرك باسم ، لأجمع بين الأضداد فى المعنى وإن لم يتسع اللفظ لجميعها . فأعجب سيف الدولة بقوله ،

ووصله بخمسين دينارا من دنانير الصلات وفيها خمسمائة دينار[1] .

وروى الثعالبى أن أبا بكر وأبا عثمان الخالديين كانا من خواص شعراء سيف الدولة ، فبعث إليهما مرة وصيفة ووصيفاً ، ومع كل واحد منهما بدرة وتخت من ثياب مصر ، فقال أحدهما من قصيدة طويلة .

أتت الوصيفة وهى تحمل بدرة   وأتى على ظهر الوصيف الكيس
وبررتنا مما أجادت حوكه   مصر وزادت حسنه تنيس
فغدا لنا من جودك المأكول والـ   ـمشروب والمنكوح والملبوس

فقال له سيف الدولة — أحسنت إلا فى لفظة المنكوح ، فليست مما يخاطب به الملوك . وهذا من عجيب نقده[2] .

واستبطأ سيف الدولة ابن عم له ، فلما دخل عليه قال له : أين كنت اليوم ؟ وبم اشتغلت ؟ فقال له : أيد الله مولانا . حلقت رأسى وأصلحت شعرى وقلمت أظفارى . فقال له : لو قلت : أخذت من أطرافى — كان أوجز وأبلغ[3] .

وكان أبو فراس يوما بين يديه فى نفر من غلمانه ، فقال لهم سيف الدولة : أيكم يجيز قولى وليس له إلا سيدى (يعنى أبا فراس) :

لك جسمى تعله   فدمى لم تحله
لك من قلبى المكا   ن فلم لا تحله

فارتجل أبو فراس ، وقال :

أنا إن كنت مالكا   فلى الأمر كله

---

(١) اليتيمة حـ ١ ص ١٥ و ١٦ و ١٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٧ .
(٣) إعلام النبلاء حـ ١ ص ٢٨٥ .

وسأل جماعة من العلماء بحضرته يوما . — هل تعرفون اسما ممدودا وجمعه مقصور ؟ فقال ابن خالويه — إنى أعرف اسمين لا أقولهما إلا بألف درهم ، لئلا يؤخذا بلا شكر ، وهما صحراء وصحارى وعذراء وعذارى (١) .

وقال ابن خالويه : دخلت يوما على سيف الدولة بن حمدان ، فلما مثلت بين يديه — قال لى اقعد ولم يقل اجلس ، فتبينت بذلك اعتلاقه بأهل الأدب واطلاعه على أسرار كلام العرب وإنما قال ابن خالويه هذا، لأن المختار عند أهل الأدب أن يقال للقائم أقعد ، وللنائم والساجد اجلس (٢) .

سيف الدولة إذن كان أديباً من الطراز الأول ، فإذا انضم إلى ذلك ماعرف به من حب للفخر عملت على إنمائه تلك العروبة المتكبرة الموروثة عن أولئك التغلبيين الذين كانوا يشمخون بأنوفهم إلى عنان السماء من أمثال كليب والمهلهل وعمرو بن كلثوم ، وتلك البطولة التى خطت بأسنة رماحها بين نيران مستعرة من كل جانب ، والتى كانت مصدر الرعب والفزع لأعظم دولة مجاورة لبلاد المسلمين فى ذلك التاريخ — عرفنا مقدار ذلك الباعث العاطفى الذى كان يحفز سيف الدولة إلى تشجيع الشعر والشعراء بما لم يعهد فى التاريخ ، من فيض وإغداق، على ما سنبينه فى الكلام عن الشعر إن شاء الله . ثم عرفنا بعد ذلك أن الشعر قد استظل من سيف الدولة بظلال من الذوق الأدبى الفنى . كما استظل بأخرى من مثار النقع فى معامع القتال والنضال ، وهاتان ناحيتان يكاد سيف الدولة ينفرد بهما دون ملوك العصر جميعاً ، أو هو على أقل تقدير كان فيها معاً فوق ملوك العصر جميعا ، على أنه ينفرد ولاشك بالظلال الثانية ، وإن وجد من يشاركه على أى درجة من المشاركة فى الظلال الأولى .

* * *

---

(١) ظهر الإسلام ص ١٨١ .

(٢) نخبة كانار ص ٢٨٦ .

ثم ننتقل إلى موضوع آخر فى الكلام عن سيف الدولة ، هو سياسته الاقتصادية فى دولته . والحالة الاقتصادية فى الدولة ترتكز عليها الحياة الاجتماعية فيها ، ولها صلة وثيقة بالاتجاه الخلقى والنشاط الفكرى والوجدانى .

وإذا نظرنا إلى الحالة الاقتصادية بوجه عام فى البلاد الإسلامية فى ذلك العصر - راعنا أن الحكام كانوا يرهقون الناس بالضرائب ، وكانوا كلما رغبوا فى زيادة دخل حكوماتهم أرهقوا شعوبهم بأنواع من المغارم والجبايات لم تكن معروفة فى أيام الامبراطورية الإسلامية الموحدة .

ومما زاد الحالة سوءا أنهم وقد انتزعت من قلوبهم الشفقة على رعاياهم - كانوا يحتكرون تجارة الحبوب ، فيعمدون إلى المغالاة فى أسعارها ، فنجمت من ذلك المجاعات المهلكة . هذا وقد كان ذلك العصر عصر فوضى واضطرابات كثرت فيه الحروب ، وكان للجندية فيه الشأن الأول ، للاعتماد عليها فى رد غارات المغيرين ، وتوطيد دعائم الملك . من أجل ذلك عمل الحكام على الإغداق على الجنود والإنفاق الواسع على إعدادهم وتجهيزهم ، فلما عجزت الحكومات عن إجراء أرزاقهم لسوء إدارتها ، وعجز الأهالى عن دفع المغارم الفادحة التى كانت تفرض عليهم - لجأت هذه الحكومات الغاشمة إلى انتزاع الأرض من أيدى الفلاحين ، وأقطعتها الجنود ، مما أدى إلى تفاقم فقر الفلاحين ، واستهداف الشعوب للجوع والفاقة[1] .

وشىء آخر نلحظه فى ذلك العصر ، نجم من تعدد الدويلات ؛ وانقسام الامبراطورية الإسلامية : ذلك أن التجارة بعد أن كانت حرة فى ظلال الاتحاد غير مقيدة بضرائب داخلية تفرض على السلع التى تنقل بين إقليم وآخر - أصبحت مقيدة بكثير من الضرائب الثقيلة ، مما أدى إلى تعطيل النشاط التجارى

(١) النزعات ص ٦ .

وارتفاع أسعار الحاجات ارتفاعا أثقل الأهالى ، وزاد فى ضيقهم الاقتصادى ، ونشر الفقر جناحيه على الشعوب المستضعفة المسكينة . ومن أعظم مظاهر الظلم فى ذلك العصر نظام المصادرة ، وعدم احترام الملكية ، وذلك بسبب شهوات الحكام وطمعهم فيما فى أيدى الناس ، فالوزير إذا عزل صادر أمواله من يخلفه ، والتاجر الكبير عرضة لمصادرة الوالى طمعا فى ماله ، والغنى إذا مات كانت أمواله عرضة للسلب والنهب ، إما بادعاء أن ليس له ورثة ، أو بالمجابهة بالمصادرة من غير ذكر أسباب . فالإخشيد فى مصر كان إذا توفى قائد من قواده أو كاتب من كتابه — تعرض لورثته ، وأخذ منهم وصادرهم ، وكذلك كان يفعل مع التجار ، والوزير المهلبى لما مات قبض معز الدولة تركته وصادر عياله ، وكذلك فعل بابن العميد وهكذا[1] .

تلك هى الحالة الاقتصادية بوجه عام فى هذا العصر ، وقد انتابها الخلل والفساد نتيجة لسوء سياسة الحكام ، وعدم تفكيرهم فى تحسين حال الرعايا والرفق بهم ، والنهوض بالمشرعات الاقتصادية التى تحفظ عليهم رفاهيتهم ، وتدر عليهم أرزاقهم — ونتيجة لجشعهم وجورهم .

ولم تكن الحالة الاقتصادية فى ظل الحمدانيين بأحسن حالا مما كانت عليه فى ظل غيرهم من الأمراء والحكام الآخرين ، فالروايات الكثيرة تدل على أنهم كانوا يبالغون فى ظلم رعاياهم واستصفاء أموالهم بغير الحق ، وأنهم كانوا قساة فى ابتزاز كل ما يستطيعون الحصول عليه مما يملكون ، وفى فرض أقسى أنواع المغارم والجبايات عليهم .

وما حدث لبنى حبيب فى نصيبين أقوى دليل على ما نقول . فقد كانت نصيبين بحكم موقعها الجغرافى — ذات غلات كثيرة ، فأكب عليها بنو حمدان

---

(١) ظهر الإسلام ص ١٢٢ .

بصنوف الجور وتجديد الـكلف، إلى أن حمل ذلك بنى حبيب — وهم بنو عم بنى حمدان (من بكر بن وائل) — على خروجهم بذراريهم ومواشيهم ، ونقلهم فى اثنى عشر ألف فارس على فرس عتيق وسلاح شاك من : درع مذهب ومغفر مدبج وسيف فارد ورمح خطى وآلة وعـــدة — إلى بلد الروم فتنصروا بأجمعهم وأوثقوا ملك الروم من أنفسهم بعد أن حسن لهم النظر فى إنزالهم على كرائم الضياع[1] . .

قال الأستاذ خودا بخش الهندى معلقا على هذا الحادث .

لست فى حاجة إلى التدليل على أهميةهذا الحادث وخطورته ، فلابدأن يكون الموقف قد بلغ حدا لا يحتمل حتى يؤدى إلى هجرة قبيلة بأسرها من موطنها إلى بلاد أجنبية . ليس هذافحسب ، بل يفارق أهل هذه القبيلة دينهم ، ويدخلون فى النصرانية فى وقت كان المسلمون فيه يشمخون بأنوفهم ويعتزون بإسلامهم ، وهم ينظرون بازدراء إلى النصرانية البيزنطية ، وقد أصابها الخلل وداخلها الانحلال[2] .

هذا مافعله الحمدانيون فى العراق بزعامة ناصر الدولة .

وكذلك كان سيف الدولة فى حلب ، ولا سيا أنه كان فى حاجة إلى الأموال الطائلة لإنفاقها فى حروبه مع الروم ؛ وليستطيع أن يجعل حلب كحاضرة بنى العباس فى عصرهم الزاهر كعبة العلم والأدب ، وقد وافاه الشعراء والأدباء والعلماء من أقطار البلاد المختلفة ، إذ كان كريما مُفْضِلا خصوصا على مداحه : يخرب قرية ليجيز شاعرا مدحه بقصيدة ، وقد ضرب دنانير خاصة بالصلات ، عليها اسمه وصورته ، وفى كل دينار عشرة مثاقيل .

---

(١) النزعات ص ٤٠ ، والمسالك والممالك ص ١٣٠ ، ١٣١ .
(٢) النزعات ص ٤٠ .

وكان فوق ذلك ينفق نفقات طائلة على علماء بغداد ووزرائها وأرباب النفوذ فيها ليستميل بهم الرأى العام البغدادى بل العربى[1] .

هذا إلى أن سيف الدولة - ويشاركه فى ذلك بنو حمدان بل عامة الحكام فى ذلك العصر - كان مترفا ، مسرفا ، محبا للبذخ ، فما تربع فى دست الملك بحلب حتى استكثر من القصور له ولآله وقواده ، ولم يسلم سيف الدولة من الهنات التى تلصق بغيره من الأمراء المترفين ؛ إذ كان فى ساعات راحته وفراغه من الحروب - يستطيب الحياة اللينة السهلة الناعمة فى مجالس اللهو والشراب وفى جمال القدود وخدود الملاح ، وكانت قصوره ملأى بالجوارى وخاصة من سبى الروم ، وكانت له جارية من بنات ملوك الروم لا يرى الدنيا إلا بها . . . . الخ .

وكان يركب فى خمسة آلاف من الجند وألفين من غلمانه ليزور قبر والدته[2] .

ويحكى أن سيف الدولة لما ورد بغداد وقت توزون - اجتاز وهو راكب فرسه ، وبيده رمحه ، وبين يديه عبد صغير ، وقصد الفرجة دون أن يعرف ، فاجتاز بشارع دار الرقيق على دور بنى خاقان وفيها فتيان ، فدخل وسمع وشرب معهم وهم لا يعرفونه ، وخدموه . ثم استدعى عند خروجه الدواة ، فكتب رقعة وتركها فيها ، ثم انصرف ففتحوا الدواة ، فإذا فى الرقعة ألف دينار على بعض الصيارف ،فتعجبوا وحملوا الرقعة وهم يظنونها ساذجة ، فأعطاهم الصيرفى الدنانير فى الحال والوقت ، فسألوه عن الرجل ، فقال : ذلك سيف الدولة بن حمدان[3] .

وقال بعض المؤرخين فى حوادث سنة ٣٥٤ هـ : فيها صاهر سيف الدولة أخاه ناصر الدولة ، فزوج ابنته أبا المكارم، وزوج أبا المعالى ابنة ناصر الدولة ، وزوج

---

(١) خطط الشام جـ ١ ص ٢٢٢ .
(٢) ظهر الإسلام ص ١٠٨ .
(٣) نخبة تاريخية أدبية ص ٣٤٥ — ٣٤٦ وظهر الإسلام ص ١٠٨ .

أبا تغلب بن ناصر الدولة بابنته ست الناس ، وضرب دنانير فى كل دينار ثلاثون دينارا وعشرون وعشرة .

ويقال إن المبلغ الذى جاد به سبعمائة ألف دينار ، وهو مبلغ لا تقل قيمته بسكة زماننا عن سبعة ملايين دينار[١] . ولا ريب أن هذا القول يحمل كثيراً من المبالغة ، ومثله فى هذا مثل قول بعضهم : إن الوزير العراقى ابن الفرات الذى كان لا يأكل إلا بملاعق البلور ـ كان لا يأكل بالملعقة إلا لقمة واحدة ، فكان يوضع له على المائدة أكثر من ثلاثين ملعقة[٢] . ومثل ما يروى[٣] من أن سيف الدولة كان يقف على مائدته أربعة وعشرون طبيبا لينصحوا بتناول ما ينفع مزاجه[٤] . ولكن هذه المبالغات لا تعدم بعض الحق والدلالة على مبلغ الترف الذى وصل إليه أمراء ذلك العصر وكبراؤه ، وعلى فرط الإسراف الذى انحدروا إليه . لقد روى أن سيف الدولة كانت له كلاب تذبح لها السخال وتطعم لحومها . قال الناشىء الأحمى :

رأيتُ بباب داركم كلابا تغذيها وتطعمها السخالا
فما فى الأرض أدبر من أديب يكون الكلب أحسن منه حالا[٥]

° ° °

وجملة القول إن سيف الدولة قد جمع إلى بطولته الفائقة وأخلاقه الحربية ـ ترفا ليس بعده زيادة لمستزيد ، وبذخا دونه كل بذخ ، حتى لقد قال شلمبرجه : « كأن سيف الدولة كان مخلوقا ليسكن فى قصور ألف ليلة وليلة أو فى خيام الضاربين فى الصحراء[٦] » .

(١) إعلام النبلاء حـ ١ ص ٢٩٠ و ٢٩١ .
(٢) ظهر الإسلام ص ١٠٤ .
(٣) خطط الشام حـ ١ ص ٢٢٣ .
(٤) إعلام النبلاء حـ ١ ص ٢٨٩ .
(٥) إعلام النبلاء ص ٢٨٩ .
(٦) شعر الحرب فى أدب العرب ص ٢١٧ .

لهذا كله كان سيف الدولة يستصفى الأموال ويصادر الأملاك ، ويتجوز فى أخذ الحلال والحرام ، وكان من القائلين إن الغاية تبرر الواسطة . وقد مر بنا ما كان يريد أن يفعله من مصادرة غوطة دمشق مما جعل أهل المدينة يستنجدون بكافور الذى حاربه وخلصهم مما كان سيلحقهم فى ظله من جور وعسف .

لقد كان سيف الدولة على ما أجمع عليه الثقات من المؤرخين يجوز أخذ ما فى أيدى الناس ، ليستعين به على غزو الروم والإغداق على الشعراء(١) .

وقد أشار ابن حوقل إلى ما أصاب تجار مدينة بالس من الظلم على يد سيف الدولة ، إذ أنفذ إليهم قاضيه أبا الحصين ، فصادرهم على ألف ألف دينار(٢) .

وكان قاضيه أبو الحصين هذا يقول : « كل من هلك فلسيف الدولة ما ملك » . ولذلك كثرت مصادرة كل غنى من التجار وغيرهم ، فخربت البلاد الشمالية فى أيامه .

وذكر المؤرخون أن أبا الحصين لما قتل فى إحدى المعارك ـ داسه سيف الدولة بحصانه وقال : لا رضى الله عنك ، فإنك كنت تفتح لى أبواب المظالم(٣) .

* * *

تلك هى الحال الاقتصادية فى ذلك العصر ، وهذه هى سياسة الحكام فى رعاياهم فى ذلك الزمان ، فنجم عن ذلك غنى لا حد له فى بيوت الحكام والأمراء وذوى المناصب وفقر لا حد له فى عامة الشعب ، وإذا كان لكل من

---

(١) إعلام النبلاء ص ٢٨٧ جـ ١ .

(٢) نص هذا الخبر فى كتاب المسالك والممالك لابن حوقل : (ومن مشهور أخبارها أن المعروف بسيف الدولة على بن حمدان بعد انصرافه عن لقاء صاحب مصر ، وقد هلك جميع جنده — أخذ المعروف بأبى حصين القاضى فقبض من تجار كانوا بها معتقلين عن السفر ولم يطلق لهم النفوذ مع خوف نالهم فأخرجهم عن أحمال بز وأطواف زيت إلى ما عدا ذلك من متاجر الشام فى دفعتين بينهما شهور قلائل وأيام يسيرة — ألف ألف دينار) ص ١١٩ و ١٢٠ .

(٣) خطط الشام جـ ١ ص ٢٢٢ ونخبة كانار ص ٣٨٢ .

الحالين أثره فى المجتمع وفى تلوين الأخلاق وتوجيه السلوك — فقد نجمت عن الغنى كل المظاهر التى تنتج عادة من الإفراط فى الترف كالتفنن فى اللذائذ والاستهتار والنعومة وفساد النفوس ، وكل المظاهر التى تنشأ عن الفقر كالحقد والحسد والكذب والخبث والخديعة والاستعداد لقبول الدعوات الهدامة[١] ، والميل إلى التصوف ، فإن الفشل فى الحياة قد يؤدى بصاحبه إلى الزهد وإقناع النفس بأن نعيم الحياة زائل ، وإذا حرم الدنيا فليطلب الآخرة[٢] .

وظاهرة أخرى نراها فى الفنون هى أنها ما كانت تنمو إلا فى بلاط الحكام والأمراء ، فما كان الشاعر يشعر لنفسه ويعبر عن خواطره ، ولا المفتن يفتن لنفسه إلا نادرا ، وإنما كل يجرى وراء المال والغنى ، ليستطيع أن يعيش ، ولن يحصل على ما يرجو إلا إذا قصد واحدا من هؤلاء يعرض عليه سلعته من شعر وفن ، ولذلك تلون الشعر والنثر بلون الاستجداء كثيراً ، لأن العصر لم يكن عصراً ديمقراطيا يستطيع فيه المفتن أن يعيش لنفسه أو للشعب كما هو الشأن فى العصور الحديثة ، بل كان عصراً أرستقراطيا لا ينعم فيه بالعيش إلا الأرستقراطيون[٣] ، ومن تفضلوا عليه ، ورضوا عنه ، وأراق ماء فنه لديهم فى كاذب الثناء عليهم وباطل المديح لهم .

ولذلك كان المديح هو الغرض الغالب على سائر أغراض الشعر الأخرى ، وكفته راجحة عليها ، لأنه الباب الذى ينفذ منه الشعراء إلى قلوب من عمرت خزائنهم بالأصفر الرنان .

فقد اختار كل من أبى محمد عبد الله بن محمد القاضى الكاتب وأبى الحسن على بن محمد الشمشاطى من مدائح الشعراء لسيف الدوله عشرة آلاف بيت[٤] .

(١) كمذهب القرامطة الذى أشرنا إليه فيما سبق .
(٢) ظهر الإسلام ص ١٢١ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٢٠ .
(٤) اليتيمة ج ١ ص ١١ .

وإذا كان هذا القدر هو المختار نحسب فما بالك بما ترك ، وكم تكون مدائح الشعراء كلها لسيف الدولة ؟

* * *

وجانب أخير نحب أن نعرض له فى تاريخ سيف الدولة ، وذلك هو مذهبه الدينى ، وهل كان له أثر فى سياسته العامة بوجه عام ، وفى سياسته العلمية والأدبية ، إن صح هذا التعبير — بوجه خاص ؟ .

يبدو أن الحمدانيين كان يغلب عليهم التشيع ، فمن آثارهم التى وصلت إلينا — درهم لناصر الدولة الحمدانى على أحد وجهيه : لا إله إلا الله
المطيع لله
ناصر الدولة

وعلى الآخر :
محمد رسول الله
على ولى الله[1]

وفى الدر المنتخب المنسوب لابن الشحنة « قال يحيى بن طى فى تاريخه فى حوادث سنة ٣٥٣ هـ : فى هذه السنة ظهر مشهد الدكة ، وكان سبب ظهوره أن سيف الدوله على بن حمدان كان فى أحد مناظره بداره التى بظاهر المدينة ، فرأى نوراً ينزل على المكان الذى فيه المشهد عدة مرات ، فلما أصبح ركب إلى ذلك المكان وحفره ، فوجد عليه كتابة (هذا المحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضوان الله تعالى عليهم أجمعين) فبنى عليه هذا المشهد ، وكتب على حجره : عمر هذا المشهد المبارك ابتغاء وجه الله وقربه إليه على اسم مولانا المحسن ابن الحسين بن على بن أبى طالب — الأمير الأجل سيف الدولة أبو الحسن على ابن عبدالله بن حمدان[2] » . ويقول آدم ميتز : — كان العلويون هم الذين يتوسطون عادة فيما يقوم من خصومات فى بيوت الشيعة من بنى حمدان وبنى بويه[3] .

---

(١) ظهر الإسلام ص ٧٤ و ٧٥ .
(٢) الدر المنتخب ص ٨٦ .
(٣) الحضارة الإسلامية حـ ١ ص ٢٥٩ .

كما يقول « وكان الملوك الجدد فى الغرب والشرق – وهم الحمدانيون – على مذاهب الشيعة[١] » . ويقول صاحب كتاب نهر الذهب : فى أواخر أيام سيف الدوله وفد إلى حلب رجل يقال له أبو إبراهيم محمد ، المتصل نسبه بعلى ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، وهو جد بنى الزهراء الذين كانوا نقباء حلب وسراة رجالها ، فظهر حينئذ التشيع فى حلب[٢] .

وفى كتاب إعلام النبلاء أن مذهب أهل حلب كان على مذهب أهل السنة والجماعة ، ولم يكن بها رافضى إلى أن هاجمها الروم سنة ٣٥١ ، وقتلوا معظم أهلها فنقل إليها سيف الدولة بن حمدان جماعة من الشيعة ، مثل الشريف إبراهيم العلوى وغيره ، وكان سيف الدولة يتشيع ، فغلب على أهلها التشيع[٣] .

* * *

ذلك كله يثبت أن الحمدانيين كان يغلب عليهم التشيع ، ولكن يظهر أن ذلك التشيع كان خفيفا بحيث لم يتعصبوا له تعصبا يدعوهم إلى فرضه مذهبا رسميا على رعاياهم ، ومع تشيع سيف الدولة لم يدخل ذلك المذهب حلب إلا فى آخر أيامه ، على ماسبق فى كتابى نهر الذهب والدر المنتخب .

قال القرمانى فى تاريخه – كان بنو حمدان شيعة ولكن كان تشيعهم خفيفا ولم يكونوا كبنى بويه فى غاية القباحة سبابين[٤] .

ويقول صاحب نهر الذهب : إن أولئك الشيعة كانوا مفضلين فقط حتى دخل الإسماعيلية « الفاطميون » فاشتد تشيعهم ، وتبع بعضهم الإسماعيلية بأمور منحرفة عن الدين[٥] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٥٨ .
(٢) نهر الذهب حـ ١ ص ١٨٩ .
(٣) إعلام النبلاء حـ ١ ص ٢٧٩ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٧٩ .
(٥) نهر الذهب حـ ١ ص ١٩١ .

كان سيف الدولة إذن شيعيا متسامحا ، فلم يفرض مذهبه على رعيته ؛ ولم يرق الدماء من أجله كما فعل المأمون مثلا من أجل مذهبه ؛ ولم يمنعه ذلك المذهب أن يشجع الشعراء ويغدق على العلماء على أى مذهب كانوا ، على حين كان الفاطميون يرهقون علماء السنة ، حتى قتلوا على رواية بعض المؤرخين بعض من تظاهروا بالسنة[1] .

بل إنه كان كثيرا ما يتودد إلى المسيحيين ، وينظر إليهم بعين العطف والرفق والمساواة . يدل على ذلك ما حكاه ياقوت فى معجم البلدان حيث قال فى باب الدال : « دير مارثا » هذا دير كان فى سفح جبل الجوشن ؛ ويطل على مدينة حلب وعلى العوجان ، وهو صغير ، وفيه مسكنان : أحدهما للرجال والآخر للنساء ولذلك سمى بالبيعتين ، وقلما مر به سيف الدولة إلا نزل به ، وكان يقول : « كانت والدتى محسنة إلى أهله وتوصينى به خيرا » .

ويقول المقدسى فى الشام : « إن أكثر الجهابذة والصباغين والصيارفة والدباغين بهذا الإقليم — يهود ، وأكثير الأطباء والكتبة نصارى[2] »

وإذا كنا نرى أثر ذلك التشيع عنيفا فى قصيدة أبى فراس الحمدانى :

الدين مخترم والحق مهتضم   وفىء آل رسول الله مقتسم

التى جاهر فيها برأيه ، لما أنشأ محمد بن عبد الله بن سكرة الهاشمى قصيدة يفتخر بها على الطالبين وينتقص أبناء على — بدأها بقوله[3] :

بنى على دعوا مقالتكم   لاينقص الدر وضع من وضعه

فإنما دعاه إلى ذلك إعنات العباسيين للعرب ، وعملهم على تحطيم النخوة العربية وإذلال العروبة ، على نحو ما عرف لهم من تاريخ أسود منكود . وما كان اضطهادهم للشيعة — وهم الذين يشتركون معهم فى النسبة إلى آل البيت —

(١) خطط الشام حـ ٣ ص ٣٢ .
(٢) أحسن التقاسيم ص ١٩٣ .
(٣) شاعر بنى حمدان ص ٧٨ .

إلا مظهرا من مظاهر انحلال العصبية وضعف الشعور بالقومية عندهم . لهذا نراه يصم القائمين ضد على رضى الله عنه ، والظالمين أبناء على والمغتصبين خلافة على ، ويندد بمساوىء العباسيين ومقابحهم فيهجو أنسابهم وأفعالهم ، ويعيبهم بنقض الأيمان والنكث بالعهود .

وفوق هذا فإن أبا فراس لم يكن ملكا ، حتى يعد تشيعه العنيف هذا ــ اتجاها بسياسة الدولة إلى لون خاص تصبغ به مجريات الأمور ، وإنما هو شاعر يعبر عن عاطفته الخاصة ، وقد هاجتها مناسبة خاصة ، وما على الشعراء من سبيل .

على أن من الحمدانيين من عرف بشدة التشيع، ولم يمنعه ذلك من مناصرة ألد أعداء الشيعة . فالحسين بن حمدان عم سيف الدولة على شدة تشيعه، وميله إلى على وأهل بيته ــ سعى فى البيعة لابن المعتز على انحرافه فى النصب[(١)] .

وقد افتخر أبو فراس نفسه بأن سيف الدولة وأخاه ناصر الدولة ــ قد حاربا فى صف أمير المؤمنين ونصراه ، حين عز عليه الناصر والمجير فقال[(٢)] :

ففينا لدين الله عز ومَنْعَةٌ وفينا لدين الله سيف وناصر

هما وأمير المؤمنين مشرد أجاراه لما لم يجد من يجاور

* * *

وأكبر الظن أن النزعة الدينية عند بنى حمدان ، وعند سائر حكام ذلك العصر جميعا ــ كانت فى الدرجة الثانية بعد شهوة الملك ونزعة التغلب . ولست أوافق الدكتور زكى المحاسنى فيما يزعم من أن الحرب المذهبية كانت الدافع الأول للحمدانيين فى حروبهم مع الروم ، بل إن خوف الحمدانيين على بلادهم من استيلاء الروم كان السبب الأول . وإن كان الدكتور المحاسنى يرجع فيحتاط قائلا :

---

(١) الحضارة الإسلامية حـ ١ ص ١١٣ .

(٢) شاعر بنى حمدان ص ٧٧

ولعل الحمدانيين كانوا يجمعون بين الأمرين ، فتكون حروبهم تارة لهذا السبب الديني ، وآونة لذلك الدنيوى[1] . فلتقل صريحة : إن الحمدانيين إنما كانوا يحاربون أولا دفاعاً عن جاههم وسلطانهم ، وإن كان ساسة البيزنطيين قد عدوا سيف الدولة المحارب الوحيد الأعظم السامى الذى أعلن الحرب المقدسة على النصرانية .

نعم لقد حمى سيف الدولة بحروبه مع الروم ذمار الإسلام ، ويحمد له الإسلام والمسلمون هذا الفضل ، ولكن غيرته على ملكه ، وحبه فى الاحتفاظ به ، وبسط رحابه — كل ذلك كان الدافع الأول لما بذله من جهود فى تلك الحروب الشعواء . وإلا فلماذا كان سيف الدولة لا يلتزم حدود الله فى سياسته فى الرعية ؟ وإذا كان يحارب غير المسلمين من الروم — فلماذا حارب الإخشيديين وقد كانوا مسلمين ؟

وبعد ، فماذا يقول التاريخ عن سيف الدولة ؟

يقول التاريخ: إن سيف الدولة كان ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا . لقد أقام فى شمال الشام دولة حاضرتها حلب التى جعلها من أعظم المدن الإسلامية وأوسعها فناء ، ومن أرحبها للعلم دارا ، وأوطنها للأدب أكنافا ، ومن أحسنها فى حماية حمى المسلمين بلاء[2] ؛ ولكنه كان معجبا بنفسه، مستبدا برأيه ، محبا للفخر والبذخ ، مفرطا فى السخاء والكرم ، جائرا على رعيته ؛ فاشتد بكاء الناس منه وعليه[3] . وقد مات سنة ٣٥٦ هـ بحلب ونقل إلى ميا فارقين ، ودفن فى مقبرة أمه داخل المدينة ، وكان مرضه عسر البول[4] .

(١) شعر الحرب ص ٢٢١ .
(٢) تجديد ذكرى أبو العلاء ص ٥٠ .
(٣) إعلام النبلاء جـ ١ ص ٢٩١ .
(٤) ابن خلكان جـ ٢ ص ٩٩ .

وبموته ضعف سلطان الحمدانيين فى حلب ، وتزعزعت دولتهم بسهام الدسائس والمنازعات ، كما هو الحال فى إمارتهم بالموصل.

فما يكاد يخلفه ابنه أبو المعالى حتى تبدو أطماع أبى فراس فى الملك بعد أن كان لا يستطيع أن يجاهر بها فى أيام ابن عمه العظيم ، فيعلن الثورة فى حمص ، يريد أن يستقل بها ، ولكن أبا المعالى يرسل إليه غلامه قرعويه فيقتله .

ثم يقضى أبو المعالى حياته فى نزاع بينه وبين غلاميه قرعويه وبكجور ، وهو فى أثناء ذلك يملك حلب حينا ويخليها حينا آخر ، ثم يتمكن أخيرا من القضاء على غلاميه وقتلهما ، وما يكاد يستقر له الملك حتى يقضى عليه الفالج سنة ٣٨١ هـ فيتولى بعده ابنه أبو الفضائل ، وفى عهده يستنجد بالروم مرتين على الفاطميين الذين طمعوا فى ملك حلب . ومن سخرية الأقدار أن يعمد أبو الفضائل حفيد سيف الدولة إلى الاستنجاد بالروم الذين كانوا يعدون جده قضاء مسلطا عليهم .

وأخيرا ينتهى أمر أبى الفضائل بعزل لؤلؤ مولاه إياه ، واستبداده بأمر حلب ، وقطعه الخطبة للعباسيين ، ووصلها بالفاطميين — فى سنة يسكت التاريخ عن تحديدها[1] وبذلك طوى ملك الحمدانيين عن حلب .

---

(١) تجديد ذكرى أبى العلاء ص ٥٠ — ٥٣ .

الفصل الثالث

الحياة الأدبية فى حلب

(ا) قبل سيف الدولة

عرفنا فيما سبق أن الشام كان قديم الصلة بالعرب ، وأن الروح العربى أصيل بالشام ، وجد به من قبل الإسلام ، مما حدا بعض الباحثين أن يعد الشام عند الفتح الإسلامى نصف عربية . ونستطيع أن نقول : إن الأدب العربى وجد بالشام منذ العصر الجاهلى ، وذلك يتمثل فيما قاله الشعراء الوافدون على الغساسنة ، مصورا لحروبهم وسياستهم وشجاعتهم وكرمهم و بيئتهم ومظاهر حضارتهم . بل لقد كان من الغسانيين أنفسهم شعراء كجبلة بن الأيهم ، وإن كنا لم نظفر منهم بشعر ذى خطر[1] . ولعل ذلك راجع إلى أن الغسانيين يعنيون ولغة حمير مغايرة للغة مضر ، وقد أهمل الرواة[2] ما كان خارجا عن لغة قريش المضرية — وإن كان هذا لم يمنع فهم الغسانيين لشعر الشعراء الوافدين عليهم ، ذلك الشعر الذى كان بلغة مضر ، لما كان بين هؤلاء وهؤلاء من الاختلاط والاتصال .

* * *

ولما جاء الإسلام وفتحت بلاد الشام — زاد انتشار اللغة العربية بدخول كثير من أهل تلك البلاد فى الإسلام ، و باختلاطهم بالعرب النازحين إليهم ، وإن كانت اللغة الرومية قد بقيت لغة الدواوين ، حتى عهد عبدالملك وابنه الوليد .

---

(١) فجر الإسلام ص ٢٦ .

(٢) ارجع إلى النابغة الذبيانى للأستاذ عمر الدسوقى ص ٩٢ ، ٩٣ .

ثم كانت دمشق حاضرة الدولة الإسلامية فى عهد الأمويين ، وكان الخلفاء الأمويون وأمراؤهم عربا خلصا فى دمهم وفى ذوقهم ، وأحب شىء إليهم أن يتسامروا بأحاديث العرب وأيامهم وأخبارهم ، وأن يسمعوا الشعر من شعرائهم وممن وفد عليهم . وأكثرهم دقيق الحس راق الذوق ، ينقد الشعر ويقومه ، ثم يجزل عليه العطاء . وكانت بالشام الأحزاب السياسية وشعراؤها ، وكان كل من هؤلاء الشعراء ينصر حزبه بالشعر . كل هذا جعل الزعامة الشعرية فى العصر الأموى للشاميين أصلا أو موطنا أو وفادة ، فالشام كانت ساحة جرير والفرزدق والأخطل ومسكين الدارمى والأحوص والراعى النميرى والراجز العجلى الخ . وكانت حظوظهم من الثقافة يسيرة ، وأثر الطبع الخصب فى شعرهم أكثر من أثر العلم ، فلم يكن الفرزدق وجرير والأخطل علماء ، ولم يكونوا يحفلون بالعلم ، وإن كانوا يعرفون من أمر قبائلهم وأدب العرب — ما يعرفه رجل مستنير[1] .

وأما النثر فى صدر الإسلام والدولة الأموية ، فقد كانت الرسائل التى تصدر عن الأمراء والخلفاء ، فى أول أمرها — يسيرة سهلة لا تكلف فيها ، وإنما كانت ممثلة للطبيعة البدوية . ثم نشأ النثر الفنى حول القصور وحول الدواوين فى آخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى ، وكان زعيم ذلك النثر عبد الحميد الكاتب كاتب مروان بن محمد ، فقد سلك فى الكتابة نمطا جديدا أسهب فيه واسترسل ، وساعده على ذلك التجديد ما استمده من أدب اليونان وسياستهم على يد سالم ختنه ، وما استمده من الفارسية التى كان يحسنها . ولما جاء العصر العباسى دالت دولة الشام الأدبية ، وأصبحت القومية الإسلامية العامة متمثلة فى العراق ، وفى مدينة بغداد خاصة ، وقد صارت مقصد القاصدين من جميع الأقطار الإسلامية .

فإذا عددنا بعض الشعراء والأدباء شاميي الأصل — فلا ننس أن العراق

---

(١) من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين ص ١٤٠ .

بثقافته وحضارته كان له أثر لاينكر فى ثقافة هؤلاء ، وفى خيالهم وأدبهم ، و بواعث الشاعرية والأدب فيهم ، وفيه كان غزر نتاجهم وثروتهم الأدبية ، و إن كان ذلك الأثر يتغلغل فى بعض شعراء الشام كأبى تمام ،و يكون قليل العمق فى بعض آخر كالبحترى .

على أن من الشعراء الشاميين من لم يرحل إلى العراق ، بل استقر فى الشام ، فبقى شعره شاميا خالصا ، كعبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن . وأصله من أهل سلمية ، ومولده بمدينة حمص . ويروى عن ابن خلكان أنه لم يفارق الشام ، ولم يرحل إلى العراق ولا إلى غيره منتجعا بشعره[١] .

وتظل الحياة الأدبية فى بلاد الشام كذلك على حالها من الركود ، حتى يتسنى لها أن تنهض نهضة لم تر مثلها من قبل ولا من بعد ، وذلك فى عصر سيف الدولة بن حمدان فى حلب .

(ب) فى عصر سيف الدولة

دعائم الحياة الأدبية فى ذلك العصر

(١) اللغة والنحو ـ لم يشترك فى وضع أسس هذين العلمين غير أهل العراق ، وذلك لأسباب مختلفة ، منها أن العراق كان أعمق حضارة وأوسع ثقافة من الأقطار الأخرى للدولة الإسلامية ، فقد كانت فيه المدائن عاصمة الساسانيين ، وزادت هذه الحضارة أيام العباسيين .

ومنها أن العراق كان أكثر عجمة من الشام ، لأن اتصال العرب بالشام كان أقوى من اتصالهم بالعراق ، وإذا استوى العراق مع غير الشام فى ذلك ، فقد كانت رغبة الفرس فى تعلم العربية أكثر من رغبة سواهم . هذا فضلا عن أن الآداب السريانية التى كانت منتشرة فى الشام من قبل الإسلام كانت أيضا فى العراق ، وكان لها قواعد نحوية مما سهل على العراقيين أن يضعوا قواعد عربية على نمط القواعد السريانية ، خصوصا واللغتان من أصل سامى[٢] .

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٥٢٥ .   (٢) فجر الإسلام ص ٢٢٦ .

وقد نمت تلك الثقافة اللغوية والنحوية ، كما نما غيرها من الثقافات فى العراق فى العصر العباسى ؛ ذلك بأن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس ، فكان لهؤلاء الحظوة العليا لدى العباسيين ، فاتخذوا منهم الوزراء والكتاب ، وكان الوزير كاتبا أيضا ، فازدادت حاجتهم إلى تعلم اللغة وقواعدها .

أضف إلى ذلك ذوق الخلفاء والأمراء العباسيين ، وتشجيعهم لحركة اللغة والنحو ، ولم يكونوا كالأمويين الذى كانوا يشجعون الأدب العربى من ناحية روايته ، لامن ناحية علميته .(١)

لهذه الأسباب كلها انفرد العراق بوضع هذين العلمين والتفوق فيهما ، دون سائر الأقطار الأعجمية الأخرى . وأما عرب البادية والحجاز فلم يكونوا بحاجة إليهما وهم يعرفون لغتهم ، ويتكلمون بها صحيحة عن سليقة .

واللغة والنحو كانا ممتزجين ، والعالم بالنحو كان عالما باللغة ، وان كان بعض العلماء أبرز فى اللغة ، وبعضهم كان أبرز فى النحو .

وأول ما وضع الأئمة فى علم اللغة ـ رسائل وكتب صغيرة ، فى موضوعات خاصة : كالألفاظ المتعلقة بخلق الإنسان أو الخيل أو الإبل أو النخل أو السيف... الخ . فلما ظهر الخليل أحصى ألفاظ اللغة بطريقة حسابية فى كتاب العين ، ورتبه على حروف المعجم مقدما حروف الحلق ومبتدئا منها بالعين ، ولذلك سمى كتابه بالعين . ثم ألف أبو بكر بن دريد معجمه العظيم الذى سماه الجمهرة ـ مرتبا له على حروف المعجم بترتيبها المعروف الآن . وأدرك عصره الأزهرى فألف كتاب التهذيب على ترتيب الخليل(٢) ، ثم توالت المؤلفات بعده فى القرن الرابع وما بعده .

وأما علم النحو فقد جاءت الدولة العباسية، النحو يدرس فى المساجد بالبصرة

---

(١) ضحى الإسلام جـ ٢ ص ٣١٨ .
(٢) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه ص ٢٢٩ .

والـكوفة ، ولـكن البصريين سبقوا الـكوفيين فى الاشتغال به ، كما سبقهم الـكوفيون فى الاشتغال بالشعر وعلم الصرف .

وكان لـكل من البصريين والـكوفيين مذهب يتعصب له علماؤه . وربما كان أهم الفروق الأساسية بين المدرستين ـ أن مدرسة البصرة انحازت إلى جانب القياس ، حتى إنهم خطئوا بعض العرب فى أقوالهم ، إذا لم تجر على القواعد الغالبة . وأما الـكوفيون فلم يروا هذا المسلك ، ورأوا أن يحترموا كل ماجاء عن العرب ، ويجيزوا للناس أن يستعملوا استعمالهم ، وإن كان الاستعمال لاينطبق على القواعد العامة(١) .

وظل الجدل بين الفريقين حتى زخرت بغداد بالعلوم وكثرت الفتن بالبصرة والـكوفة ، فهاجر منهما إلى بغداد كثيرمن العلماء امتزجت مذاهبهم،وتكون منها مذهب البغداديين خليطا من المذهبين ، كما نشأ مذهب الأندلسيين حين عبر النحو إليها(٢) .

وأشهر فرسان اللغة والنحو الذين ازدان بهم بلاط سيف الدولة من المدرسة البصرية ـ أبو على الفارسى (٣) وابن جنى (٤) ، ومن المدرسة الـكوفية أبو الطيب(٥) اللغوى وأبو الطيب المتنبى ، ومن المدرسة البغدادية التى خلطت بين المذهبين ـ ابن خالويه(٦) . فأما أبو على الفارسى فأصله من مدينة فسا إحدى مدن

(١) ضحى الإسلام جـ ٢ ص ٢٩٥ .

(٢) تاريخ الأدب العربى للزيات ص ٣٦٣ .

(٣) ذكره صاحب الفهرست ضمن علماء البصرة ص ٩٥ .

(٤) ذكره صاحب الفهرست ضمن أسماء قوم لا تعرف أسماؤهم وأخبارهم على استقصاء ص ١٢٨ وإذا لاحظنا أن هذا العنوان ضمن ما عقده لأخبار من خلطوا بين المذهبين ـ عددنا ابن جنى من هؤلاء ولـكنى أرجح أن يكون على مذهب أستاذه الذى لازمه [على ما يقولون أربعين سنة ، وهو أبو على الفارسى .

(٥) لم يذكره صاحب الفهرست ولـكن المعروف أنه درس على أبى عمر الزاهد : ص ٣١٧ بغية الوعاة للسيوطى ، وعمر الزاهد كوفى المذهب ذكره صاحب الفهرست ضمن علماء الـكوفه صفحة ١١٣ .

(٦) ذكر صاحب الفهرست ضمن من خلطوا بين المذهبين ص ١٢٤ .

فارس ، وقد انتقل إلى بغداد ، وأخذ العلم عن بعض علمائها كأبى إسحاق الزجاج وأبى بكر السراج وأبى بكر مَبْرَمَانَ وأبى بكر الخياط ، ثم طوف كثيرا ببلاد الشام ، حتى انتهى به المطاف إلى حلب فأقام بها وخدم سيف الدولة(١) . وكان قدومه إليها سنة ٣٤١هـ(٢) ، وكان من خصوم أبى الطيب المتنبى فى حلب ، إذ كان يستثقله ، و يستقبح زيه وما يأخذ به نفسه من كبرياء(٣) .

ويعد أبو على إمام زمانه فى النحو ، فأبو طالب العبدى يقول : لم يكن بين أبى على وبين سيبويه أحد أبصر بالنحو من أبى على(٤) ، وقال قوم من تلامذته : هو فوق المبرد وأعلم منه بالنحو ، وله فيه وفى غيره(٥) مؤلفات كثيرة .

وقد برع فى القياس حتى أثر عنه أنه قال : لأن أخطىء فى خمسين مسألة مما بابه الرواية ـ أحب إلى من أن أخطىء فى مسألة واحدة قياسية(٦) .

والمعروف عنه أن طبعه لم يكن يواتيه على قول الشعر . و ينسب إلى ابن جنى تلميذه أنه قال : لم أسمع من أبى على شعرا قط ، إلى أن دخل عليه فى بعض الأيام رجل من الشعراء ، فجرى ذكر الشعر ، فقال أبو على : إنى لأغبطكم على قول هذا الشعر ، فإن خاطرى لا يواتينى على قوله ، مع تحقيقى للعلوم التى هى من موارده ، فقال له ذلك الرجل : فما قلت قط شيئا منه ألبتة ؟ فقال : ما أعهد لى شعرا إلا ثلاثة أبيات قلتها فى الشيب ، وهى :

---

(١) معجم الأدباء جـ ٧ ص ٢٣٣ طبعة دار المأمون .

(٢) وفيات الأعيان ص ٢٣٢ جـ ١ .

(٣) الصبح المنبى ص ٩١ وقد تغيرت هذه الحال كل التغير حين التقيا فى شيراز حيث عضد الدولة إذ أصلح ابن جنى بينهما وصار أبو على من أكبر المعجبين بالمتنبى : انظر : Blachére. p. 242.

(٤) معجم الأدباء جـ ٧ ص ٢٣٩ .

(٥) من علوم اللغة والأدب .

(٦) معجم الأدباء جـ ٧ ص ٢٥٤ .

خضبت الشيب لما كان عيبا وخضب الشيب أولى أن يعابا
ولم أَخضِبْ مخافة هجر خل ولا عيبا خشيت ولا عتابا
ولـكن المشيب بدا ذميما فصيرت الخضاب له عقابا(١)

ويبدو أنه فارق حلب إلى شيراز ـ حيث عضد الدولة ، بعد أن رأى أن الإقامة لا تطيب له فى حلب ، وهناك من يحقد عليه ، ويخشى أن ينافسه فى الحظوة لدى سيف الدولة ، وهو ابن خالويه . ويدل على ذلك ما ورد فى كتاب المسائل الحلبية ، من رسالة أرسلها أبو على إلى سيف الدولة ، جوابا عن كتاب ورد عليه منه ـ يرد فيها على ابن خالويه ، فى أشياء أبلغها سيف الدولة ، فأخذها عليه .

فابن خالويه يكذب أبا على فى ادعائه أنه قرأ على السيرافى « مع أنه لو بقى عمر نوح ما صلح أن يقرأ على السيرافى » . ويدعى ابن خالويه أن أبا على قال : « إن ابن الخياط كان لا يعرف شيئاً » .(٢)

ذلك يدل على أن إقامة أبى على فى حلب كانت محفوفة بالـكيد والدس . فإذا كان ابن خالويه لم يتورع عن الدس له ، بعد أن فارق حلب خوفا من أن تحدثه نفسه بالرجوع إليها ـ فلا شك أن ذلك كان مضاعفا ، وهو لما يزل فيها ، لم يغادرها بعد .

وإذا كان ابن خالويه اللغوى النحوى قد حقد على المتنبى الشاعر ـ فلا شك أن حقده على أبى على النحوى اللغوى كان أقرب وأولى ، لأنه من أرباب صناعته وفنه .

ومن يدرى ؟ فلعل أبا على هو أيضا قد حقد على ابن خالويه ، ونفس عليه مكانته لدى سيف الدولة ، فأراد أن يحتلها ، فلما لم يستطع ذلك ، لرسوخ قدم

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ،
(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٧ وما بعدها .

منافسه ، وتمكن منزلته ـ ذهب إلى عضد الدولة ، عساه يظفر بما يبتغى من حظوة ومكانة لدى أمير من الأمراء . وقد تحقق له ما تمنى فقد عظمت مكانته لدى عضد الدولة ، حتى كان هذا يقول : أنا غلام أبى على النحوى فى النحو .[١]

وأما ابن جنى فقد كان أبوه جنى مملوكا روميا لسليمان بن فهد الأزدى الموصلى[٢] ، وكانت أمه أيضا جارية رومية[٣] ، وكان إماما فى العربية ، ومن أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف ، وليس لأحد من أئمة الأدب فى فتح المقفلات وشرح المشكلات ـ ماله[٤] .

لقد صحب ابن جنى أبا على الفارسى أربعين سنة ، وكان السبب فى صحبته له أن أبا على اجتاز بالموصل ، فمر بالجامع ، وأبو الفتح فى حلقة يقرىء النحو وهو شاب ، فسأله أبو على عن مسألة فى التصريف فقصر فيها ، فقال له أبو على : زبيت وأنت حصرم . فسأل عنه ، فقيل له : أبو على الفارس . فلزمه من يومئذ ، واعتنى بالتصريف ، فما أحد أعلم منه ولا أقوم بأصوله وفروعه[٥] .

وهو الذى ينسب إليه ابتداع مبحث جديد فى علم اللغة ، وهو المسمى بالاشتقاق الأكبر ، وهو البحث الذى لايزال يؤتى ثمره إلى اليوم ، والذى يختص بمادة الكلمة دون هيئتها ، ولم يكن لعلماء اللغة من العرب إنتاج أعظم من هذا . يقول السيوطى فى الاشتقاق : وأما الأكبر فيحفظ فيه المادة دون الهيئة فيجعل : ق و ل — و ل ق ، و ق ل ، ل ق و ، ... وتقاليبها الستة بمعنى الخفة والسرعة ، وهذا مما ابتدعه الإمام أبو الفتح بن جنى ، وكان شيخه أبو على الفارس يأنس به يسيرا[٦] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٣٤ .
(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٨١ .
(٣) الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٣٩٠ .
(٤) دمية القصر ص ٢٩٧ .
(٥) معجم الأدباء جـ ١٢ ص ٩١ .
(٦) المزهر جـ ١ ص ٢٠١ .

وقد قدم ابن جنى على سيف الدولة سنة ٣٤١هـ[1] فى السنة التى قدم فيها أستاذه أبو على ، ولعله كان فى صحبته ، وكان ابن جنى مايزال فى مقتبل العمر .

ولقى ابن جنى المتنبى لأول مرة فيما يظهر بحلب ، لقيه بتحفظ ، ثم لم يلبث أن أعجب به . حدث أبو الحسن الطرائفى قال : كان أبو الفتح عثمان ابن جنى يحضر بحلب عند المتنبى كثيرا ، ويناظره فى شىء من النحو من غير أن يقرأ عليه شيئاً من شعره ،أنفة وإكبارا لنفسه . وحدث بلاشير فى كتابه عن المتنبى قال : « ولم يكن الأدباء فقط هم الذين أعجبوا به ، فإن ابن جنى النحوى الذى جاء إلى حلب سنة ٣٤١ هـ قد أخذ فى شىء من التحفظ أول الأمر فى مناقشة الشاعر مناقشات عدة فى فقه اللغة وفى النحو[2] .

والحق أن ابن جنى قد توثقت الصلة بينه وبين المتنبى ، حتى صار أبرز أنصار المتنبى فى حلب ، ثم فى العراق بعد أن فارق هو حلب وعاد الشاعر من مصر ، فقد لزمه فى الكوفة ثم فى بغداد ، وعند ماعاد المتنبى إلى الكوفة عاد معه ، وأخيراً لزمه فى سفره إلى ابن العميد وعضد الدولة ، والظاهر أنه كان معه ليلة قتله[3] .

صحب ابن جنى المتنبى يقرأ عليه ، ويسأله عن شرح الأبيات ، ويكتب عنه. وقد مكنه ذلك من أن يشرح شعره وينبه على معانيه وإعرابه ، فألف شرحين لديوان الشاعر : أحدهما سماه « الفسر » والآخر كتاب معانى أبيات المتنبى ، وهو فيهما متعصب للشاعر مدافع عنه . ومنذ ذلك الحين غدت شروح ابن جنى المرجع الأساسى لكل شروح المتنبى ، وكان لها الأثر الأكبر على اللاحقين

---

(١) النقد المنهجى لمندور ص ١٣٥ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) لم يرد عن ذلك شىء فى المصادر المعتمدة ولعل ذلك ما حدا بلاشير الى عدم ذكر ابن جنى فى قصة القتل فى الفصل الذى عقده عن قتل المتنبى من ص ٢٥٦ الى ص ٢٥٨ .

إلى يومنا هذا ، وإن لم يوفق دائما إلى أصوب المعانى[١] .

وقد كان المتنبي يجله ويحترمه ويقول : هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس[٢] .

وكان فوق علمه شاعرا يميل شعره إلى الجودة ، وإن كان الشعر أقل خلاله كما يقول صاحب اليتيمة[٣] .

ومن شعره يتغزل قوله[٤] :

غزال غير وحشى حكى الوحشى مقلته
رآه الورد يجنى الور د فاستكساه حلته
وشم بأنفه الريحا ن فاستهداه زهرته
وذاقت ريقه الصهبا ء فاختلسته نكهته

والظاهر أن إقامة ابن جنى بحلب لم تطل كما لم تطل إقامة أستاذه أبى على . وإذا كنا قد عرفنا من التاريخ أنه وفد على سيف الدولة فى السنة التى وفد فيها عليه أبو على — فإننا لا نعرف متى غادر حلب ، ولعل ذلك كان بصحبة أستاذه ، وإن كنا لا نعرف أيضاً متى غادر أبو على حلب .

ومهما يكن من شيء فقد فارق الأستاذ وتلميذه حلب فى حياة سيف الدولة ، وأكبر الظن أنه لو طاب لهما المقام هناك كما طاب لابن خالويه — لما ارتحلا .

* * *

وأما ابن خالويه فهو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه ، وأصله

(١) النقد المنهجى لمندور ص ١٩٤ .
(٢) معجم الأدباء جـ ١٢ ص ٩٤ .
(٣) اليتيمة — مطبعة الصاوى سنة ١٩٣٤ — جـ ١ ص ٨٩ .
(٤) المصدر نفسه .

من همذان ، ودخل بغداد طالبا للعلم سنة أربع عشرة وثلثمائة ، فلقى فيها أكابر العلماء ، وأخذ عنهم ، وقرأ القرآن على ابن مجاهد ، والنحو والأدب على أبى بكر بن دريد وأبى بكر الأنبارى ونفطويه وأبى سعيد السيرافى ، وأخذ اللغة عن أبى عمر الزاهد ، وسمع من محمد بن مخلد العطار وغيره . وانتقل إلى الشام ، واستوطن حلب، وصار بها أحد أفراد الدهر فى كل قسم عن أقسام الأدب ، عالما بالعربية ، بصيرا بالقراءة ، ثقة مشهورا ، وكانت الرحلة إليه من الآفاق ، واختص بسيف الدولة بن حمدان و بنيه ، وقرأ عليه آل حمدان ، وكانوا يجلونه ويكرمونه ، فانتشر علمه وفضله وذاع صيته[١] . وكان ممن ازدان بهم بلاط سيف الدولة ، يشترك فى المناقشات اللغوية و الأدبية التى تدور فى مجلسه . ذكر ابن خالويه فى أماليه أن سيف الدولة سأل جماعة من العلماء بحضرته ذات ليلة : هل تعرفون اسما ممدودا وجمعه مقصور ؟ فقالوا : لا ، فقال لى : ماتقول أنت ؟ قلت : أنا أعرف اسمين . قال ماهما ؟ قلت : لاأقول لك إلا بألف درهم ، لئلا يؤخذا بلا شكر ، وهما : صحراء وصحارى ، وعذراء وعذارى[٢] .

وكان من أبرز خصوم المتنبى ومن ألد أعدائه فى بلاط سيف الدولة ، ومما زاد حقده عليه ـ احتقار المتنبى لغير العرب ، وانتصاره عليه فى المناقشات اللغوية والأدبية .

قال ابن بابك : حضر المتنبى مجلس أبى أحمد بن نصر البازيار وزير سيف الدولة ، وهناك أبو عبد الله بن خالويه النحوى — فتماريا فى أشجع السلمى وأبى نواس البصرى ، فقال ابن خالويه : أشجع أشعر ، إذ قال فى هرون الرشيد (رحمه الله) :

(١) معجم الأدباء ج ٩ ص ٢٠١ و ٢٠٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٣ .

وعلى عـــدوك يابن عم محمد رصدان ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبه رعته وإذا غفـــا سلت عليه سيوفك الأحلام

فقال المتنبي : لأبي نواس ما هو أحسن في بني برمك ، وهو :

لم يظلم الدهر إذ توالت فيهم مصيبته دراكا
كانوا يجيرون من يعادي منه فعاداهم لذاكا[1]

وحدث العكبري أن المتنبي حضر يوما مجلس سيف الدولة ، وبين يديه ترنج وطلع ، وهو يمتحن الفرسان ، فقال لابن شيخ المصيصة : لا تتوهم هذا للشراب ، فارتجل المتنبي ثلاثة أبيات مطلعها :

شديد البعد من شرب الشمول ترنج الهند أوطلع النخيل

فأنــكر عليه ابن خالويه ترنج ، وقال : المعروف أترج ، فاستشهد أبو الطيب برواية أبي زيد أنهما مقولان .[2]

وحضر المتنبي مجلس سيف الدولة مرة ، وكان به أبو الطيب اللغوى وأبو عبد الله بن خالويه النحوى ، فجاء في عرض الحديث بيت المتنبي :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر فاليوم أقحم حتى لات مقتحم

فقال ابن خالويه : في هذا البيت لحن شنيع ، لأن لات لاتجر ما بعدها ، ليست هي من حروف الجر . فقال أبو الطيب اللغوى : إن بعض العرب يجر الاسم بعدها . فأنكر عليه ابن خالويه ذلك ، والمتنبي ساكت ، فقال له سيف الدولة : ألا تتكلم يا أبا الطيب ؟ فتكلم في ذلك بما قوى حجة أبي الطيب اللغوى وضعف قول ابن خالويه ، فأخرج من كمه مفتاحا حديدا ليلكم به المتنبي فقال له المتنبي:

---

(١) الصبح ص ٤٤ .
(٢) التبيان ج ٣ ص ٧٥ .

اسكت ويحك، فإنك أعجمى، وأصلك خوزى، فمالك وللعربية . فضرب وجه المتنبى بذلك المفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه، فغضب المتنبى لذلك ؛ إذ لم ينتصر له سيف الدولة ، لا قولا ولا فعلا ، فكان ذلك أحد أسباب فراقه سيف الدولة (١) .

وإذا كان لابن جنى الفضل فى شرح ديوان المتنبى والعلم بمغازيه ومقاصده - فقد كان لابن خالويه الفضل كل الفضل فى جمع ديوان تلميذه أبى فراس وشرحه ، والتقديم لقصائده (٢) ولابن خالويه من التصانيف : كتاب كبير فى الأدب، سماه : كتاب ليس ، وهو يدل على اطلاع عظيم ، فإن مبنى الكتاب من أوله إلى آخره على أنه ليس فى كلام العرب كذا وليس كذا . وكتاب لطيف سماه : الآل ، وذكر فى أوله أن الآل ينقسم إلى خمسة وعشرين قسما ، وذكر فيه الأئمة الاثنى عشر وتاريخ مواليدهم ووفياتهم . والذى دعاه إلى ذكرهم أنه قال فى جملة أقسام الآل : وآل محمد بنو هاشم . وإن تأليف هذا الكتاب وظهوره فى بيئة الحمدانيين من الأدلة القوية على تشيعهم الذى وضحناه فيما سبق فى الكلام عن سيف الدولة .

وله كتاب الاشتقاق ، وكتاب الجمل فى النحو ، وكتاب القراءات ، وكتاب إعراب ثلاثين سورة من الكتاب العزيز ، وكتاب المقصور والممدود ، وكتاب المذكر والمؤنث ، وكتاب الألفات ، وكتاب شرح مقصورة ابن دريد ، وكتاب الأسد ، وغير ذلك . (٣)

وكان ابن خالويه فوق ذلك شاعرا ، ومن شعره :

إذا لم يكن صدر المجالس سيدا فلا خير فيمن صدرته المجالس
وكم قائل مالى رأيتك راجلا فقلت له من أجل أنك فارس (٤)

---

(١) الصبح ص ٤٥ .
(٢) ديوان أبى فراس تحقيق سامى الدهان صفحة ١ و ٢ ج ٢ .
(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٨١ و ٢٨٢ ومعجم الأدباء ج ٩ ص ٢٠٤ والشاعر الطموح ص ٥٧ و ٥٨ بتصرف .
(٤) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٨٢ ومعجم الأدباء ج ٩ ص ٢٠٥ واليتيمة ج ١ ص ٨٩ .

وعلى الجملة . فقد كان ابن خالويه من أجل العلماء الذين أثروا فى بيئة سيف الدولة الأدبية وتأثروا بها ، وقد بقى لدى الحمدانيين أثيرا مفضلا إلى أن توفى سنة ٣٧٠ هـ[١] .

* * *

وأما أبو الطيب اللغوى فهو عبد الواحد بن على ، وأصله من عسكر مكرم[٢] . وهو أحد العلماء المبرزين فى اللغة والنحو . أخذ عن أبى عمر الزاهد ، ومحمد بن يحيى الصولى . وله من التصانيف الجليلة : مراتب النحويين ، ولطيف الإتباع ، والإبدال ، وشجر الدر[٣] . وقد ضاع أكثر مؤلفاته .

قدم حلب وأقام بها فى أيام سيف الدولة ، وبقى حتى قتل فى دخول الدمستق بها سنة ٣٥١هـ[٤]

* * *

وأما أبو الطيب المتنبى فهو وإن غلب عليه الشعر إلا أنه كان واسع المعرفة باللغة والنحو ، إلى حد أنه كان يعد من أئمتهما فى القرن الرابع الهجرى ، والأدلة على ذلك كثيرة ، منها ما يأتى :

١ — اجتمع أبو الطيب هو وأبو على الفارسى يوما ، فقال له أبو على : كم لنا من المجموع على وزن فعلى ؟ قال فى الحال : حجلى وظربى .

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٨٢ .

(٢) بلد مشهور من نواحى خوزستان . معجم البلدان المجلد السادس ص ١٧٦ وهى تنسب إلى قائد عربى أوسله الحجاج لقمع ثورة قامت فى خوزستان ، ولم يعد لها أثر ، وكانت عظيمة المسجد والأسواق . انظر :
The lands of the Eastern Caliphate p. 236, 237.

(٣) بغية الوعاة ص ٣١٧ وذكر أبو المحاسن القرشى فى كتابه إشارة التعيين إلى تراجم النحاة واللغويين — أن أبا الطيب نحا فى كتابه الإبدال نحو كتاب يعقوب فى القلب ، وكان يعرف بشجر الدر ، سلك فيه مسلك أبى عمرو فى المداخل . ورقة ٢٩ الجانب الثانى . والذى أفهمه من هذه العبارة — أن شجر الدر كان اسما لكتاب يعقوب ولم يكن اسما لأحد مؤلفات أبى الطيب .

(٤) بغية الوعاة للسيوطى ص ٣١٧ .

قال الشيخ أبو على : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال ، عَلَى أن أجد لهما ثالثا فلم أجد.[١]

وقال أبو على فى حقه : ما رأيت رجلا فى معناه مثله .

وهذه الجملة الأخيرة ذكرها ابن جنى فى مقدمة شرحه لديوان المتنبى ، وقال : ولو لم يكن له من الفضيلة إلا قول أبى على هذا فيه — لكفاه ، لأن أبا على على جلالة قدره فى العلم ونباهة محله واقتدائه بسنة ذوى الفضل من قبله — لم يكن ليطلق عليه هذا القول إلا وهو مستحق له عنده . فسؤال أبى على أبا الطيب هذا السؤال دليل على أنه لفت الناس إليه بسعة علمه باللغة ، ثم شهادته له دليل آخر[٢] ، فضلا عن تعليق ابن جنى العالم اللغوى النحوى على تلك الشهادة — هذا التعليق .

٢ — ولما وقع الجدل الذى ذكرناه فيما سبق بين أبى الطيب اللغوى وابن خالويه فى « لات » بحضرة سيف الدولة — قال الأمير : ألا تتكلم يا أبا الطيب ؛ فتكلم ونصر أبا الطيب اللغوى على ابن خالويه . فسؤال سيف الدولة أبا الطيب أن يتكلم فى مسألة نحوية ، تدور المناقشة فيها بين عالمين نحويين — دليل على عده من النحاة .

٣ — ولما نزل المتنبى عند ابن العميد فى أرجان — قرأ عليه كتابا جمعه فى اللغة . قال عبد الرحمن الأصفهانى فى كتابه « إيضاح المشكل من شعر المتنبى » : « وكان أبو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذى جمعه ويتعجب من حفظه وغزارة علمه »[٣] .

٤ — وقال الخالديان : « كان أبو الطيب المتنبى كثير الرواية جيد النقد ..

---

(١) الصبح ص ٨٠ و ٨١.
(٢) ذكرى أبى الطيب ص ٣٠٠ و ٣٠١ .
(٣) المصدر نفسه .

وكان من المكثرين فى نقل اللغة والمطلعين على غريبها ، ولا يسأل عن شىء إلا استشهد بكلام العرب من النظم والنثر[١] » .

كان المتنبي إذن معدودا من علماء اللغة والنحو فى عصره ، وقد أعدته نشأته واستعداده ليكون من اللغويين والنحويين . ذلك بأنه لما ترعرع واشتد عوده دفعه أبوه إلى كتاب فى الكوفة ، فتعلم فيه دروس العربية شعرا ولغة وإعرابا[٢] . وبعد أن استوفى حظه من الكتاب خرج إلى البادية ، فلبث سنين فى أهلها ، يعيش بينهم ويأخذ اللغة والبيان .[٣]

ولما رحل إلى بلاد الشام فى صباه خرج إلى البادية أيضا ، فشافه الأعراب وأخذ عنهم كذلك[٤] . هذا إلى أن المتنبى كان قوى الحافظة إلى حد الغرابة . روى أبو الحسن العلوى « أن وراقا ـ كان يجلس إليه المتنبي ـ قال : ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عبدان[٥] فقلت له كيف ؟ فقال : كان اليوم عندى وقد أحضر رجل كتابا من كتب الأصمعى (سماه الوراق ونسيه أبو الحسن) يكون نحو ثلاثين ورقة ، ليبيعه . قال : فأخذ ينظر فيه طويلا ، فقال له الرجل : يا هذا أريد بيعه ، وقد قطعتنى عن ذلك ، فإن كنت تريد حفظه من هذه المدة فبعيد . فقال له : إن كنت حفظته فمالى عليك ؟ قال : أهب لك الكتاب . قال : فأخذت الدفتر من يده ، فأقبل يتلوه إلى آخره ، ثم استلبه فجعله فى كمه وقام ، فعلق به صاحبه وطالبه بالثمن ، فقال : ما إلى ذلك سبيل ، قد وهبته

---

(١) الصبح ص ٩٠ .
(٢) خزانة الأدب ج ١ ص ٣٨٢ .
(٣) يتيمة الدهر — مطبعة الصاوى سنة ١٩٣٤ ج ١ ص ٩٢ .
(٤) صحيفة دار العلوم (أبو الطيب بعد ألف سنة ج ١ ص ٣٦)
(٥) يضبطها بلاشير فى كتابه عن المتنبي ابن عيدان بكسر العين الممدودة . انظر : Blachére P. 27.

لى . فمنعناه منه ، وقلنا له : أنت شرطت على نفسك هذا للغلام . فتركه عليه »[١] .

وكان المتنبي مشغوفا بالكتب يجمعها ويحافظ عليها ، محبا للقراءة صبورا عليها . حدث وكيل داره بحلب قال : كان المتنبي يقبل على دفاتره للدرس والقراءة ، وقد لا يأوى إلى فراشه إلا بعد منتصف الليل[٢] . ولا غرو فهو القائل :

أعز مكان فى الدنا سرج سابح وخير جليس فى الزمان كتاب

ذلك كله أعد المتنبي ليكون من أئمة اللغة والنحو فى القرن الرابع . وكان كوفيا ينحو منحى الكوفيين فى النحو والصرف ، ويقبل على شواذ اللغة التى يجيزها المذهب الكوفى مما أثار الخصومة حول شعره ، وأذكى الجدل والنقاش حول أدبه .

وقد آثرت أن أؤخر ترجمته الإجمالية إلى الفصل الذى سأعقده عن الشعر والشعراء لأن الشعر كان الشىء الغالب عليه .

* * *

هؤلاء اللغويون والنحاة كانوا فى حلب مدرسة تنشر علوم اللغة والأدب ، وكانوا نقادا بارعين يخشاهم الشعراء ، فيعملون على تجويد بضاعتهم والإنعام فيها مليا قبل عرضها على محك النقد والتمحيص .

* * *

٢ — الفلسفة

لما قامت الدولة العباسية ، وعظمت الحضارة الإسلامية ، واشتد اختلاط

(١) الصبح ص ٣ وصحيفة دار العلوم (أبو الطيب بعد ألف سنة) ج ١ ص ٣٦ .
(٢) صحيفة دار العلوم ج ١ ص ٣٦ .

العرب بالأعاجم ـ جد العلماء فى دراسة الثقافة الفارسية والإغريقية ، وشغفوا بكتبها ، وعنوا بنقلها إلى اللغة العربية ، فترجموا كتب أفلاطون وأرسطو وإقليدس وجالينوس وسواهم . ومما شجع هذه الحركة اشتغال خلفاء بنى العباس أنفسهم بالعلم ، وتقريبهم العلماء من مجالسهم ، و بذلهم المال الوفير للمترجمين والنقلة والمجتهدين من المسلمين وغيرهم .

ولقد كانت الثقافة الأجنبية أصيلة فى سوريا ؛ إذ كانت من قديم نقطة التلاق بين الشرق والغرب ، ومحل تقابل القوتين العظيمتين : الفارسية شرقا واليونانية والرومانية غربا ، فكان السوريون يذهبون بتجارتهم غربا وشرقا ، ثم يعودون بحكمة الفرس وعلوم الإغريق إلى بلادهم ، فالتقت فيها معارف الفرس وفلسفة الإغريق[١] .

وقد كانت أنطاكية على عهد الإسكندر وخلفائه مباءة علم وحكمة ، كما كانت بيروت تدعى مرضعة الحكمة على عهد الرومان ، وكانت بها مدرسة لتعليم الفقه الرومانى ، وكانت اللغة اللاتينية لسان العلم فى تلك المدرسة .

وأنشأ السريان فى القرن الرابع الميلادى فى حلب وقنسرين وغيرها ـ مدارس لنشر الثقافة اللاهوتية الطبية الفلسفية باللغة السريانية ، بدلا من اليونانية واللاتينية[٢] .

لهذا كله كان كثير من التراجمة الذين نقلوا للعباسيين تراث الأمم القديمة ـ ولا سيما الفلسفة اليونانية ـ سوريين . ولم يكن المترجمون نقلة فحسب ، بل بل كانوا أصحاب رأى ، وهم لذلك يدخلون فى عداد الفلاسفة ، وإن لم يصلوا إلى درجة الابتداع فى المذاهب الفلسفية[٣] .

---

(١) تاريخ الفلسفة : محمد على مصطفى . ص ١٩٥ .

(٢) خطط الشام ص ١٢ وما بعدها وارجع إلى تاريخ الفلسفة فى الإسلام لديبور ص ٩٦ وما بعدها .

(٣) تاريخ الفلسفة : الأستاذ محمد على مصطفى ص ١٩٨ .

وكان العراق هو مصب الفلسفة فى هذا العصر ، إذ كانت به عاصمة الخلافة ، و بذلك حالت الظروف السياسية دون نمو الثقافة فى بلاد الشام نموا يتلاءم مع أصالتها فى تلك البلاد . وإذا كانت الدولة الأموية قد قامت بها ، قبل أن تقوم الدولة العباسية فى العراق — فإن الأولى دولة عربية النزعة كما يقولون ، فلم يكن منها تشجيع يذكر للحركة العلمية والفلسفة .

نعم قد ظهر فى عهد بنى أمية عدة رسائل فى الطب والكيمياء ، نقلت من اليونانية إلى العربية ، ولكن ذلك لم يكن يعدو الجهود الفردية التى تموت بموت أصحابها .

على إن الانصاف يدعونا إلى أن نقول : إن الدولة الأموية لو قدر لها أن تستمر فى الحكم — الزمن الذى حكمته الدولة العباسية لظهر على يديها من الحركات العلمية ما هو قريب مما ظهر على أيدى العباسيين(١) . ومهما يكن من شىء فعصر الفلسفة الإسلامية خاصة وتدوين العلوم عامة — كان هو عصر العباسيين الأول فى العراق ، لا عصر الأمويين فى الشام ، فكانت بغداد مقصد العلماء ومقر نقلة العلم فى أثناء النهضة العباسية . و بذور العلم التى ألقاها خلفاء هذه النهضة فى بغداد — وهم المنصرر والرشيد والمأمون — ظهرت ثمارها فيما بعد فى خراسان والرى وخوزستان وأذربيجان وما وراء النهر ، وفى مصر والشام والأندلس وغيرها ؛ إذ أن أكثر ملوك الدول الجديدة التى ظهرت بعد انحلال الدولة العباسية — اقتدوا بخلفاء النهضة العباسية فى ترغيب أهل العلم ، واستقدامهم إلى عواصمهم .

وكانت حركة الترجمة قد وضعت أمام أعين المسلمين ثروة علمية ضخمة باللسان العربى ، فكانت الخطوة الثانية أن تتوجه إليها الأفكار العربية ،

---

(١) ضحى الإسلام ج ١ ص ٢ .

تفهمها وتشرحها وتهضمها وتبتكر فيها وتزيد عليها ، وذلك هو ما كان فى العصر الثانى للعباسيين ، فى ظل الدويلات و الإمارات التى انقسمت إليها الامبراطورية العباسية ، ومنها إمارة سيف الدولة بن حمدان فى الشام .

وكانت الفلسفة تشمل المنطق والطبيعيات والإلهيات والأخلاق ، وكان يندر أن يشتغل أحد بالفلسفة دون الطب والنجوم ، أو فى الطب دون الفلسفة والنجوم[١] .

وكان مما يقرءون – كتاب موضوعه : أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفا[٢] . ويمكن أن يقال على وجه الإجمال : إن الفلسفة كان تعد فى ذلك العصر وحدة من فروعها الطب والنجوم . وإذا كان كذلك فأشهر الفلاسفة الذين اتصلوا بسيف الدولة هم : — أبو الحسين كشكرايا الطبيب العالم صاحب الكناش المعروف بالحاوى ، وعيسى الرقى المنجم الطبيب ، وكلاهما من أطباء سيف الدولة ، وكان عيسى ينقل من السريانية إلى العربية ، ويأخذ أربعة أرزاق : رزقا بسبب الطب ، ورزقا بسبب النقل ، ورزقين بسبب علمين آخرين[٣] — ثم أبو القاسم الرقى المنجم الفلكى : صحب سيف الدولة[٤] ، وخدمه ، واختص به ، وحضر مجالسه — ثم الفارابى وهو أشهر الأربعة ، وأكثرهم اتصالا بالفلسفة ، وأجدرهم بلقب الفيلسوف ، بل هو فى مقدمة الفلاسفة الإسلاميين

(١) التمدن الإسلامى ج ١ ص ٢٨٦ .

(٢) الفهرست ص ٢٨٩ وما بعدها .

(٣) الخطط ج ٤ ص ٣٥ .

(٤) وكان سيف الدولة يؤمن بالتنجيم ، ويبدو ذلك مما ورد فى رسالة له كتبها إلى ابنه أبى المعالى بعد انتصاره — أى انتصار سيف الدولة — فى القضاء على ثورة رشيق القسيمى ودزبر فى أنطاكية سنة ٣٥٤ هـ . قال :

.. ونظرت فى التقويم فوجدت الكسوف فتأملته على حسب ما أوجبه علم النجوم والمولد ، فكان غشاه على أعدائنا فقصدتهم وهم على مرحلة من حلب بالناعورة .

[ص ٢٦٨ نخبة كانار]

الذين طالعوا كتب أفلاطون ، ووقفوا على أغراضها ، وأجادوا فهمها . فإليه يرجع الفضل فى ضبط كتب أرسطو وتخليصها من غيرها قبل ترجمتها وشرحها ، ولذا سمى بالمعلم الثانى أو أرسطو العرب . وقد سئل مرة أنت أعلم أم أرسطو ؟ فقال : لو أدركته لكنت أكبر تلاميذه . وقد كان على علم بالموسيقى ، ويحكى أن الآلة المسماة بالقانون من وضعه ، وأنه هو الذى ركبها هذا التركيب المعهود . وقد اتصل بسيف الدولة فأكرمه وقدمه ، وأجرى عليه من بيت المال أربعة دراهم ، وهو الذى اقتصر عليها لقناعته[١] . وكان يعلم طلابه فى الحدائق حول حلب ، وبقى فى الشام إلى أن مات سنة ٣٣٩ هـ[٢] .

* * *

ومن شأن الفلسفة — فيما يتعلق بالشعر — أنها تعمل على تقوية ملكة نقده ، وتؤثر فى أسلوب الشعر ، فتجعل صيغه أدنى إلى الاقتصاد ، وأبعد عن الفضول ، بحيث يكون اللفظ على قدر المعنى ، وإن كان ذلك قد يؤدى إلى الغموض والإبهام ، كما أنها تجرى فى أسلوب الشعر اصطلاحات علمية وفلسفية ، تباعد بينه وبين الديباجة الشعرية التى يرضاها الذوق السليم . وتعمل الفلسفة على رقى المعانى ، لما تحدثه فى العقول من دقة التفكير ، ولما تودعه النفوس من الحقائق العلمية الكثيرة .

تلك هى آثار الفلسفة فى نقد الشعر وخصائصه بوجه عام . فإلى أى حد كان أثرها فى الحياة الشعرية السيفية ؟

أما أثرها فى النقد فلا شك أنها كانت إحدى دعائم النقد الأدبى فى مجالس سيف الدولة . وأما أثرها فى خصائص الشعر السيفى فسنعلمه عند الكلام عن الخصائص الفنية لذلك الشعر .

---

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٥٠٢ .

(٢) ظهر الإسلام ج ١ ص ١٨٦ .

٣ — النثر

(ا) الخطابة : كان للخطابة فى صدر العصر العباسى مكانة فى النفوس وسلطان على القلوب ، كما كانت كذلك من قبل فى عصر صدر الإسلام والدولة الأموية ، لاعتماد القوم عليها فى توطيد الملك ، وتحميس الجند ، واستقبال الوفود . وكان للخلفاء العباسيين الأولين ودعاتهم فيها — الشأن الرفيع ، والشأو البعيد . فلما استوثق الأمر لبنى العباس ، وقام الموالى بسياسة الدولة وقيادة الجيش ، وقل النضال بالسنان واللسان — ضعفت الخطابة ، لضعف القدرة عليها وقلة الدواعى إليها[1] ، هذا فضلا عن أن الشعب فى أيام بنى العباس لم يعرف الحرية ولم يتذوقها ، والخطابة لا ترقى إلا حيث يوجد الشعور بالحرية . فليس بعجيب أن تضعف الخطابة فى هذا العصر ، وتقصر على خطب الجمعة والعيدين والزواج ، وإن كان هناك فن من فنون القول خلف الخطابة فى هذا العصر ، وذلك هو فن المناظرة والجدال بين العلماء والأدبا والفقهاء .

هكذا كان حال الخطابة فى العصر العباسى الأول ، وكذلك كان الحال فى العصر العباسى الثانى ، إلا أن عصر سيف الدلة خاصة فى شمالى الشام — قد امتاز بكثرة الحروب مع الروم ، فكان لا بد للخطابة أن تتخذ وسيلة لحض الناس على الجهاد ، وحثهم على نصرة سيف الدولة[2] فكان ذلك مدعاة إلى امتياز الخطابة فى كنف هذا الأمير بميزة لم تتيسر لها فى سائر الأقطار الأخرى ، وإن كان هـذا النوع من خطب الجهاد قد اصطبغ بصبغة دينية كسائر الخطب الدينية الأخرى التى منها خطب الجمعة والعيدين ، ويكاد ينعدم فيه روح الخطابة الحق التى يغلب عليها الارتجال ، فالسجع غالب عليها كما هو غالب على الكتابة فى هذا العصر ، وإذا ساغ ذلك فى الكتابة لأنها لا تكون

(١) تاريخ الأدب العربى للأستاذ الزيات ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٢) يقال إن ابن نباتة خطيب سيف الدولة كان يعمل الخطبة ويصعد على المنبر يخطب بها والناس ملء الجامع فيخرج أكثرهم من الجامع الى الغزاة — ص ٢٨٥ نخبة كانار .

إلا بالروية والإعداد ـ فإنه لا يسوغ فى الخطابة الجديرة باسم الخطابة ، وإلا كانت هى والكتابة على حد سواء ، وكان اسم الخطابة لها من باب المجاز .

ومهما يكن من شىء فقد عرف التاريخ من خطباء سيف الدولة ـ ابن نباته الفارق : وهو من أهل ميافارقين ، وكان إماما فى علوم الأدب ، وخطبه مراعى فيها البديع وفنونه مراعاة تامة ، وسجعه حسن مقبول ، وخطبه فى الجهاد دون خطب الإمام على التى كان يحفظها ويتأثرها فى جميع مواقفه الخطابية . ومن خطبة له فى الجهاد قوله : قد دخلت علينا الفتنة من كل باب ، وأطمعتنا الدنيا أطماع السراب ، نتهارش على حطامها تهارش الكلاب ، ونلبس فيها جلود الضأن على قلوب الذئاب ، ننظر إلى المعرفة نظر الخزر الغضاب ، ونسكن إلى المنكر سكون البانى بالخود الكعاب ، وقد أظلنا من العدو سحاب ممتدة الأطناب ، ودبت فى ديارنا أعقاب الخراب[1] .

(ب) الكتابة

قلنا إن الكتابة الفنية نشأت ـ أول ما نشأت ـ فى الشام فى أواخر عهد الأمويين على يد عبد الحميد بن يحيى وختنه سالم . فلما كان عهد العباسيين واستبحر العمران ـ حلت الكتابة محل الخطابة فى قمع الأهواء وردع الأعداء ، وإطفاء الفتن ، وتأليف القلوب[2] .

وكانت الكتابة فى أوائل حكم بنى العباس ـ جارية على نظام كتابتها فى أواخر عهد بنى أمية ، سالكة الطريق التى سلكها عبد الحميد ، من العناية بجعل عبارتها جزلة بليغة متناسقة الوضع والأسلوب ، لا يقصد بها إلا إلى إفهام المعنى الجيد بوضوح و بلاغة وقوة حجة ، غير منظور فيها إلى زخرف اللفظ ومحسناته .

---

(١) النثر الفنى لزكى مبارك ج ٢ ص ١٦٤ .
(٢) تاريخ الأدب العربى — الزيات — ص ٢٠٩ .

وبقيت كذلك ، بل زادت حسنا وجمالا ، ومراعاة لمقتضى الحال — إلى أوائل القرن الرابع ، فأخذت الصناعة اللفظية تغلب عليها تدريجا حتى آثر الكتاب البديع ، وقصدوا إليه قصدا ، وأسرفوا فى توشية الكتابة بفنون التورية والموازنة والطباق والجناس ، وحرصوا على السجع ، وتضمين الرسائل أطايب الشعر ومختار الأمثال ، وزادوا الرسوم فى الألقاب والدعاء ، وعمدوا إلى تخصيص كل ذى مرتبة بلقب أو دعاء .

وقد شاع فى القرن الرابع — الكتابة فى الموضوعات التى كانت خاصة بالشعر ، كالغزل والمديح والهجاء والفخر والوصف .

وبعد ، فهل كان لسيف الدولة كتاب فى حلب ؟ وإذا كان فمن هم هؤلاء الكتاب ؟

من الطبعى أن أميراً طموحاً كسيف الدولة لم يكن ليقصر فى تدعيم إمارته بسند قوى وركن شديد من أركان القوة والبأس ونشر الذكر وبعد الصيت ، وهو الكتابة ، ولا سيما أن ذلك الفن كانت قد عظمت منزلته حتى صار جامعاً لكلتا الحسنيين : الأولى قيامه بحاجة الحضارة والشئون الديوانية ، والثانية كونه مظهراً من مظاهر الكمال والجمال ، وسيف الدولة كما عرفنا أديب بطبعه يتذوق الأدب ويدرك سر الجمال فيه .

ولقد كان كرمه مغريا لطائفة من أعلام فن الكتابة أن تفد إلى جنابه وتتفيأ فى ظلاله .

كان إذن لدى سيف الدولة كتاب . من هؤلاء :

أبو محمد عبد الله بن عمر بن محمد الفياض ، وقد كان — كما يقول الثعالبى — كاتبا للسيف الدولة ونديما له ، معروفا ببعد المدى فى مضمار الكتابة وحلبة

الأدب . أخذ بطرفى النظم والنثر ، وكان سيف الدولة لا يؤثر عليه فى السفارة إلى الحضرة أحدا ، لحسن عبارته وقوة بيانه[١] .

ومنهم جعفر بن ورقاء الشيبانى : وهو من رؤساء عرب الشام وقوادها والمختصين بسيف الدولة ، وكان شاعرا كاتبا جيد البديهة والروية ، وكان يأخذ القلم ويكتب ما أراد من نثر ونظم كأنه حفظه ، وكان بينه وبين سيف الدولة مكاتبات بالشعر والنثر مشهورة[٢] . ومنهم وزيره ونديمه أبو على أحمد بن الحسين ابن منصور البازيار ، وهو مشهور فى البلغاء[٣] .

وممن وفد على سيف الدولة أبو على الحاتمى ، وهو شاعر كاتب ، يجمع بين البلاغة والبراعة فى النظم[٤] .

ومنهم أبو الفرج الببغاء : وهو من أهل نصيبين ، اتصل بسيف الدولة فى شبابه ، وخدمه مدة ، و بعد وفاته تنقل فى البلاد[٥] .

ومن الكتاب كذلك أبو الفرج الأصفهانى ، وله المصنفات المستملحة التى منها كتاب الأغانى الذى حمله إلى سيف الدولة فأعطاه ألف دينار ، واعتذر إليه عن صغر الهدية[٦] .

* * *

هذه كلمة مجملة عن الخطابة والكتابة فى حلب فى عصر سيف الدولة ، ولا شك أنهما كانتا دعامتين من الدعائم الأدبية الجديرة بالذكر . والذى يهمنا

(١) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ جـ ١ ص ٨٣ .
(٢) الخطط جـ ٤ ص ٣٣ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) معجم الأدباء جـ ١٨ ص ١٥٤ .
(٥) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥٣٤ .
(٦) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٠ .

أن نقوله ـ ونحن بصدد الكلام عن الشعر فى ظل سيف الدولة ـ أن الخطباء والكتاب فى (بلاط) ذلك الأمير كانوا ولا ريب يحضرون مجالسه ، والشعراء ينشدونه أشعارهم ؛ وكانوا علماء ناقدين ، وأدباء بارعين ورواة حافظين ، بل كان جلهم شعراء مجيدين ، لهم حس مرهف ؛ من أجل ذلك كان لهم نصيب كبير فى تقويم الشعر بنقدهم وروايتهم وذوقهم الفنى ، كما كان لهم أثر فى محيط الثقافة العام بعلمهم ومؤلفاتهم ورسائلهم .

ولقد كان لفنهم الكتابى فى إنتاجهم الشعرى الخاص ـ أثر فى طبع هذا الإنتاج بطابع يمتاز إلى حد ما عن إنتاج من اقتصروا على فن القريض ، ولم يجولوا فى كلتا الحلبتين . يقول ابن رشيق : « والكتاب أرق الناس فى الشعر طبعا وأملحهم تصنيعا وأحلاهم ألفاظا وألطفهم معانى وأقدرهم على تصرف وأبعدهم عن تكلف »[1] .

ثم يقول : « وليس يلزم الكاتب أن يجارى الشاعر فى أحكام صنعة الشعر لرغبة الكتاب فى حلاوة الألفاظ وطيرانها وقلة الكلفة والإتيان بما يخف على النفس منها ، وأيضا فإن أكثر أشعارهم إنما يأتى تظرفا لا عن رغبة ولا رهبة ، فهم مطلقون مخلون فى شهواتهم مسامحون فى مذاهبهم ، إذ كانوا إنما يصنعون الشعر تخيرا واستظرافا ، كما قال كشاجم الكاتب ـ وهو من شعراء سيف الدولة ـ :

ولئن شعرت فما تعمـــدت الهجاء ولا المديحه
لكن رأيت الشعر للـــآداب ترجمة فصيحه »[2]

* * *

(٤) الحياة الفنية فى عصر سيف الدولة

نريد بالحياة الفنية ما كانت عليها حال الفنون الجميلة فى هذا العصر .

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٨٤ الطبعة الأولى .

(٢) المصدر نفسه ص ٨٨ .

ويطلق الفن الجميل على كل عمل منظم يرمى إلى ابتكار ماهو جميل من الصور والأصوات والحركات والأقوال والأفكار .

والفنون الجميلة تنحصر فى رأى أغلب الباحثين فى الرسم والتصوير والنحت والعمارة والموسيقى والرقص والأدب(١) .

على أننا سننهج فى الكلام عن الفنون الجميلة هنا ـ نهجا أملته طبيعة الحياة الفنية التى لمسناها فى هذا العصر ، وإن كان ذلك لا يبعد كثيرا عما اتفق عليه رأى أغلب الباحثين

فسنتكلم عن النقش والتصوير والبناء معا ، غير مفردين كلا ببحث خاص ؛ لأنها مترابطة فى مقامنا هذا ، و يندر أن يكون نقش وتصوير فى غير بنيان .

وهذه الفنون الثلاثة تكاد تشمل الفنون الأربعة الأولى فى التقسيم السابق.

أما الموسيقى فسنفردها بكلام خاص ، وسنقف عندها فى الكلام عن الحياة الفنية .

وأما الأدب فقد سبق أن تكلمنا عن أحد شطريه وهو النثر ـ جاعلين إياه دعامة مستقلة من دعائم الحياة الأدبية ، لأن النثر يغلب فيه جانب العقل على جانب الجمال والفن ، وقد أشرنا إلى ما كان للكتاب من أثر فى النقد وفى الثقافة العامة ، يشبه إلى حد كبير ما كان لعلماء اللغة والنحو والفلسفة ، وإن كنا قد أشرنا كذلك إلى ما كان لهم من أثر فنى فى إنتاج غيرهم وفى إنتاجهم الخاص .

وأما الشعر فسيأتى الكلام عنه فى الفصول التالية ، وهو بيت القصيد فى هذا البحث ، ولم نتكلم عن غيره إلا من أجله ، ولأنه يمت إليه صلة من قريب أو من بعيد .

(١) علم النفس الأدبى للأستاذ حامد عبد القادر ص ٧١ .

وقد أغفلنا أمر الرقص إذ لم يكن له من الخطر ما يحملنا على الكلام عنه في هذا المقام .

النقش والتصوير والبناء

تداول حكم بلاد الشام عامة أمم مختلفة من حثيين وفينيقيين وكنعانيين وعمالقة وإسرائيليين ومصريين وآشوريين وبابليين وفرس ويونانيين ورومانيين ، ثم فتحها العرب بعد الإسلام واستولوا عليها كلها ، بعد أن قامت لهم دويلات فيها قبل الإسلام كما ذكرنا من قبل .

وقد أخذ الحثيون التصوير ، على الأغلب ، كما أخذوا النقش والبناء – عن جيرانهم البابليين والآشوريين ، وربما أخذوا عن المصريين أيضاً . وإن الآثار التي كشفت للحثيين في جرابلس لتدل على مبلغ تلك الأمة من الدقة في التصوير ، وكذلك فعل الكنعانيون والفينيقيون والإسرائيليون : أخذوا عن آشور وبابل ومصر هذا الفن . وقد أجاد التدمريون في تصويرهم ، وكانوا ينقشون على القبور صور من دفن فيها من الرجال والنساء[1] .

أما اليونان والرومان فلم يبدع أحد من الأمم إبداعهم في التصوير — كما يقول الثعالبي — فقد كان لهم إغراب في خرط التماثيل والإبداع في النقوش والتصوير ، حتى إن مصورهم يصور الإنسان ولا يغادر شيئاً إلا الروح ، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره ضاحكاً ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخجل ، وبين المبتسم والمستغرب ، وبين ضحك المسرور وضحك الهازىء[2] .

ولما فتح العرب الشام نهجوا في الفنون الجميلة نهج البيزنطيين ، فلم يعمل

---

(١) الخطط ج ٤ ص ١١٢ و ١١٣ .

(٢) عن المصدر نفسه ص ١١٣ .

الفنانون المسلمون على صدق تمثيل الطبيعة — بقدر ما كانوا يرسمون الأشياء كما يصورها خيالهم ، فطغت على فنونهم الاصطلاحات والأوضاع المبتكرة . وكانت بيزنطة قد سارت من قبل فى هذا الاتجاه بتأثير المسيحية ، مبتعدة عن الدقة فى تمثيل الطبيعة متخلصة من تقاليد الفن الإغريقى فى ذلك ، وكان نفور المسلمين من تقاليد الخالق وخوفهم من أن يكون فى هذا مدرجة إلى الرجوع إلى عبادة الأصنام — أكبر مشجع على عدم الرجوع إلى الأساليب الإغريقية القديمة[١] .

وقد أخذ العرب نقوش الفسيفساء عن الروم ، فقد قال بعض المؤرخين : إن الوليد بن عبد الملك كان يحمل الفسيفساء على البريد من القسطنطينية إلى دمشق ، فصفح بها حيطان المسجد الجامع .

وأما فن البناء فقد ظهر أن الشام فى القديم لم يكن له فى ذلك الفن طراز خاص ، وكان بناؤه على حسب روح الدولة التى تتغلب عليه . وكان أساتذة العرب فى البناء لأول أمرهم — الروم ، فكان بين أبنيتهم وأبنية النصارى وجه شبه ، ومن ذلك أن كانت مساجد الشام على شكل الكنائس التى قال عنها المؤرخ « أو سابيوس » : إنها ذات أقبية وأواوين وفساق ومساكن للقسس . ويقول بعض العارفين : إن الشام لايحوى كثيرا من المصانع الخارقة للعادة من صنع العرب ، لأنهم اكتفوا بما وجدوه فى البلاد من المبانى القديمة فاستعملوها على ما يشاءون ، وكثيرا ما بنوا بمواد أخذوها من أبنية قديمة[٢] . ومن ذلك ما رواه ابن شداد من أن الوليد اقتلع من كنيسة أنطاكية عمدا عجيبة من المرمر والرخام لمسجد دمشق ، حملت فى البحر إلى ساحلها . على أن هذا المسجد نفسه كان قبل الإسلام كنيسة على اسم القديس يوحنا ، فلما فتح المسلمون دمشق

(١) فى الفنون الإسلامية للدكتور زكى محمد حسن ص ٤٤ و ٤٥ .
(٢) ص ١٣٥ ج ٤ خطط الشام .

صالحوا أهلها على أن تقسم الكنيسة مناصفة : المسيحيون يصلون فى نصفها الغربى ، والمسلمون فى النصف الشرقى . فلما أفضت الخلافة إلى الوليد بن عبدالملك أخذ النصفين جميعا ، وجدد بناء الجامع(١) .

ومع ذلك فإن الأمويين قد اتخذوا لأنفسهم فى الشام قصورا عظيمة ، ولو لم يُعَفّ بنو العباس على آثارهم لرأينا فى الشام أحسن صورة من صور بنائهم ، ومنه ما كان فى المدن ، ومنه ما كان فى البادية أو ما يقرب منها ، لأن الأمويين كانوا فى الغالب يتحامون نزول دمشق لرطوبتها وحمياتها .

ومما خربه العباسيون من قصور الأمويين ما كان لهم منها فى حلب ، مثل قصر سليمان بن عبدالملك بحاضر حلب ، وقصر مسلمة بن عبدالملك بالناعورة بحلب .

أما ما استحدثه العباسيون من المصانع والقصور فى الشام — فقليل نادر ، فإنهم قد آثروا أن يجعلوا قصورهم فى العراق وخراسان ، وكذلك آثر الفاطميون والإخشيديون من المتغلبين على الملك فى الشام قبل الحمدانيين — أن يجعلوا مصانعهم وقصورهم فى مصر . فلما جاء سيف الدولة وأقام دولته فى شمال الشام كان ما فى دولته من الآثار الفنية إنما يرجع معظمه إلى ما قبل الفتح العربى لبلاد الشام ، كقلعة حلب وكثير من الكنائس والأديار . فأما قلعة حلب فيرجع تاريخها — كما يقول الأثرى الفرنسى بلوادى روتر — إلى خمسة آلاف سنة خلت ، واشترك فى بنائها كثير من الأمم ، أخصها بالذكر الحثيون والفرس واليونانيون والرومانيون والعرب(٢) .

وقد بنيت هذه القلعة على أكمة ربما كانت صناعية ، ويحيط بها خندق عظيم كان القدماء يملئونه ماء ليتعذر الوصول إليها إلا من داخلها ، ويقال إن حلب القديمة كانت كلها مبنية فى هذه القلعة(٣) .

---

(١) ص ٩٢ جـ ٥ التمدن الإسلامى .
(٢) سيف الدولة سامى الكيالى ص ٦١ .
(٣) الخطط جـ ٥ ص ٢٩١ .

وأما الكنائس والأديار فالفرق بينهما – كما يقول ياقوت – أن الدير حيث يتعبد فيه الرهبان ولا يكاد يكون فى الصحارى ورءوس الجبال ، فإن كان فى المصر سمى كنيسة أو بيعة .[١]

وقد تكاثرت الكنائس والأديار فى بلاد الشام ، ولما يمض على انتشار النصرانية قرنان وتجلت فيها روعة الفن وإبداعه[٢] ، والأديار أجدر بالذكر فى مقامنا هذا ، إذ كان لها صلة أوثق بالفن والأدب فى سالف الأعصار ، فقد بولغ فى زينتها حتى صار المارة يعرجون عليها ليشاهدوا نقوشها وصورها وتماثيلها[٣] ، وكانت غنية ببساتينها وخمورها ، فاتصل بها أهل الخلاعة والمجون من الأدباء ، وأكثروا من القول فيها ، وكان ذلك النوع من الأدب يدور على وصف الخمر والغزل بغلمان الأديرة وفتياتها ووصف الطبيعة الضاحكة حولها . وكذلك كان الحال فى عصر سيف الدولة . فمن الأديار التى اتصل بها الأدب فى عصره : دير مار مروثا ، وهو دير صغير بظاهر حلب ، فى سفح جبل جوشن ، على نهر العوجان . وكان سيف الدولة محسنا إلى أهله ، وقلما مر به إلا نزله ووهب لأهله هبة كبيرة ، وكان يقول : رأيت أبى فى النوم يوصينى بأهله خيرا – وفى رواية رأيت والدتى – وله بساتين قليلة ومباقل وفيه نرجس و بنفسج وزعفران ، و يعرف بالبيعتين ، لأن فيه مسكنين للرجال والنساء[٤] .

ودير مران : وفيه يقول الخالدى : هذا اسم لديرين فى الشام ، كان أحدهما على الجبل المشرف على كفر طاب قرب المعرة ، يزعمون أن فيه قبر عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وهو مشهور بذلك . . . والثانى بالقرب من دمشق على تل

---

(١) معجم البلدان حـ ٤ ص ١١٩ .
(٢) ارجع الى خطط الشام حـ ٥ ص ٢٦١ و حـ ٦ ص ٥ .
(٣) تطور الخمريات فى الشعر العربى ص ١٨١ .
(٤) الخطط حـ ٦ ص ٣٧ .

مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة ، وبناؤه بالجص ، وأكثر فرشه بالبلاط الملون . وهو دير كبير ، وفيه رهبان كثيرة ، وفى هيكله صورة عجيبة دقيقة المعانى ، والأشجار محيطة به [١] .

ودير زكى وفيه يقول الشابشتى : « وهذا الدير بالرقة على الفرات ، وعلى جنبيه نهر الفرات ، وهو من أحسن الديارات موقعا وأنزهها موضعاً ، وكان الملوك إذ اجتازت به نزلته ، وأقامت فيه ؛ لأنه يجتمع فيه كل مايريدونه ، من عمارته ونفاسة أبنيته وطيب المواضع التى به ، ونزهه ظاهرة لأن له بقايا عجيبة ، وبناحيته من الغزلان والأرانب وما شا كل ذلك مما يصطاد بالجارح ، من طير الماء والحبارى وأصناف الطير . وفى الفرات بين يديه مطارح الشباك للسمك . فهو جامع كل ما يريده الملوك والسوقة ، وليس يخلو من المتطر بين لطيبه ، سيما أيام الربيع ، فإن له فى ذلك الوقت منظرا عجيبا [٢] » .

ودير باعنتل من أعمال حمص ، [٣] ودير سمعان بجبـــل سمعان فى نواحى حلب ، [٤] ودير خناصرة ، وهى بلدة قديمة من كورة حمص [٥] ، ودير رمانين وهو بين حلب وأنطاكية [٦] .

* * *

وأما موقف سيف الدولة إزاء فنون التصوير والنقش والبناء — فالمعروف أنه أخذ بيد تلك الفنون ، فنهضت فى ظله نهضة تبعث على الدهشة والإعجاب .

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٩ .
(٢) كتاب الديارات للشابشتى ص ٩٦ .
(٣) الخطط جـ ٦ ص ٢٥ .
(٤) نهر الذهب جـ ١ ص ٤٣٨ .
(٥) المصدر نفسه ص ٤٣٣ .
(٦) الخطط جـ ٦ ص ٢٩ .

يقول « شلمبرجة » : « لقد أقسم مورخ بيزنطى زار حلب فى عصر سيف الدولة — أن قصور الخلفاء فى بغداد وقصور ملوك الروم فى القسطنطينية كانت أقل بهاء من قصور سيف الدولة[١] . وقال هذا المؤرخ : إن الفنون على تباين أنواعها كانت مضطهدة فى عاصمة المسيحية ، ولكنها كانت تنعم بتسامح كبير فى عاصمة الدولة الحمدانية .

وقد كان المصورون والمثالون من الروم يخرجون من ديارهم على كره منهم ، لأن قيصر الروم قد أجبرهم على هذا التشرد ، فكانت حلب تستقبل جميع هؤلاء ، وكان سيف الدولة يكرمهم ثم يستفيد منهم و يمتحن عبقرياتهم ثم يستغلها استغلالا حسنا ، و يقبس من « تحاسينها وتزاو يقها » ما يزيد فى « تحاسين » حضارة بلاده »[٢] .

على أن أهم ما استحدثه سيف الدولة من النماذج الفنية الرائعة التى ازدانت بها حلب فى عصره إنما هو قصره بالحلبة[٣] الذى بناه وأجرى إليه نهر قويق وأطافه به .

يقول المستشرق الفرنسى دايفتس : إن سيف الدولة دعا لبناء قصره بالحلبة أحذق المهندسين وأبرع البنائين وأمهر المصورين ... وأغدق عليهم النعم ودعاهم إلى حفلاته وولائمه ، وكان يأمر فرسانه بتقديم التحية لهم عند مرورهم وَيُسَيِّرُ فرقا من الجندية أمامهم تضرب الطبول ، وأمر بأن يحترمهم الناس

---

(١) سيف الدولة — سامى الكيالى ص ٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤ ، ٥ .

(٣) محلة من ضواحى حلب من جهة الغرب (الدر المنتخب ص ٦٠ و ٦١) وسميت بالحلبة لأن سيف الدولة كان يجرى فيها سباق الخليل (نهر الذهب ج ٢ ص ٣١٦) .

كاحترامهم لأشد الفرسان شجاعة ، لأنهم — وهم رجال الفنون الجميلة — لا يقلون مقاماً عن أبطال الحروب وقواد الجيش [١] .

وقد وصف هذا المستشرق ذلك القصر وصفاً يبلغ حد الخيال ، فقال: عندما فتحت أبواب القصر المرة الأولى كان ذلك انبهاراً للأعين ، فالأبواب كانت من (البرونز) النحاسى ، ونقشت عليها ألوف «التصوير» المستغربة . وهى تدور على قواعد من الزجاج حتى لا تأتى بحركة ، و بعد ذلك تظهر لك قاعات متتابعة ملأى بالأعمدة المرمرية المزركشة والموشاة بالذهب والفضة ، وجعل المصورون رسوم الزهر فى أواسط القباب العالية ، حيث حفروا بين جهة وأخرى آيات من القرآن الشريف بأحرف كوفية جميلة ، وأبياتا لأكبر رجال الشعر بأحرف فارسية فتانة . . . وكان للقاعة الكبرى خمس قباب بلون اللازورد ، يحملها اثنان وأربعون ومائة عمود من المرمر المزركش بالفضة والذهب ، تنيرها آلاف من النوافذ الزجاجية الملونة وفى وسط كل عمود خرجت أوان ملأى بالنباتات النادرة . وفى الوسط إفريز عظيم من الخشب الأبنوس الموشى بالذهب ، جعل لجلوس الأمير ورجاله الأخصاء ، وحفر عليه رسم الأمير منتصراً على الصحراء ... إلخ [٢] .

وهذا الوصف و إن كان الكاتب قد أضفى فيه على ما استقاه من كتب التاريخ من خياله الجامح — الشيء الكثير ، إلا أنه يمدنا فى ثناياه ببعض الحقائق التى يؤيدها ماعرف عن سيف الدولة ، من حب البذخ والغرام بألوان الفنون .

---

(١) سيف الدولة : أندره دايفنس — ترجمة إسكندر رياشى ص ٢٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ .

الموسيقى

نشأت الموسيقى مع البشر ولازمتهم فى جميع ما عرف من أدوار فى حياتهم الخاصة والعامة ، وفى مظاهر سلمهم وحروبهم ، وسعادتهم وشقائهم ، وأفراحهم وأتراحهم .

ولقد كان للشعوب التى سكنت الشام قديما عناية بالموسيقى والغناء .

فالحثيون كان لهم من الغناء ما ابتدعوه بفطرتهم ، وما أخذه عن مجاوريهم؛ وكذلك الآراميون كانوا مولعين بالغناء والموسيقى ومثل هذا يقال فى الفينيقيين ، فإنهم كانوا يعرفون الموسيقى ، ومنها مانقلوه عن المصريين الذين كانوا يعنون عناية فائقة بالموسيقى فى معابدهم ، ويشهد بذلك ما خلفوه فى هذه المعابد من تماثيل تمثل العازفين والمغنين .

وكذلك أولع الكنعانيون والاسرائيليون بالموسيقى ، وظهرت آثارها فى معابدهم وفى حروبهم وغاراتهم وأعيادهم ومآتمهم واجتماعاتهم ، على مافهم من نصوص التوراة .

ولقد دلت بعض النقوش التى عثر عليها فى البتراء وجرش وتدمر — على أن العمالقة والنبط والعرب لم يكونوا أقل من الشعوب التى سبقتهم إلى نزول هذه الديار ولوعا بالتلحين والإيقاع والضرب على القيثار والنفخ فى المزمار .

وإذ طال عهد دولتى اليونان والرومان فى بلاد الشام ، فقد تأصلت فيها موسيقاهم التى نقلوها إليها ، فيما نقلوا من ثمار العلم والفن .

ولما انتشرت النصرانية فى القرن الثالث الميلادى فى الشام — عنى معتنقوها

بالموسيقى فى كنائسهم عناية اليهود بها من قبل فى بيعهم ، واقتبست النصرانية كثيراً من موسيقى الرومان وألحانهم .

وكان للاتصال العربى القديم المعروف — أثر فى نقل ما ألفه العرب من الألحان ، وما كانوا يضربون عليه من الآلات[١] . وبعض شعراء العرب كان يغنى شعره عند الغساسنة كعلقمة الفحل[٢] . وكان يفد إلى جبلة بن الأيهم من يغنيه من العرب من مكة وغيرها ، كما كان عنده من القيان من يغنيه بالرومية ، ومن يغنيه غناء أهل الحيرة ، كما حدث بذلك حسان بن ثابت[٣] .

فالغناء وجد فى بلاد الشام من أقدم العصور — وهذا أمر طبعى — وأمدته جميع الأمم التى سكنته أو اتصلت به بألحانها وأغانيها .

ولما كان الفتح الإسلامى لبلاد الشام ، ثم كان بها بعد ذلك مقر الخلافة الإسلامية فى دمشق — اتسعت بها موجة الغناء العربى ، بعد أن اشتد عوده وزكا أصله فى الحجاز ، فى مكة والمدينة — بما امتزج به من الأصول الرومية والفارسية .

وقد بدت العناية بالغناء فى الدولة الأموية منذ بدايتها . روى المبرد أن معاوية استمع على يزيد ذات ليلة ، فسمع من عنده غناء أعجبه ، فلما أصبح قال ليزيد : من كان ملهيك البارحة ؟ فقال له يزيد : ذاك سائب خاثر . قال : إذن فأخثر له العطاء[٣] . وكان يزيد بن معاوية يحب الغناء ، ويطرب للموسيقى . وقد طلب المغنين من المدينة ، فذهبت إليه عزة الميلاء[٤] .

---

(١) الخطط ج ٤ ص ١٠٠ و ١٠١ .
(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر ص ٢٤ .
(٣) الخطط ج ٤ ص ١٠٣ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٠٤ .
(٤) الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية (فى المدينة) ص ١٥٣ .

وينهى إلى عبد الملك أن رجلا أسود ، يقال له سعيد بن مسجح — وهو أول من نقل الغناء العربى المنقول عن الفارسى — أنه أفسد فتيان قريش ، وأنفقوا عليه أموالهم ، فيكتب إلى دحمان الأشقر عامله بمكة أن اقبض ماله وسيره ، ويأتى سعيد إلى دمشق مغضوبا عليه وقد صودرت أمواله ، فيحتال حتى يسمع عبد الملك صوته من منزل بحذاء قصره ، فيأمر بإحضاره ، فيحضر ويغنيه غناء الركبان والغناء المتقن ، فيهتز عبد الملك طربا ، وما يكاد يعرف أمره حتى يتبسم قائلا : قد وضح عذر فتيان قريش فى أن ينفقوا عليك أموالهم . ثم يؤمنه ويصله ، ويكتب إلى عامله برد ماله وألا يعرض له بسوء[١] .

وكذلك وفد على عبد الملك بديح المليح مولى عبد الله بن جعفر ، فاستمع إليه وأثابه[٢] .

وقدم مالك ومعه معبد وابن عائشة على يزيد بن عبد الملك فغنوه ليلة فأطربوه ، فأمر لكل منهم بألف دينار[٣] . وممن غنى من الأمويين ، وكانت له أصوات صنعها مشهورة — الوليد بن يزيد . وقد كان يضرب بالعود ، ويوقع بالطبل ، ويمشى بالدف على مذهب أهل الحجاز[٤] .

ولما قامت الدولة العباسية ، واتخذت حاضرتها فى العراق فى بغداد — انتقلت نهضة الغناء إلى مستقر الدولة ، وأصبحت لا تجد مغنيا فى الحجاز إلا ويفزع إلى العراق ، وتكونت هناك مدارس للغناء والموسيقى ، وكثر فيها الأساتذة والتلامذة كثرة مفرطة ، بحيث غطت هذه المدارس على حركة الغنا القديمة فى الحجاز[٥] .

---

(١) المصدر نفسه والأغانى ج ٣ ص ٢٨٢ و ٢٨٤ .
(٢) الشعر الغنائى ص ١٥٤ .
(٣) المصدر نفسه والأغانى ج ٥ ص ١٠٩ .
(٤) الشعر الغنائى ص ١٥٥ والأغانى ج ٩ ص ٢٧٤ .
(٥) الشعر الغنائى ص ١٠٦ .

وقد تأثرت الموسيقى فى ذلك العصر بالموسيقى الفارسية تأثراً بالغ الحد ودخل عليها الكثير من أسمائها ومصطلحاتها[١] . وقد أسس المأمون أول جامعة عربية لدراسة العلوم والفنون فى بغداد ، وأسماها بيت الحكمة ، فاشتغل فيها فطاحل العلماء بترجمة علوم اليونان التى كان من بينها العلوم الموسيقية . وظهرت فى ذلك العصر عناية خاصة بإثبات قواعد الموسيقى العربية ونظرياتها والتدوين الموسيقى بالحروف بشكل منظم[٢] .

برع العراق إذن فى العصر العباسى فى الموسيقى وحمل لواء نهضتها ، كما حمل لواء نهضة غيرها من العلوم والفنون ، ولم يكن لغيره من الشام وسواه أثر يذكر فى نهضة هذا الفن . ويرجع ذلك إلى أن غزارة الأموال فى بغداد ، ووفرة عطايا الخلفاء ـ جعلت الفنون الجميلة لا تزدهر إلا فى أحضانهم ، وتذبل فى غير جوهم . فإذا جاء العصر العباسى الثانى وتشبه الأمراء والملوك بخلفاء بغداد فى مظاهر الترف والابهة ومظاهر الملك ، وتنافس هؤلاء فى اجتذاب أرباب الفن ، كما تنافسوا فى اجتذاب أرباب العلم ـ رأينا ذلك الفن يحظى فى الشام فى ظل سيف الدولة بعناية واهتمام ، فكان فى بلاطه الفارابى المعلم الثانى ، الذى وصل فى علم صناعة الموسيقى إلى غاياته ، وأتقن ذلك الفن إتقانا عجيبا . وقد أدهش من عنده من الموسيقيين ، على إتقانهم للموسيقى والغناء . واشتهر الفارابى بآلته الغريبة التى كانت تخرج أنغاما مختلفة ، بعضها يضحك ، وبعضها يبكى ، وبعضها ينيم[٣] . ويحكى أن الآلة المسماة بالقانون من وضعه ، وهو أول من ركبها هذا التركيب[٤] .

---

(١) مؤتمر الموسيقى العربية ص ١٠ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٥٠١ .

(٤) المصدر نفسه .

وقد كان بين سيف الدولة والوزير المهلبى تنافس على الاستئثار بمغنية أديبة مشهورة ، اسمها الجيداء . وكان لجيداء فى مجالس سيف الدولة من ارتجال الألحان والأدب البارع – ما اشتهر أمره . وفى عصره اشتهرت فى أنطاكية المغنية المشهورة بنت يحنا(١) .

وقد كثر تعليم الجوارى الغناء فى هذا العصر بوجه عام ، واتخذ أصحابها بيوتا معدة للسماع كان يتردد عليها الناس ، ولم يتحرج منها العلماء والأدباء والقضاة والأعيان والصوفية ، وكانت هذه البيوت تسمى بيوت القيان .

ومن هؤلاء القيان من كن يتاجرن بالعشق والغناء ، فيوقعن فى أحبالهن الشبان الموسرين حتى يستنزفن مالهم ثم يلفظنهم(٢) .

وقد قدم لنا كشاجم أحد شعراء سيف الدولة فى إحدى قصائده صورة واضحة لهذه البيوت ، وما يجرى فيها من موسيقى وغناء ورقص وعبث – إذ يقول :

ومنزل قينة سهل الجناب ... تضمن كل آنسة كعاب
غذتها نعمة ولذيذ عيش ... فأنبت صدرها ثمر الشباب
فمن عوادة تشدو وأخرى ... بمعزفة وأخرى بالرباب
ومحسنة موقعة بطبل ... كصوت الرعد من خلل السحاب
وشافعة صواحبها بناى ... أحن من الخليع إلى التصابى
وراقصة على كرة وحبل ... كخطف البرق أو لمع السراب
ركبت به مطايا اللهو حتى ... حططت به مُطَلحة ركابى

(١) الخطط ج ٤ ص ٢٠٧ .
(٢) ظهر الإسلام ص ١٢٧ .

فما بقيت به عـــذراء إلا صـــبت بحوى وهام فؤادها بى
أواصل هذه فتغار هـــذى وتعتب أو تعرض للعتاب
وأخرى بيننا بالـكتب تسعى مكاتبة وترجع بالجـــواب
فما إن رمتـــه حتى تولى بذات يدى وأودى باكتسابى[1]

* * *

على أن الفارق كبير بين ما كان فى حلب فى عصر سيف الدولة من شيوع الغناء ، و بين ما كان فى بغداد التى لم تضارعها حاضرة أخرى فى هذا الباب . فقد كثرت فى بغداد بيوت القيان كثرة تبلغ حد العجب والغرابة . يقول أبو حيان : « وقد أحصينا جماعة فى الـكرخ أربعمائة وستين جارية فى الجانبين (جانبى بغداد) ، ومائة وعشرين حرة ، وخمسة وتسعين من الصبيان — يجمعون بين الحذق والحسن و الظرف والعشرة . هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته وحرسه ورقبائه ، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء و بالضرب ، إلا إذا نشط فى وقت أو ثمل فى حال ، وخلع العذار فى هوى قد حالفه وأضناه ، وترنم ووقع ، وهز رأسه وصـــعد أنفاسه ، وأطرب جلاسه واستـكتمهم حاله ، وكشف عندهم حجابه ، وادعى الثقة بهم والاستنامة إلى حفاظهم[2] .

أما حلب فى العصر السيفى فأكبر الظن أن حروب سيف الدولة قد شغلتها إلى حد كبير عن الإفراط فى هذه الملاهى التى أفرطت فيها بغداد كل الإفراط . يقول الثعالبى : « وكان سيف الدولة قلما ينشط لمجلس الأنس ، لاشتغاله عنه بتدبير الجيوش وملابسة الخطوب وممارسة الحروب[3] » .

---

(١) ديوان كشاجم « النسخة الخطية » ص ١٣ .
(٢) الإمتاع والمؤانسة ج ١ قسم ٢ ص ١٥١ و ١٥٢ .
(٣) اليتيمة مطبعة الصاوى سنة ١٩٣٤ ج ١ ص ٢٨ .

وفى آخر قصيدة أنشدها المتنبى بحلب — قال هذه الأبيات التى لا شك فى أنه لم يرد بالبيت الأول منها إلا أهل العراق :

ألهى الممالك عن فخر قفلت به　　شرب المدامة والأوتار والنغم
مقلدا فوق شكر الله ذا شطب　　لا تستدام بأمضى منهما النعم
ألقت إليك دماء الروم طاعتها　　فلو دعوت بلا ضرب أجاب دم

ولعل ذلك من الأسباب التى جعلت جانب الخلاعة والمجون فى شعر العراق فى ذلك العصر — يرجح فى ذلك الاتجاه اللاهى شعر الشام ، بل إنه ليرجح شعر سائر الأقطار الأخرى ، على حين كان جانب الجد والصرامة والقوة فى الشعر السيفى لا نظير له فى سائر الشعر فى ذلك العصر .

* * *

هذه لمحة موجزة عن الحياة الفنية فى ظل سيف الدولة ، ذكرناها بوصفها دعامة من دعائم الحياة الأدبية لعصره . وليس هناك من شك فيما كان لها من أثر كبير فى فن الشعر الذى هو محور هذا البحث . فالفنون بوجه عام تعمل على تقوية الإحساس بالجمال ، ولا يخفى ما لذلك من أثر فى الإنتاج الشعرى من ناحية ، ومن أثر فى النقد الأدبى من ناحية أخرى . وذلك الأثر الأخير مرده فى النهاية إلى الإنتاج الشعرى كذلك — بالتوجيه والإرشاد الذى يسديه النقاد إلى الشعراء .

وفوق هذا الأثر العام للفنون — لكل فن أثر خاص ، فقد اتخذت آثار النقش والتصوير والبناء موضوعات للشعر يصفها الشعراء ويذكرون آيات الجمال فيها ، كما أنها كان لها أثر ملحوظ فى ألفاظهم وأساليبهم . وكان للموسيقى أيضاً أثر فى اتجاه الشعر الذى قصد به أن يكون مادة للغناء — إلى الأوزان القصيرة والألفاظ الموسيقية التى تطاوع التنغيم والإيقاع ، هذا فضلا عن اتخاذ الشعر أرباب الموسيقى والغناء ، وأدواتهم الموسيقية — موضوعات للمدح والهجاء

والغزل والوصف ، وكل ذلك يذكر فى موضعه من أغراض الشعر وفنونه وخصائصه الفنية ، فى بعض الفصول التالية ، إن شاء الله .

٥ — مجالس سيف الدولة :

هذه المجالس كانت تضم اللغويين والنحاة والفلاسفة وأرباب الفنون والكتاب والشعراء . وكل هؤلاء كانوا دعائم للحياة الأدبية فى ظل سيف الدولة ، كما كانت تضم شخصه العظيم الذى كان غرة هذه المجالس ، إذ كان هذا الأمير نفسه رجلا مثقفاً بصيراً بالشعر يقوله وينقده . وقد ذكرنا طرفاً من هذه المجالس ، كلا فى موضعه ، فمنها ما ذكرناه فى الفصل الذى كتبناه عن سيف الدولة فى بيان ذوقه الأدبى ونزعته الأدبية ، ومنها ما ذكرناه بصدد الكلام عن اللغويين والنحاة وغيرهم فى هذا الفصل الذى لم نفرغ منه بعد .

فلسنا إذن بحاجة إلى قص القصص عن هذه المجالس ، فما ذكرناه منها كاف فى الدلالة على حيويتها ونشاطها وزخورها بالمناقشات العلمية والأدبية .

وإنما أحببنا هنا أن نفردها بعنوان خاص بعد أن ذكرنا فى المناسبات السابقة بعض ما كان يدور فيها — لنبين أن عقد هذه المجالس وحده كان متمما للدعائم الأدبية السابقة ، بل إنه كان العروة الوثقى التى ربطت بين تلك الدعائم ، ووصلت بعضها ببعض لتؤتى ثمرها وافراً كاملا غير منقوص . فهذه المجالس كانت كالبحر تتلاقى فيه الجداول المختلفة ، فتصب فيه ألواناً من العلم والفلسفة والفن والأدب ، كان لها أثر كبير فى تلوين الشعر فى ظل سيف الدولة بلون خاص ، تضافرت على تكوينه هذه الألوان جميعاً ، فظهر فيه أثر اللغويين والنحاة وأثر الفلسفة وأثر الكتاب والخطباء وأثر أرباب الفنون ، على ما بينا على وجه الإجمال فيما سبق ، وعلى ما سنبين بالتفصيل والتمثيل — فيما هو آت إن شاء الله .

الفصل الرابع

الشعر والشعراء

(ا) الشعر والشعراء فى حلب فى الفترة التى سبقت عهد سيف الدولة (فى الثلث الأول من القرن الرابع) .

يلاحظ الدارس للشعر فى حلب قبل أن يتملكها سيف الدولة — أن ذلك الشعر كان ضئيلا قليلا ، وذلك طبعى ؛ فالتاريخ العربى الإسلامى يدلنا على أن الشعر إنما كان يزدهر حول بلاط الخلفاء ، ومن إليهم من الأمراء والعظماء ، وأن الشعراء كانوا لا يزدحمون إلا على أعتاب هؤلاء الذين كانوا ينثرون الذهب والفضة على من يشيد بذكرهم وينوه بشأنهم . ذلك بأن التوازن الاجتماعى فى معظم العصور الإسلامية لم يكن مكفولا ، فاشتغل الشاعر العربى عن التغنى بالشعر لنفسه والتعبير عن خواطره وخوالج فؤاده — بمديح من يرجو على أيديهم القوت ، وما يستطيع به العيش فى هذه الحياة من الدرهم والدينار ، وذلك ما عبر عنه أبو نواس إذ يقول :

يسقط الطير حيث يلتقط الحب ... وتغشى منازل الكرماء

ولم تكن حلب إلا كغيرها من أقاليم الشام منحازة إلى ملك الحكام من الطولونيين ، ثم الإخشيديين فى مصر ، فى الفترة التى سبقت عهد سيف الدولة ، فلم يكن لها من الجاه والسلطان ما يجعلها مقصد الشعراء ومنتجعاً لهم ، كما تهيأ لها ذلك فى عهده فيما بعد .

ولا نكاد نعلم أن أحداً من الشعراء قد وفد على ذلك الإقليم فى تلك

الفترة — إلا المتنبى فى صباه. فقد ارتحل هذا الشاعر إلى شمالى الشام سنة ٣٢١ هـ على ما رجحه الدكتور عبد الوهاب عزام، وسنه إذ ذاك ثمانى عشرة سنة[١] .

ورحلة المتنبى إلى هذا الإقليم فى تلك الفترة من التاريخ لا تنقض ما بسطناه فى الفصل السابق ، وما أشرنا إليه الآن من غلبة الخمول والضعف الثقافى والأدبى عليه .

ويبدو أن الدكتور طه حسين كان على حق فيما رآه ، أو غلب على شعوره من أن رحلات المتنبى فى صباه من الكوفة إلى البادية[٢] ، ثم من الكوفة إلى بغداد فالشام — كانت تهدف إلى غاية سياسية تدور حول مذهب القرامطة والدعوة إلى هذا المذهب الذى ساعد على رواجه فى تلك الأيام فساد النظام الاقتصادى واختلال التوازن الاجتماعى ، وإن أفاد من رحلاته هذه علماً واكتسب رزقاً إلى جانب ما جرته عليه دعوته المشئومة من سجن وتشرد .

ولو كان المتنبى قصد بغداد مثلا يلتمس العلم والأدب والمجد الشعرى — لأقام فيها فأطال المقام[٣] ولكنه لم يلبث أن انحدر منها إلى هذا القسم من أقسام الشام الذى كان قد أدركه الاضطراب القرمطى منذ أواخر القرن الثالث كما شرحنا ذلك من قبل[٤] ، خلافاً لما يقوله الدكتور طه حسين ، من أنه لم يكن قد أدركه الاضطراب القرمطى قبل رحلة المتنبى إليه[٥] .

---

(١) ذكرى أبى الطيب ص ٥١ وذكر بلاشير أن أبا الطيب غادر بغداد سنة ٣١٨ هـ وعمره خمس عشرة سنة . انظر : Blachère p. 37 .

(٢) يقول بلاشير : إنه من المحال معرفة ما إذا كان خروج أسرة المتنبى من الكوفة إلى بادية السماوة لغرض معين أو كان اضطرارا تحت ضغط الاضطراب الناشىء من تعرض الكوفة لهجمات القرامطة . ثم يقول لعل الظروف العصيبة التى كان يعيش فيها أهل الكوفة هى السبب فى هذا الخروج . انظر : Blachére p. 28

(٣) مع المتنبى ج ١ ص ٧٣ .

(٤) يرجع إلى ما كتب فى ذلك فى الفصل الأول .

(٥) مع المتنبى ج ١ ص ٧٢ .

وعلى هذا الرأى أو ذلك الفرض الذى نميل إليه — نفهم ما كان من المتنبى من أنه ارتحل إلى الشام ، وأقام فيه دهراً بين القبائل البادية و بين المتحضرين فى المدن ، يمدح الرؤساء وسراة الناس ، كما يمدح أوساطهم وفقراءهم ، وهو فى أثناء هذا كله يمتحن أولئك وهؤلاء ، ليتبين استعدادهم للقرمطية وتهيؤهم للخروج على السلطان العباسى الذى كانوا يخضعون له فى ذلك الوقت خضوعا فيه غير قليل من التلون والاضطراب ، فإن وجد عندهم استعدادا لقبول دعوته أذاعها فيهم ، و إن لم يجد كتم عنهم أمره ، وهو فى الحالين يعيش مما يأخذ منهم ، أجراً لما يهدى إليهم من المديح(١) .

هذا إلى أن رحلة شاعر كالمتنبى فى ذلك الطور لم تكن لتشهد لهذا الإقليم بتفوق أدبى ، فالمتنبى لم يكن قد نال بعد من الشهرة قليلاولا كثيراً . وحسبك أن قدم فى طريقه إلى الشام برأس عين ـ وقد أوقع سيف الدولة بعمرو بن حابس من بنى أسد، و بنى ضبة ورباح من تميم ـ فأعد قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، أولها :

ذكر الصبا ومراتع الآرام جلبت حمامى قبل وقت حمامى

ولكنه لم يستطع أن ينشده إياها ، مع أن سيف الدولة كان ما يزال فى مقتبل العمر فى مثل سن المتنبى ، وكان ما يزال قائداً صغيرا من قواد الخليفة ، يعمل تحت إمرة أخيه ناصر الدولة الذى تولى إمارة الموصل بعد والده أبى الهيجاء .

وحسبك دليلا على كساد شعره إذ إذاك — أن على بن منصور الحاجب لم يعطه على قصيدته فيه التى أولها « بأبى الشموس الجانحات غواربا » إلا ديناراً واحدا فسميت الدينارية(٢) . وشعر المتنبى فى ذلك الطور ينحط فى جملته عن

---

(١) المصدر نفسه ص ٩٦ .
(٢) اليتيمة ج ١ ص ٩٥ .

شعره فى الأطوار التالية جميعاً . قال الواحدى : « ولو طرح أبو الطيب شعره فى صباه من ديوانه لكان أولى به[(١)] » .

ويغلب عليه فيه التقليد للشعراء السابقين ، واشتهر فى صياغته الشعرية بتقليده لأبى تمام[(٢)] خاصة فى الصنعة والإفراط فى البديع . وقد صرح الجرجانى بتقليده لأبى تمام فى ذلك الطور ، إذ يقول : « وأنا أرى لك إذا كنت متوخيا للعدل ، مؤثراً للإنصاف — أن تقسم شعره ، فتجعله فى الصدر الأول تابعاً لأبى تمام ، وفيما بعده واسطة بينه وبين مسلم[(٣)] » .

وقد غلب عليه من فنون البديع الطباق والمبالغة .

ومن شعره إذ ذاك قوله من قصيدة يمدح بها سعيد بن عبد الله الكلابى[(٤)] :

أحيا وأيسر ما قاسيت ماقتلا ... والبين جار على ضعفى وما عدلا
والوجد يقوى كما تقوى النوى أبدا ... والصبر ينحل فى جسمى كما نحلا

---

(١) شرح ديوان المتنبي للبرقوقى ج ص ٢٦٠ وقد حذف فعلا بعض هذه الأشعار وبعض أسماء ممدوحيه انظر : Blachère p. 83 .

(٢) يقول بلاشير إن أبا الطيب كان بفطرته يقلد شاعرين من القرن السابق (الثالث) هما أبو تمام والبحترى تلميذه ، وكان طول حياته يكرر قراءة ديوانيهما ويتخذ منهما مثلا يحتذيه ، ولم يكن ذلك تقديرا منه لعبقريتهما فحسب بل لأنهما فخر لعرب الجنوب . انظر : Blachère p.38

ويقول بلاشير أيضا : إن المتنبي يزعم أن أمه يمنية من بنى كلب وهو يفضل العرب على سائر الأمم ويفضل عرب الجنوب على بقية العرب ويخصهم بالشرف والنبل . المصدر نفسه ص ٢٩ .

(٣) الوساطة ص ٤٩ .

(٤) يرى بلاشير أن الممدوح بهذه القصيدة هو سعيد بن العباس الكلابى [ص ٣٩] مخالفا بذلك كما يقول الشراح الثلاثة : الواحدى والعكبرى والبريدى مستندا فى ذلك إلى إشارات فى القصيدة [ص ٣٩ هامش (١)] .

وقوله فى هذه القصيدة :

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم إذا رأى غير شىء ظنـــه رجلا
فبعده وإلى ذا اليوم لو ركضت بالخيل فى لهوات الطفل ما سعلا

وهو كما لا يخفى شعر بين الركاكة متكلف الصنعة . والمبالغة فيه قد جاوزت الحد . وأكبر الظن أن جل الوزر فى الضعف الغالب على شعر المتنبى فى هذا الطور — إنما يقع على الضعف الأدبى الغالب على بيئة شمال الشام فى ذلك الحين . وقد كان شعر المتنبى إذ ذاك — وهو مايزال فى طور التكوين — فى حاجة إلى بيئة مثقفة ناقدة تحمله على الإجادة وتستحثه على الابتكار ، كالبيئة التى وجدها فى ذلك الإقليم فيما بعد فى ظلال سيف الدولة الحمدانى .

ويبدو أن المتنبى كان يحس بغلبة الجهل على تلك البيئة فى ذلك الزمان ، مما أوحى إليه أن يشير إلى ذلك الجهل فى أكثر من موضع فى شعره . فهو يقول من قصيدة له يمدح على بن محمد بن سيار بن مكرم التميمى :

أذم إلى هذا الزمان أهيـله فأعلمهم فدم(١) وأحزمهم وغد(٢)

ويقول فى هجاء إسحق بن كيغلغ :

أتانى كلام الجـــاهل كيغلغ يجوز حزونا بيننا وسهولا

ومن أمثلة الجهل المتفشى فى هذه البيئة إذ ذاك — مارواه ياقوت فى معجم الأدباء عن علىّ بن حمزة راوية المتنبى : أنه لما مدح محمد بن زريق الطرسوسى بقصيدته :

هذى برزت لنا فهجت رسيساً ثم انثنيت وما شفيت نسيسا

---

(١) الفدم — العيى فى ثقل وقلة فهم.
(٢) الوغد الأحمق الخسيس .

وصله عليها بعشرة دراهم ، فقيل له : إن شعره حسن . فقال: ما أدرى أحسن أم هو قبيح ، ولكن أزيده لقولك عشرة دراهم ، فكانت صلته عليها عشرين درهما [١] .

و إذا بحثنا ونقبنا عن شعراء أنجبتهم مدينة حلب أو غيرها من البلاد التى تبعتها فى ظل سيف الدولة ، فى الفترة الراكدة التى سبقت عهده — أعيانا البحث وأجهدنا التنقيب ، ثم لم نعثر بعد ذلك إلا على قلة ضئيلة تؤيد ما قلناه فيما سبق ، من أن الشاعر العربى الذى يتغنى بخواطره وشعوره نادر ممعن فى الندرة فى العصور الإسلامية ، بل منذ أن اتخذ الشعر وسيلة إلى التكسب فى أواخر العصر الجاهلى ، كما تدل على أن البيئة المجردة من أبهة السلطان ونفحات الملوك والأمراء — قلما تجود بالشعر ، وتخلق الشعراء ؛ ثم هى تدل من بعد ذلك على أن بيئة حلب وما حولها فى تلك الفترة لم تكن تحيا الحياة الأدبية التى تؤهلها كثيرا للشعر الذى يتخذ وسيلة إلى انتجاع العظماء ، فهى بيئة أقرب إلى الجهل منها إلى العلم والعرفان [٢] ، وذلك لأن التيار العلمى الأدبى — كما عرفنا فى الفصل السابق — قد انحاز بوجه عام منذ عهد العباسيين إلى العراق ، ومن نبغ من الشعراء الشاميين منذ هذا العهد كان كثيرا ما يهرع إلى العباسيين ورجالهم ، ويتخذ من رحاب هؤلاء وأولئك مقاما ، فكان جل نتاجه الأدبى فى العراق لا فى الشام ، بل كان طابع ثقافته الطابع العراقى لا الشامى ، كما بدا ذلك فى شعر أبى تمام مثلا ، و إن كانت إلى جانب ثقافته العراقية ثقافة أخرى مصرية ، تلقاها فى جامع عمرو بالفسطاط . وهكذا أصيبت الحياة العلمية الأدبية فى الشام منذ عهد العباسيين بالعقم والنضوب إلى حد كبير امتد مداه على مر الأيام ، حتى ظهر ذلك جليا واضحا فى الثلث الأول من القرن الرابع [٢] .

---

(١) معجم الأدباء ج ١٣ ص ٢١٠ ، ٢١١ وذكرى أبى الطيب ص ٧٩ .

(٢) يرجع إلى Blachère p. 37 .

وإذا كانت العلوم الدينية قد أخذ الشام منها بنصيب ، فنبغ فيها أمثال مكحول والأوزاعى — فإن ذلك كان أظهر ما يكون فى جنوبى الشام، وبخاصة دمشق ، لما تتمتع به من مكانة مرموقة من قديم الزمان ، ولم يبلغ الشمال من ذلك مابلغ الجنوب .

ولقد كان لما منى به شمالى الشام من الاضطرابات الكثيرة — الأثر الكبير فى سوء حاله ، وانحطاطه العلمى والأدبى ؛ فقد اضطرب سلطانه فترة بين العباسيين والإخشيديين الذين كانوا يغيرون عليه بين حين وحين ، ثم إن الغارات بين المسلمين والروم على الحدود كانت متصلة لا تكاد تنقطع ، وكان الأمراء المتفرقون فى بادية سورية الشمالية وحاضرتها — ينزعون إلى السيادة والملك ، ويترددون بين السلطان العراقى والمصرى ، ملائمين بين منافعهم العاجلة المؤقتة وظروف إقليمهم المختلطة المضطربة[1] .

وكل هذا يدعوك — ولاريب — ألا تنتظر منا أن نوافيك بشعراء أنجبتهم هذه البيئة فى تلك الفترة الحالكة التى سبقت عهد الأمير الحمدانى الزاهر ، لولا أن البيئة الشامية بوجه عام تمتاز بميزات أصيلة تساعد على خلق الشاعرية، وتستطيع أن تتحدى صروف الأيام ونكبات الدهر : فباديته خيرمنبع لاستقاء الفصاحة[2] ، وهو قطر عريق الحضارة وقد حبته العناية الإلهية بالطبيعة الجميلة الفتانة . . وكل أولئك قد ساعد على خلق من سنوافيك بهم من شعراء ، وإن كان أثر العوامل السيئة التى سبق أن شرحناها — قد بقى واضحاً للعيان ، فيمانلحظه من قلة فى هؤلاء

---

(١) مع المتنبى ج ١ ص ١٣٤ .

(٢) قال الثعالبى « والسبب فى تبريز القوم — يعنى الشاميين — قديما وحديثا على من سواهم فى الشعر قربهم من خطط العرب ، ولا سيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق ، لمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم ، ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة . . . [اليتيمة ج ١ ص ٨] .

الشعراء من ناحية ، وفى تواضع شعر بعضهم من ناحية أخرى .

ومن هؤلاء الشعراء ذلك الشاعر الذى أنجبته منبج ، وهو أبو الغوث يحيى ابن أبى عبادة البحترى[١] — ابن البحترى الشاعر المعروف . وقد قدم إلى بغداد قبل سنة ٣٠٠ هـ ، وسمع منه وجوه أهلها وعلماؤها أشعار أبيه .

ومن شعره يمدح أبا العباس بن بسطام .

ملك تقوم له الملوك إذا احتبى   وتخر للأذقان عند قيامه
برقت مخايل جوده وتخرقت   بالنيل للعافين غر غمامه
لله أى بلاغة وبراعة   ومكائد تحتل فى أقلامه
أدهى وأخفى موضعا لمكيدة   من أن ترى الأبصار وقع سهامه
أعطى فقلنا الغيث فى إرهامه   وسطا فقلنا الليث فى إقدامه
والنيل يرجسه على مرتاده   والضيم يغلبه على مستامه
نفسى فداؤك من حميد رعية   نجمت نجوم العدل فى أيامه[٢]

---

(١) وقد مدح المتنبى عبد الله وأخاه أبا عبادة ابنى يحيى هذا . مدح الأول بقصيدتين مطلع أولاهما :

بكيت يا ربع حتى كدت أبكيكا   وجدت بى وبدمعى فى مغانيكا

ومطلع الثانية :

أريقك أم ماء الغمامة أم خمر   بفى برود وهو فى كبدى جمر

ومدح أخاه بالقصيدة التى يقول فى أولها :

ما الشوق مقتنعا منى بذا الكمد   حتى أكون بلا قلب ولا كبد

ويلاحظ أنه فى هذه القصائد الثلاث لم يذكر البحترى الشاعر جد ممدوحيه ولم يشر إليه ، ولعل هذا يلائم ما كان معروفا عن المتنبى من الإمعان فى قراءة شعر المحدثين وأدب البلغاء ولكنه مع ذلك يدعى أنه لا يقرأ ذلك الشعر ولا يحسن العلم بذلك الأدب حتى افتضح فى ذلك [مع المتنبى ص ١٠١ — ١٠٢ والصبح ص ٧٩ — ٨٠] .

(٢) معجم الشعراء ص ٥٠٢ .

وفى هذا الشعر تحس بأن ابن البحترى قد كان صورة لأبيه فى جمال الديباجة وإشراقها ، وجزالة الأسلوب وفصاحته ، وفى روح الشاعرية الجارية مع الطبع الأصيل والذوق السليم ، وتحس بعد ذلك أنه إحدى فرائد العقد الذى نظم فى سمطه أمثال العتابى وأبى تمام وديك الجن الحمصى والبحترى الذين أضفوا على العربية حللا من الشعر الرفيع ، عطروها بنفحات مجنحة ذات أريج وشذا ، وإن كانت تلك الفريدة تبدو صغيرة لا تجارى سائر الحبات فى لمعانها وإشراقها .

ومهما يكن من شىء فهذا الشاعر من خير الأدلة على أن البيئة الشامية كانت تحاول دائما أن تثبت وجودها حتى مع تضافر العوامل الطارئة عليها فى العمل على ألا يكون منها شعراء .

ومن شعراء تلك الفترة أيضا محمد بن حسن الرقى المعروف بالمعوج . وهو من أهل الرقة وقد توفى سنة ٣٠٧ هـ[١]

ومن شعره قوله[٢] فى دير زكى :

ماترى الدير ماترى أسفل الدّيـ ـرِ وقد صار وردة كالدهان

لو رآه النعمان شق عليه مايرى من شقائق النعمان

* * *

(١) نهر الذهب جـ ص ٤٨٠ .

(٢) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار جـ ١ ص ٢٦٨ . ودير زكى : دير قرب البليخ والفرات — المصدر نفسه ص ٢٦٥ . والبليخ نهر بالرقة يجتمع فيه الماء من عيون متعددة الروضيات ص ٧٣ . ونهر البليخ فى الكتب الجغرافية الحديثة يسمى : البليق ، وهو يروى سهول ديار مضر . انظر :

The Lands of the Caliphate p. 87.

وديار مضر تمتد من أعالى الفرات عند شميشاط إلى عانة على الفرات الأوسط .

[المصدر نفسه]

(ب) الشعر والشعراء فى حلب فى عهد سيف الدولة

استولى سيف الدولة على حلب فى سنة ٣٣٣ هو كما عرفنا فيما سبق . وقد صارت تلك المدينة عاصمة لدولة شملت جند حمص وجند قنسرين والثغور الشامية والجزرية وديار مضر وديار بكر ، ولم يستطع أن يستبقى دمشق فى حوزته، كما مر بنا فى الفصل الثانى .

وباستيلاء سيف الدولة على حلب يبدأ فيها للشعر عهد جديد لم يسبق لها فى التاريخ عهد مثله ، فقد وفد عليها الشعراء من كل صوب وحدب ، يلتمسون الإقامة فى ظل هذا الأمير العظيم .

(١) فما العوامل التى حفزت الشعراء إلى الوفود على حلب فى ذلك العهد ، الذى يعد من أنضر عهود الشعر التى مرت به فى جميع البيئات وفى كل العصور والأزمان ؟

سبق أن أشرنا إلى أن ضعف الدولة العباسية قد سبب انقسامها أوطانا ودويلات . واقتضى ذلك أن يكون لكل وطن ملك أو أمير ملأه الزهو ، وأراد أن يجمع لديه أسباب الملك والعظمة ، وأن يعيد إلى العلم والأدب أيامهما ، وأن يرسل اسمه علما ذائعا فى الآفاق ، وقد عرف أن الشعر خير أسباب الإذاعة ، ووسائل الشهرة ، فأغرى الشعراء بزيارته ، والإقامة فى كنفه ، وقيدهم فى ذراه بإحسانه ، وغمرهم بصلاته .

ذلك العامل السياسى الذى كان مشتركا بين أمراء الدويلات التى انقسمت إليها الدولة العباسية — كان أحد العوامل التى دفعت الشعراء إلى الوفود على حلب التى كان أميرها يضع هدف الدعاية نصب عينيه ، كما كان يضعه غيره من الأمراء .

وعامل آخر أشرنا إليه أيضاً ، وهو يرجع إلى طبيعة سيف الدولة نفسها ، تلك الطبيعة التى ورثها عن آبائه وأجداده العرب الربعيين التغلبيين ذوى التاريخ الحافل بالبطولة الفذة ، من ميل شديد إلى الفخر وطرب عظيم المدح . وكان سيف الدولة يضم إلى حسبه التليد — مجداً خطه بسيفه ، وشيده بسنان رمحه ، مما قوى هذه النزعة فى نفسه وجعله يميل بطبيعته إلى من يشيد ببطولته ، وينوه بمجده الطريف ، إلى جانب مجده التليد . ثم إن سيف الدولة قد ورث عن أصوله كذلك تلك النزعة الأدبية التى تقدر الشعر لذاته لأنه فن العرب الأعظم الذى جرى منهم مجرى الدم ، وملك عليهم حسهم ووجدانهم . فإذا أضيف إلى ذلك أن العرب بوجه عام كرماء بطبيعتهم ، وأن الكرم من أبرز صفاتهم عرفنا إلى أى حد كان سيف الدولة كريماً[1] مع الشعراء بوجه خاص .

وموجز القول فى ذلك أن سيف الدولة أمير تدفعه السياسة إلى إغراء الشعراء والإغداق عليهم ، وسيف الدولة عربى ، والعرب يغلب عليهم الكرم . وسيف الدولة ذو أصول شامخة ذات مجد عريق ، وهو نفسه بطل عظيم ، فكان حب الفخر والإشادة بالمجد الطريف والتليد باعثاً لتشجيع الشعراء والإفضال عليهم . وسيف الدولة عربى من أصول تعشق الشعر وتطرب له وذلك يدفعه إلى إكرام الشعراء وإعطائهم بسخاء .

لذلك كله كان سيف الدولة كريماً مع الشعراء كرماً منقطع النظير ، مما جعل الشعراء يفدون عليه من شتى الجهات ، ليجدوا فى كنفه العيش الرغد والحياة المستطابة .

---

(١) وكان سيف الدولة يدعى أبا الفيض لفيضه بالإحسان كما يقول ابن خالويه [ديوان أبى فراس ص ١٤٨] وفيه يقول أبو فراس من رائيته المطولة :

أبو الفيض مار الجيش حولا محرما ... وكان له جد من القوم مائر

[المصدر نفسه ص ١٢٠]

والتاريخ يحدثنا بأمثلة متعددة من كرم سيف الدولة ، تدل دلالة واضحة على مالقى الشعراء فى ظله من رعاية فائقة وعناية بالغة ، فلا نعجب بعد ذلك إذا عرفنا أن حلب فى عهده كانت ملتقى الشعراء من الشرق والغرب ، مما جعلها تكاد تفوق دمشق فى العهد الزاهر من عهود العباسيين .

فمن تلك الأمثلة ماحدث به أبو الحسن على بن محمد الهمدانى ، قال : كنت واقفا بين السماطين بين يدى سيف الدولة بحلب ، والشعراء ينشدونه ، فتقدم إليه أعرابى رث الهيئة ، فاستأذن الحجاب فى الإنشاد ، فأذنوا له فأنشد :

أنت على وهـــذه حلب قد نفد الزاد وانتهى الطلب
بهذه تفخر البلاد وبالـ أمير تزهى على الورى العرب
وعبـــدك الدهر قد أضر بنا إليك من جور عبدك الهرب

فقال سيف الدولة : أحسنت . وأمر له بمائتى دينار[1] .

وحكى ابن لبيب غلام أبى الفرج الببغاء أن سيف الدولة كان قد أمر بضرب دنانير للصلات ، فى كل دينار منها عشرة مثاقيل ، وعليها اسمه وصورته ، فأمر يوما لأبى الفرج منها بعشرة دنانير ، فقال ارتجالا :

نحن بجود الأمير فى حرم نرتع بين السعـــود والنعم
أبدع من هذه الدنانير لم يجر قديما فى خاطر الكرم

فزاده عشرة أخرى[2] .

ولما أجاز أبو فراس البيتين : لك جسمى . . . الخ — وقد سبق

---

(١) اليتيمة جـ ١ ص ١٤ و ١٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٥ .

ذكرهما وإجازتهما — أعطاه سيف الدولة ضيعة بمنبج، تغل ألفي دينار[١].

وقد لقى المتنبي في ذراه كرما وخيراً وعطاء كبيراً، فقد كان يعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار، إزاء ثلاث قصائد ينشدها إياه كل عام، كما قال أبو فراس في حديثه لسيف الدولة عن المتنبي، وهو يعمل على إيغار صدره عليه[٢]. وأعطى سيف الدولة المتنبي ضيعة بالمعرة اسمها «صف» إقطاعا له[٣].

وذكروا أن الناشيء الأحصى دخل على سيف الدولة فأنشده قصيدة، فاعتذر سيف الدولة بضيق اليد يومئذ، وقال: اعذر فما يتأخر حمل المال. فإذا بلغك ذلك فإتنا نضاعف لك جائزتك، ونحسن إليك فخرج من عنده... ثم اتفق أن حملت إلى سيف الدولة أموال من بعض الجرايات على بغال، فضاع بغل منها بما عليه، وهو عشرة آلاف دينار، وجاء هذا البغل حتى وقف على باب الناشيء وهو ببلده الأحص، فأخذ ما عليه من المال وأطلقه، ثم جاء حلب ودخل على سيف الدولة، فأنشده قصيدة يقول فيها:

ومن ظن أن الرزق يأتى بحيلة ... فقد كذبته نفسه وهو آثم
يفوت الغنى من لاينام عن السرى ... وآخر يأتى رزقه وهو نائم

فقال له سيف الدولة: بحياتى وصل إليك المال الذى كان على البغل؟ فقال: نعم. فقال: خذه بجائزتك، مباركا لك فيه[٤]. وهذه القصة وإن كان يغلب عليها الوضع، إلا أنها تحمل فى طيها حقيقة لا سبيل إلى إنكارها، تلك هى أن سيف الدولة كان كريما وكريما جدا.

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) الصبح ص ٤٦ وما بعدها.
(٣) إعلام النبلاء جـ ١ ص ٢٨٨.
(٤) المصدر نفسه و«نخبة تاريخية أدبية ...» لـكانار ص ٣٥٤، ٣٥٥ عن معجم البلدان.

والحق أن جود سيف الدولة على الشعراء كان عظيما للغاية ، حتى قال ابن نباته ، وكأنه قد ضاق ذرعا بكثرة ما ناله من عطائه :

قد جدت لى باللها حتى ضجرت بها ... وكدت من ضجر أثنى على البخل
إن كنت ترغب فى بذل النوال لنا ... فاخلق لنا رغبة أولا فلا تنل
لم يبق جودك لى شيئا أؤمله ... تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل

هذا الكرم الذى دفع إليه الباعث السياسى والباعث الوجدانى — كان العامل الأقوى فى جذب الشعراء إلى حلب ، وترغيبهم فى قصد حضرة سيف الدولة ، للاغتراف من نميره الفياض .

ومن العوامل الأخرى غير حب المال والعطاء أن صاحب الفن حبيب إليه أن يعرض فنه على من يستطيع تذوق ما فى هذا الفن من جمال ، فتلك لذة نفسية لا يشعر بها إلا أرباب الفنون . وإذا كان الفن كما يقولون تعبيرا عن الحياة — فما أسعد صاحب الفن حين يلمس صدى هذا التعبير قويا فى شخص المعبر له ، وذلك هو الذى أحسه الشعراء من صدى فنهم فى شخص سيف الدولة الشاعر الرقيق . وقد لخص لنا المتنبي ذلك فى قوله يمدح أبا بكر بن صالح الروذبارى الكاتب :

ملك منشد القريض لديه ... يضع الثوب فى يدى بزاز

وقريب من هذا ما كان يدفع الشعراء إلى حلب من حب للمنافسة فى بيئة كبيئة سيف الدولة التى كانت عامرة بالعلماء والأدباء والشعراء ، لإشباع غريزة الغلبة والتفوق ، ولنيل تقدير هؤلاء . والكثير من الناس يفضلون هذا على ربح يربحونه ومغنم ينالونه . قال الإمام الكمال بن العديم الحلبي فى تذكرته : قرأت بخط ابن جنى — قال لى المتنبي يوما : أتظن أن هذا الشعر إنما أعمله لهؤلاء

الممدوحين ؟ هؤلاء يكفيهم منه اليسير ، وإنما أعمله لك لتستحسنه[١] .

وقال الإمام العكبرى فى شرحه لديوانه : سألت شيخى أبا الحرم مكى ابن ريان الماكسى عند قراءتى عليه الديوان سنة تسع وتسعين وخمسمائة: ما بال شعر المتنبى فى كافور أجود من شعره فى عضد الدولة وأبى الفضل بن العميد ؟ فقال : كان المتنبى يعمل الشعر للناس لا للممدوح . وكان أبو الفضل بن العميد وعضد الدولة فى بلاد خالية من الفضلاء ، وكان بمصر جماعة من الفضلاء والشعراء ، فكان يعمل الشعر لأجلهم ، ولا يبالى بالممدوح . والدليل على هذا ما قاله أبو الفتح عنه فى قوله تفاوح[٢] ، لأنه لما قالها أنكرها عليه قوم حتى حققوها ، فدل أنه كان يعمل الشعر الجيد لمن يكون بالمكان من الفضلاء[٣] .

ويضاف إلى العوامل السابقة تحسن موقع حلب من البلاد ، بسبب اتساع الفتوح فى جهتها الشمالية فى عهد سيف الدولة ، مع كثرة خيراتها ورخص أسعارها ، فكان ذلك مما ساعد على جعلها منتجعا لجهابذة العلم والأدب[٤] فى ذلك العهد الزاهر من عهود الشعر فى تاريخ الأدب العربى .

* * *

هذه هى العوامل التى جعلت حلب فى عهد سيف الدولة مقصد الوفود وقبلة الآمال ، ومحط الرحال ، وموسم الأدباء ، وحلبة الشعراء . وليس بعجيب ما قيل من أنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر كما يقول الثعالبى[٥] .

---

(١) الروضيات ص ٦ .

(٢) وردت هذه الكلمة فى بيت المتنبى من قصيدة يمدح بها كافورا وذلك البيت هو :

إذا سارت الأحداج فوق نباته تفاوح مسك الغانيات ورنده

(٣) العكبرى ج١ ص ٢٤٩ .

(٤) نهر الذهب ج ١ ص ١٩٨ .

(٥) اليتيمة — مطبعة الصاوى سنة ١٩٣٤ — ج ١ ص ٤١ .

(٢) على أنه يلاحظ أن هذه العوامل التى أحدثت هذه النهضة الشعرية بوجه خاص ، والنهضة العلمية والفنية بوجه عام فى شمال الشام — كلها تمت إلى شخص سيف الدولة بسبب قريب أو بعيد . لهذا تعد هذه النهضة طارئة على شمال سورية بطروء هذا الفتى العربى على ذلك الإقليم . بل لقد كان النشاط فى حلب محصورا أو كالمحصور فى المتصلين بسيف الدولة ، لأن سيف الدولة هو الذى أنشأه ورعاه واشتراه بالمال . ولم تكن هذه النهضة العقلية والأدبية طبيعية ولا متوطنة كما أشرنا من قبل إلى ضعف الحياة العقلية والأدبية فى الفترة التى سبقت عهد سيف الدولة[١] .

ولم تكن سياسة سيف الدولة بحيث تكفل لهذه النهضة البقاء والاستمرار فقد كان سيف الدوله كما عرفنا من قبل مسرفا إلى أقصى حدود السرف فى جوائز الشعراء والأدباء من جهة ، وفى ترفه و بذخه الخاصين من جهة أخرى ، كما كان كثير الحروب ولا سيما مع الروم ، وقدعمل كل ذلك على استنزاف موارد الدوله وضياع ثروة الحمدانيين . هذا إلى أن سيف الدولة كان مستبدا برأيه غاية الاستبداد ، لأنه كان يخشى أن تتحدث نفسان أنه عمل برأى غيره كما يقول ابن مسكويه[١] مما دعا إلى فشله فى سياسته الحربية فى أواخر أيامه .

لذلك لما مات سيف الدولة ترك دولته فقيرة محطمة . وقد زادتها الخلافات بين الحمدانيين ضغثا على إبالة ، فلم تستطع أن تقاوم أطماع الروم من الشمال ، وأطماع الفاطميين من الجنوب، ولم يستطع خلفاؤه أن يحتفظوا بتلك الدولة طويلا كما ذكرنا من قبل ،ولم يتمكنوا أن يواصلوا ما بدأه هذا الأمير من نهضة فى العلم والأدب . ولم يكد يضعف سلطان الحمدانيين حتى ذوت أزهار الحضارة الحلبية

---

(١) انظر « مع المتنبى » ج ص ٣٣٦ .

(٢) نقل ذلك عنه صاحب خطط الشام ص ٢١٩ ج ١ ونقل كانار فى نخبة تاريخية أدبية ... ص ١٣٥ عن ابن الأثير كلاما بهذا المعنى [انظر ص ٥٤ هامش ٤] .

وأسرع شمال الشام فعاد أو كاد يعود إلى الحال التى كان عليها فى أوائل القرن الرابع .

لقد كان سيف الدولة يشبه فى العمل على نهضة العلم والأدب إلى الغاية القصوى — لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، مع الفرق بين العصرين والبيئتين ، ولكن عمل لويس الرابع عشر قد اتصل بعده ومازال فى نمو وعلو ، أما عمل سيف الدولة فقد زال ، أو كاد يزول — وياللأسف — بزواله . ولو ألهم سيف الدولة أن يقتصد فى نفقاته وعطاياه وأن يسير فى سياسته بشىء من الحكمة والتبصر — لاستطاع أن يعمل على نهضة ثابتة وطيدة ، يكل أمرها من بعده إلى الأجيال .

وليس معنى ذلك أن الحركة العلمية والأدبية التى قامت بقيام سيف الدولة قد لفظت النفس الأخير فى السنة التى مات فيها هذا الأمير ، فذلك أبعد مايكون عن طبيعة النهضات العلمية والأدبية ، مهما كانت طارئة ، ومهما كانت غير مستقرة ولا ثابتة ، ولكن معناه أنها وقفت وبدأت فى النقصان والزوال ، وإلا فكيف أنتجت هذه البيئة بعد سيف الدولة شاعراً من أعظم شعراء العربية وهو المعرى ؟

لقد ولد المعرى بالمعرة — وهى بلدة تابعة لحلب — سنة ٣٦٢ هـ ، بعد موت سيف الدولة بثمان سنين . فلما انتقل المعرى إلى حلب وجد آثار سيف الدولة ما زالت قائمة ، فشعر الشعراء يروى ، وتلاميذ ابن خالويه وابن جنى يروون علمهما باللغة والأدب والنحو والصرف ، وتلاميذ الفارابى يروون فلسفته . وجد المعرى كل ذلك مهيأ فاستفاد منه . وجد النـاس يروون شعر أبى الطيب ويعجبون به ، فسمع منهم ، وسمع محمد بن عبد الله بن سعد النحوى راوية أبى الطيب ، وسمع من تلاميذ ابن خالويه ، فيقول فى بعض رسائله : « حدثنى أبو القاسم المبارك عن ابن خالويه » . ولابد أن يكون قد لقى بعض تلاميذ الفارابى ،

وأخذ عنهم . وقد أقام أبو العلاء فى حلب نحو عشر سنوات ، ينهل من مواردها. فحركة الأدب واللغة والفلسفة التى أحياها سيف الدولة لها فضل على أبى العلاء وغيره من العلماء والأدباء[1]، ولم تذهب بموته فجأة كما طرأت بشخصه فجأة ، وإنما بقيت بعده حينا تختلف عليها أطوار الضعف والقوة إلى أواخر القرن الخامس ، فى أيام نصر بن محمود بن شبل الدولة بن صالح بن مرداس[2] .

٣ — أصناف الشعراء فى عهد سيف الدولة .

تمهيد : — كثر الشعراء فى عهد سيف الدولة كثرة نادرة ، فلم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء — ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر[3] . وكان من أهم العوامل كما قلنا فى كثرة هؤلاء الشعراء — كرم سيف الدولة الذى بلغ حد الإسراف ، حتى لقد حاول من لم يوهب سجية الشعر أن يقول شعرا[4] ، ليحظى بعطاء هذا الأمير الكريم الذى يقدر الشعر و يثيب عليه ، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها[5] .روى ابن حجة الحموى فى ثمرات الأوراق أن سيف الدولة انصرف من حرب — وقد نصر على عدوه — فدخل عليه الشعراء فأنشدوه، فدخل رجل شامى ، فأنشده :

وكانوا كفأر وسوسوا خلف حائط   وكنت كسنور عليهم تسقفا

فأمر بإخراجه ، فقام على الباب يبكى ، فأخبر سيف الدولة ببكائه ، فرق له ، وأمر برده ، وقال له : مالك تبكى ؟ . قال : قصدت مولانا بكل ما أقدر

---

(١) ظهر الإسلام ص ١٨٧ .

(٢) تجديد ذكرى أبى العلاء ص ١٢٣ .

(٣) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ جـ ١ ص ١١ .

(٤) يقول بلاشير : « إن الحاجة إلى الروى كانت عامة فى حلب الى حد أن كل إنسان هناك كان شاعرا فى ذلك الوقت مما حداهم أن يعدوا « بلاط » سيف الدولة مكونا من شعراء» ،

Blachére p. 132

(٥) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ جـ ١ ص ١١ .

عليه أطلب منه بعض ما يقدر عليه ، فلما خاب أملى بكيت فقال له سيف الدولة : ويلك ، فمن يكون له مثل هذا النثر يكون له مثل ذلك النظم !! وكم كنت أملت ؟ قال خمسمائة درهم . فأمر له بألف درهم ، فأخذها وانصرف[١] .

فلا عجب أن يبلغ ما اختاره كل من أبى محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب ، وأبى الحسن على بن محمد الشمشاطى من مدائح الشعراء لسيف الدولة — عشرة آلاف بيت ، كما يقول الثعالبى[٢] .

كل ذلك معروف ، وقد ذكرته أكثر من مرة باختلاف المناسبات ، والذى أبغى من تكراره هنا أنى أريد أن أقول : إنه قد كثرت أسماء الشعراء الذين اتصلوا بسيف الدولة كثرة حالت دون الإلمام بهم ، ومعرفتهم كلهم أو جلهم معرفة فيها شىء من الغناء .

وأهم المراجع التى يُرجع إليها عادة فى معرفة هؤلاء الشعراء : كتاب يتيمة الدهر للثعالبى ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ، والمؤتلف والمختلف للآمدى ، والفهرست لابن النديم .

فأما كتاب اليتيمة فإنه لا يترجم للشاعر ترجمة تشفى غلة ، وإنما يعمد غالبا إلى رصف جمل مسجوعة يقدم بها لما يختاره للشاعر من شعر ، وقد لا يقدم بشىء ، وقلما يذكر تاريخ الميلاد أو الوفاة .

وأما كتاب معجم الشعراء للمرزبانى ، وكتاب المؤتلف والمختلف للآمدى — فكلاهما يشبه إلى حد كبير كتاب اليتيمة فى ذلك . وأما فهرست ابن النديم فهو لا يتعدى أحيانا ذكر الاسم ، وقد يزيد عليه مالا يغنى الباحث

---

(١) نخبة تاريخية أدبية — كانار — ص ٣٥٠ ، ٣٥١ وإعلام النبلاء ج ١ ص ٢٨٥ ، ٢٨٦

(٢) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ ج ١ ص ١١ .

كثيرا . فهو يذكر مثلا ضمن أسماء جماعة من الشعراء المحدثين ممن ليس بكاتب بعد الثلثمائة إلى عصره — الشيظمى . ويقول عنه : « وكان يجول ، ثم انقطع إلى سيف الدولة ، وقد عمل شعره قبل موته ، ومقداره نحو خمسمائة ورقة[1] » . ولـكن من الشيظمى ؟ متى ولد ؟ متى توفى ؟ من أى بلد هو ؟ لا ندرى . إنه من شعراء سيف الدولة ، وكفى . فإذا رجعنا إلى اليتيمة عرفنا أنه يكنى بأبى القاسم ، وأن من شعره قوله[2] يصف نمرقة رآها بجنب سيف الدولة :

نمرقة منها استعا رالروض أصناف الملح

فيها لمن يبصر من ريش الطواويس ملح

كأنما دارت على سمائها قوس قزح

ثم لا نستطيع بعد ذلك أن نعثر على مصدر آخر يزيد الباحث علما بأبى القاسم الشيظمى هذا .

وقد عمد الأستاذ محمد كرد على إلى جمع شعراء القرن الرابع الهجرى فى الشام ، ومنهم شعراء سيف الدولة — فى الجزء الرابع من الخطط ، فى باب العلم والأدب . وقد ذكر كثيرا من الأسماء استقاها فى أغلب الظن من المراجع الثلاثة السابقة . وقد كنت أظن أن وراء كل من هذه الأسماء ذخيرة أدبية ، أستطيع أن ألم بها بعد البحث والاستقصاء ، ولـكنى آخر الأمر قد آمنت بأن الـكثير من تلك الأسماء لا يعرف التاريخ عنه إلا قليلا ، وعرفت أخيرا أن كثرة الشعراء فى ظل سيف الدولة قد جنت على جانب كبير منهم ، فحشرتهم فى زمرة النـكرات الشعرية ، فقد كان إلى جانب الشعراء المشهورين عشرات من الشعراء المغمورين الذين لم تعن بهم المصادر الأدبية والتاريخية عناية كبيرة ، تغنى فى معرفة أخبارهم وأشعارهم . على أن الحق يدعونا أن نقول : إن ذلك لم يكن

(١) الفهرست ص ٢٤٠ .

(٢) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ جـ ١ ص ٨٥ .

خاصا بالشعر فى ظل سيف الدولة ، بل لم يكن خاصا بالشعر فى القرن الرابع كله ، وإنما يسبقه قليلا إلى القرن الثالث . ففى هذين القرنين أوشك أن يكون كل متعلم متأدب شاعرا ينظم الأبيات والمقاطع فى بعض أغراض الشعر . فالخلفاء ينظمون للغزل والغناء ، والأمراء والوزراء والقواد والكتاب والقضاة — سواء منهم الفرس والعرب — كانوا يتطارحون الأشعار ، ويحفظون منها الشىء الكثير . لذلك قد عاش فى هذين القرنين كثرة فائقة من قالة الشعر المحسنين وغير المحسنين ، والمحترفين وغير المحترفين[1] .

ومهما يكن من شىء فلا ضير علينا إذا قصرنا أمثلتنا فى أصناف الشعراء على الشعراء المشهورين أو ما يقربون من الشهرة ، فليس يجدى أن يذكر اسم شاعر ، لا نعرف عنه غير اسمه أو بعض أبيات من شعره ، وإن كنا سنضطر إلى ذلك أحيانا — استيفاء لما سنتبعه من تصنيف الشعراء فى ظل سيف الدولة أصنافا .

أصناف الشعراء

أولا — شعراء كانوا فى البلاد التى وقعت فى حوزة سيف الدولة ، أى فى سوريا الشمالية وما يجاورها ، مما استظل بظل سيف الدولة . ومن هؤلاء :

الصنوبرى . وهو من أهل أنطاكية[2] ، وكانت له بمدينة حلب حديقة بها قصر فخم ، حوله الغروس والرياحين وشجر النارنج[3] ، ولذلك سمى بالحلبى .

وكان الصنوبرى صغيرا فلم ينل مكانا فى كتاب الأغانى ، وكان مسنا فلم ينل مكانا فى يتيمة الدهر . وقد رتب الصولى شعره على حروف الهجاء ، وجمعه

---

(١) ابن الرومى — الأستاذ العقاد — ص ٤٤ . وكلام الأستاذ العقاد خاص بكثرة الشعراء فى القرن الثالث .

(٢) الفهرست ص ٢٣٩

(٣) الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٤٣١ .

فى مائتى ورقة[١] . وجمع الشيخ محمد راغب الطباخ من شعر الصنوبرى حوالى ستمائة بيت فى كتابه الروضيات . وفى معهد مخطوطات بالجامعة العربية شريط مصور عليه الجزء الثانى من ديوان الصنوبرى . وقد نقل هذا الجزء عن نسخة خطية عثر عليها بمكتبة الجمعية الأسيوية بكلكتا .

ومهما يكن من شيء فإن شعر الصنوبرى لم يصل إلينا كاملا ، وإن كان ما وصل إلينا منه يقدم إلينا صورة واضحة لشاعرية الصنوبرى وطابعها . وكان الصنوبرى من خزنة كتب سيف الدولة[٢] ، ولم تطل حياته فى رحاب سيف الدولة فى حلب ، إذ لم يعش فى ظله هناك إلا حوالى العام ، فقد توفى سنة ٣٣٤هـ[٣] ، وسيف الدولة لم يُكَوِّن ملكه بحلب إلا سنة ٣٣٣هـ ، ولكن صلة الصنوبرى بسيف الدولة أقدم من دولة الحمدانيين فى حلب ، وله فيه مدائح تشيد بفضله فى غزو الروم ، وقد عرفنا فيما سبق أن الحمدانيين قد تصدوا الغزو الروم منذ قام ملكهم فى الجزيرة ، ومن قبل أن تكون لهم فى حلب دولة ومُلْك .

ومن مدائح الصنوبرى لسيف الدولة قوله[٤] :

أيا ابن القائمين بكل دهر إذا قعدت ولم تقم الدهور
متى عد الكواكب من معد فإنكم شموس لا بدور
تركت الروم بعضهم قتيل يمج دما وبعضهم أسير
ولما طار بأسك أمس فيهم هفوا جزعا كما تهفو الطيور

---

(١) الفهرست ص ٢٤٠

(٢) ارجع إلى مطالع البدور ج ٢ ص ١٧٦ .

(٣) الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٤٣٠ .

(٤) قافية الراء من ديوان الصنوبرى المصور بمعهد مخطوطات الجامعة العربية .

فقد ماتوا وما قبروا ولـكن ... كأن بيوتهم لهم قبور

لسيف الدولة السيف الذى لـ ... منايا فى غراريه زئير

على أن الصنوبرى قد غلب على شعره اتجاه خاص هو وصف الطبيعة من رياض ونور وطيروما شاكل ذلك ، وقد ظل ذلك الاتجاه غالبا عليه حتى مات . يقول ابن رشيق[1] : « لابد لـكل شاعر من طريقة تغلب عليه ، فينقاد إليها طبعه كأبى نواس فى الخمر . . . والصنوبرى فى ذكر النور والطير . . ». ويقول الخوارزمى[2] : « من روى حوليات زهير ، واعتذارات النابغة . . . وروضيات الصنوبرى . . ولم يخرج إلى الشعر فلا أشب الله قرنه » : وقد عده آدم متز شاعر الطبيعة الأول[3] .

ومعنى ذلك أن الصنوبرى كان أثرا من آثار البيئة الشامية الجميلة ، وأن أثر البيئة السيفية الطارئة بالنسبة إليه كان محدودا ، بل إن أثر الصنوبرى من جانب أنه شاعر من شعراء الطبيعة — فى الشعر فى ظل سيف الدولة — أكثر ولا ريب من تأثره هو بذلك الظل ، فلقد تأثر به فى فنه كثير من شعراء سيف الدولة بل تأثر به كثير من شعراء القرن الرابع جميعا ، بل إن الصنوبرى ليعد ركنا من أركان نهضة الشعر الذى ينحو منحى وصف الطبيعة فيما تلاه من عصور .

وكان الصنوبرى يسمى حبيبا الأصغر لجودة شعره كما يقول ابن رشيق[4] .

(٢) الناشىء الأحصى : وهو من الأحص إحدى كور حلب[5] . وقد سبق أن ذكرنا قصته مع سيف الدولة فى الـكلام عن جوده .

---

(١) العمدة ج ١ س ١٩٤ .

(٢) مطالع البدور ج ١ س ٢١٤ .

(٣) الحضارة الإسلامية ج ١ س ٤٣٤ .

(٤) العمدة ج ١ س ٦٤ .

(٥) ارجع الى معجم البلدان ج ١ س ١٣٥ .

(٣) النامى : وهو أبو العباس أحمد بن محمد الدارمى المصيصى[١] المعروف بالنامى . وهو من خواص شعراء سيف الدولة ، وكان عنده تلو المتنبى فى المنزلة والرتبة — كما يقول الثعالبى[٢] . وله مع المتنبى وقائع ومعارضات . وتوفى بحلب سنة ٣٩٩ هـ ، وقيل سنة ٣٧٠ هـ أو سنة ٣٧١ هـ[٣] .

(٤) الخليع الشامى : وهو الغمر بن أبى الغمر . قرشى فيما يقال ، وكان شاعرا خبيثاً ، وحدث بينه وبين عامر السكبى لحاء وهجاء ، كما يقول الآمدى[٤] . وذكره ابن النديم ، قال : «الخليع الرقى ويقال حرانى إلا أنه من تيك النواحى واسمه محمد بن أبى الغمر القرشى . شاعر مجود ، يسلك فى شعره التجنيس والطبيق وقلما خلا بيت له من ذلك ، وشعره غير معمول · نحو ثلثمائة ورقة . وقيل إن بعض الأدباء فى عصرنا عمله على الحروف ، واختار قطعة من شعره أبو محمد المهلبى[٥] » .

وواية ابن النديم لاسم الخليع لاتختلف عن رواية الآمدى سوى أن الأول يذكره باسم «الغمر بن أبى الغمر القرشى » والثانى يذكره باسم محمد بن أبى الغمر القرشى» . ولعل اسمه كان محمدا الغمر بن أبى الغمر ، فذكر أحدهما محمدا ، وذكر الآخر الغمر .

ويبدو أن اسمه لم يكن معروفا على التحقيق ، وصاحب اليتيمة يقول : أما الخليع فكنيته أبو عبد الله ، وقد ذهب عنى اسمه[٦] .

وقد أدرك الخليع زمان البحترى ، وعاش إلى أيام سيف الدولة ، فانخرط

---

(١) المصيصى بكسر الميم والصاد المشددة نسبة إلى المصيصة مدينة على ساحل بحر الروم تجاه طرطوس [ابن خلكان ج ١ ص ٦٧ ، ٦٨] .

(٢) اليتيمة طبعة سنة ٢٩٣٤ ج ١ ص ١٩٠ .

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٦٧ .

(٤) المؤتلف والمختلف ص ١١٤ .

(٥) الفهرست ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٦) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ ص ٢٣٤ :

فى سلك شعرائه ، بعد أن أخذت منه السن العالية وثقلت عليه الحركة[١] .

وهو بوصفه من الرقة يكون أحد شعراء البلاد التى تبعت سيف الدولة ، وكانت ضمن إمارة الحمدانيين فى حلب .

هؤلاء الشعراء وأمثالهم قد عاشوا قبل سيف الدولة فى البيئة التى صارت تحت حكمه فيما بعد ، وإذ ذاك عاشوا فى ظلاله ، و بقى شعرهم شاميا أو حلبيا خالصا بوجه عام . وإذا كانت البيئة الحلبية قد تأثرت بظلال سيف الدولة — فقد تأثروا هم أيضا مع البيئة ، لأنهم منها ، كما يتأثر النبات بما يوضع فى الأرض من سماد، تتمثله فيصير من تربتها وعناصرها .

ثانيا : شعراء وافدون على حلب من جنوب الشام مما كان خارجا عن حوزة سيف الدولة ، باقيا تحت ظلال الإخشيديين .

والمقصود بجنوب الشام ذلك القسم الذى يبدأ من دمشق إلى الجنوب ، و إن كانت دمشق هذه قد خضعت لسيف الدولة زمانا لم يطل ، كما أشرنا إلى ذلك فى الكلام عن سيف الدولة ، فى الفصل الثانى من هذا البحث .

ومن هؤلاء الشعراء :

(١) الوأواء الدمشقى : وهو أبو الفرج محمد بن أحمد الغسانى الدمشقى ، الملقب بالوأواء . كان أول أمره مناديا فى دار البطيخ بدمشق ينادى على الفواكه ، وما زال يشعر حتى جاد شعره[٢] ، وقد اتصل بسيف الدولة ومدحه ونال جوائزه ، وتوفى حوالى سنة ٣٩٠[٣] هـ وطبع ديوانه أخيرا الأستاذ سامى الدهان ، طابع ديوان أبى فراس . وأكثر شعره مقطوعات فى الخمر والغزل .

(٢) كشاجم : وهو أبو الفتح محمود بن الحسين بن السندى بن شاهك المعروف بكشاجم . هندى الأصل[٤] ، وهو من أهل الرملة ، وكان طباخا لسيف

---

(١) المصدر نفسه . (٢) المصدر نفسه .

(٣) فوات الوفيات حـ ١ ص ١٤٩ .

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية — جورجى زيدان — جـ ١ ص ٢٥١ .

الدولة[١] . وله ديوان مطبوع فى بيروت سنة ١٣٤٣[٢] هـ . وكان كشاجم صديقا للصنوبرى سائرا فى طريقه[٣] ، فقد غلب عليه شعر الطبيعة كالصنوبرى ، وهو أحد شعراء سيف الدولة الذين صوروا الطبيعة الشامية خير تصوير ، وإن كان قد تغنى أيضا بطبيعة مصر التى زارها ، وجال فى ربوعها ، وتعلق بمشاهدها الفاتنة ، وكان له بين أهلها إخوة يحن إليهم ويأسى للبعد عنهم[٤] . وكشاجم لقبه كلمة مركبة تدل على نواحى فضله ، فالكاف من كاتب ، والشين من شاعر ، والألف من أديب ، والجيم من جواد ، والميم من منجم[٥] ، وهكذا كان كشاجم كاتبا شاعرا أديبا منجما . وله مؤلفات منها كتاب أدب النديم ، وخصائص الطرب ، والمصايد والمطارد[٦] . وتوفى كشاجم سنة ٣٥٠ هـ[٧] .

* * *

وهؤلاء الشعراء ومن على شاكلتهم بقى شعرهم فى ظل سيف الدولة شاميا بالمعنى العام ، وإن تأثر بالبيئة الشامية الخاصة وهى البيئة الحلبية السيفية .

ثالثا — شعراء وافدون من الأقطار الأخرى .

وهؤلاء كثير منهم عراقيون ، والقليل منهم مصريون . فأما العراقيون فمنهم من وفد إلى الشام وتنقل بين ربوعه من قبل أن تكون لسيف الدولة دولة فى حلب . ولا نكاد نعرف من هذا الصنف غير شاعر واحد هو المتنبى .

والمتنبى هو أبو الطيب أحمد بن الحسين ، من أهل الكوفة . قدم إلى الشام فى صباه ، وجال فى أقطاره ، واشتغل بفنون الأدب ، ومهر فيها ، وكان من

(١) ظهر الإسلام حـ ١ ص ١٨٥ . وشعر الطبيعة ص ٢١٢ .
(٢) تاريخ أدب اللغة العربية — جورجى زيدان — حـ ٢ ص ٢٥٢ .
(٣) الحضارة الإسلامية ص ٤٣٥ . (٤) شعر الطبيعة ص ٢١٧ .
(٥) ظهر الاسلام حـ ١ ص ١٨٥ . (٦) المصدر نفسه .
(٧) دائرة معارف القرن العشرين حـ ٨ ص ١٢٩ .

المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها ووحشيها ، ولا يسأل عن شيء من ذلك إلا استشهد بكلام العرب من النظم والنثر كما ذكرنا آنفا . ويزعم بعض أهل الأدب أنه ادعى النبوة لما كان بالبادية ، وكثر أتباعه وأشياعه ، وقد سجن من أجل ذلك . وفى هذا كلام كثير ليس هذا مجاله . ولما خرج من السجن هام على وجهه فى البلاد متكسبا بشعره ، حتى اتصل بأبى العشائر والى سيف الدولة على أنطاكية ، وقد قدمه أبو العشائر هذا إلى سيف الدولة لما قدم أنطاكية سنة ٣٣٧ هـ فانقطع المتنبى إليه ، لا يمدح أحدا سواه نحو تسع سنين . وكان جملة ما قاله فيه يعادل ثلث شعره ، وهو من عيون قصائده ، ولباب مدائحه . ثم كانت أمور اضطر من أجلها أن يهجر سيف الدولة فقصد كافورا ، وأقام عنده مدة ، ثم فر إلى الكوفة ، ثم رحل إلى بغداد ، وهناك راسله ابن العميد من أرجان ، فسار إليه ومدحه ، ثم اتصل بعضد الدولة بشيراز ، ثم ارتحل من شيراز فقتل فى الطريق سنة ٣٥٤ هـ .

وله ديوان كبير اعتنى العلماء بجمعه وشرحه ، ولم يظفر شاعر من شعراء العربية بمثل ما ظفر به المتنبى من العناية والدرس .

ومنهم الوافد من العراق مع دولة سيف الدولة أو فى أثناء قيامها ، ومن هؤلاء :

(١) أبو فراس الحمدانى — وهو الحارث بن أبى العلاء سعيد بن حمدان ابن عم سيف الدولة . ولد سنة ٣٢٠ هـ فى الموصل ، من أم رومية . وبعد ثلاث سنوات قتل أبوه غدرا ، قتله ناصر الدولة أخو سيف الدولة ، فحاطه سيف الدولة ابن عمه وزوج أخته — بالرعاية والعطف .

ولما استولى على حلب واستقل عن أخيه ناصر الدولة سنة ٣٣٣ هـ ، وانتقل بأسرته — انتقل معه بنات عمه وأبناء عمه ، وفيهم أبو فراس ، وهناك تولاه الفرسان يدربونه على أساليب الفروسية ، وأخذه المعلمون بأسباب الثقافة ، وفيهم

أنوذر الشاعر وابن خالويه اللغوى . وحلب إذ ذاك كبغداد فى أوج مجدها ، ودمشق فى ذروة عزها ، يقصد اليها الكتاب والشعراء والفلاسفة والموسيقيون ، حتى إذا بلغ السادسة والعشرين قلده سيف الدولة منبج وحران وأعمالها جميعا .

وقد خاض غمار الحرب مع الروم طورا تحت إمرة سيف الدولة ، وطورا قائد فيالق العرب . وقد وقع فى أسر الروم مدة ، قال فيها غرر شعره المعروفة بالروميات . ولما مات سيف الدولة خرج أبو فراس على ابنه أبى المعالى ، يريد أن يستقل بمدينة حمص ، وانتهى الأمر بقتله سنة ٣٥٧ هـ فى السابعة والثلاثين من عمره [١] .

(٢) السرى الرفاء — وهو الحسن السرى بن أحمد بن السرى الكندى . ولد بالموصل ونشأ فيها ، وكان فى صباه يرفو ويطرز فى دكان بالموصل ، وهو مع ذلك يتولع بالأدب ، وينظم الشعر حتى جاد شعره ، فقصد سيف الدولة ابن حمدان بحلب ومدحه وأقام عنده مدة ، ثم انتقل بعد وفاته إلى بغداد ، ومدح الوزير المهلبى وجماعة من رؤسائها . وكان بينه وبين الخالديين الموصليين الشاعرين معاداة ، فادعى عليهما سرقة شعره وشعره غيره .

وللسرى مؤلفات ، منها كما يقول ياقوت [٢] : كتاب الديرة ، وكتاب المحب والمحبوب ، وكتاب المشموم والمشروب . وفى يتيمة الدهر طائفة حسنة من أشعاره ، وديوانه مطبوع فى مصر ، وتوفى سنة ٣٦٢ هـ على أرجح الأقوال [٣] .

(٣) و (٤) الخالديان — وهما أبو بكر محمد بن هاشم ، وأبو عثمان سعيد بن هاشم أخوان من الخالدية — قرية من قرى الموصل . وكانا شاعرين اشتركا

---

(١) مقدمة ديوان أبى فراس اسامى الدهان وابن خلكان جـ ١ ص ٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢٢٦ .

(٢) معجم الأدباء جـ ١١ ص ١٨٥ .

(٣) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٦٠ .

فى كثير من الشعر ، ونسب إليهما معا . وكلاهما من خواص سيف الدولة وخزانة كتبه[(١)] .

وكانا مغرمين بالسطو على شعر غيرهما . يقول ابن النديم[(٢)] . « وكانا إذا استحسنا شيئا من الشعر غصباه صاحبه حيا أو ميتا ، لا عجزا منهما عن قول الشعر ولكن كذا كانت طباعهما » .

ولهما من الكتب كتاب حماسة شعر المحدثين ، وكتاب فى أخبار أبى تمام ومحاسن شعره ، وكتاب أخبار الموصل ، وكتاب فى أخبار شعر ابن الرومى ، وكتاب اختيار شعر البحترى ، وكتاب اختيار شعر مسلم بن الوليد[(٣)] ، هذا فوق ما لهما من أشعار . قال صاحب الفهرست : « وقد عمل أبو عثمان شعره وشعر أخيه قبل موته ، وأحسب غلاما يعرف برشأ . عمله أيضا نحو ألف ورقة[(٤)] » . وفى اليتيمة بعض من شعر كل منهما على حدة..

وقد توفى أبو بكر محمد سنة ٣٨٠ هـ تقريبا ، وأبو عثمان سعيد حوالى سنة ٤٠٠ هـ[(٥)] .

(٥) أبو الفرج الببغاء — وهو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومى ، من أهل نصيبين ، وكان فى عنفوان أمره وريعان شبابه متصلا بسيف الدولة — كما يقول الثعالبى — ثم تقلبت به بعد وفاة صاحبه الأحوال فى وروده الموصل وبغداد ، ومنادمته بهما الملوك والرؤساء ، وإخفاقه مرة وإنجاحه أخرى[(٦)] .

---

(١) فوات الوفيات حـ ٢ ص ٢٧١ .
(٢) الفهرست ص ٢٤١ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) المصدر نفسه .
(٥) فوات الوفيات حـ ٢ ص ٢٧١ .
(٦) اليتيمة — مطبعة حجازى سنة ١٩٤٧ — جـ ١ ص ٢٣٦ .

ولقب بالببغاء لحسن فصاحته ، وقيل للثغة كانت فى لسانه . وهو ممن جمع بين الشعر والإنشاء ، وقد أورد له صاحب اليتيمة طائفة من نثره ونظمه . وتوفى سنة ٣٩٨[1] هـ .

(٦) ابن نباته السعدى — وهو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد ابن نباتة . من سعد من تميم ، نشأ فى بغداد ، وطاف البلاد ، ومدح الملوك والرؤساء وله فى سيف الدولة غرر القصائد ونخب المدائح ، وقد أورد له صاحب اليتيمة نخبة صالحة من شعره وتوفى سنة ٤٠٥ ببغداد ، عن ٧٨ سنة[2] .

(٧) الزاهى — وهو أبو القسم على بن إسحق البغدادى ، المعروف بالزاهى . ولد سنة ٣١٨ هـ . وقد ذكره الخطيب فى تاريخ بغداد ، وأشار إلى أنه كان قطانا .

أكثر شعره فى أهل البيت ومدح سيف الدولة والوزير المهلبى وغيرهما من رؤساء عصره . وتوفى سنة ٣٥٢ هـ ببغداد[3] .

(٨) الناشىء الأصغر — وهو أبو الحسن على بن عبد الله بن وصيف المعروف بالناشىء الأصغر الحلاء . وكان جده وصيف مملوكا ، وأبوه عبد الله عطاراً فى بغداد .

وقد ولد الناشىء سنة ٢٧١ هـ ، وسمى بالحلاء لأنه كان يعمل حلية من النحاس .

وكان متكلما بارعاً ، أخذ علم الكلام عن أبى سهل إسماعيل بن على بن نوبخت ، وكان من كبار الشيعة ، وله فى آل البيت قصائد كثيرة .

---

(١) ابن خلكان حـ ١ ص ٥٣٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٢٨ و ٥٢٩ .

(٣) المصدر نفسه حـ ٢ ص ٤٩ .

وهو مع ذلك كثير المجون والمزاح ، وكان يخلط بجده ومناظراته هزلا مستملحاً ومجونا مستطابا[١] .

وقد قصد سيف الدولة بحلب ومدحه ونال جوائزه ، ثم ودعه مادحاً وتوفى سنة ٣٦٦ أو سنة ٣٦٥ ﻫ على خلاف فى ذلك[٢] .

هؤلاء هم أهم الشعراء العراقيين الذين وفدوا على حلب فى عهد سيف الدولة .

وأما الشعراء المصريون فهم على قلتهم نكاد لا نعرف عنهم ولا عن نشأتهم شيئاً ذا غناء . ولقد كانوا أجدر بالترك منهم بالذكر ، كما تركنا الكثير من شعراء سيف الدولة لهذه العلة ، ولكن إتماما للتقسيم الذى سلكناه فى بيان أصناف الشعر — اضطررنا إلى ذكر بعضهم . فمن هؤلاء : —

(١) المغنم المصرى ، واسمه أبو الحسن محمد بن سلمى الشيبانى . ذكره صاحب الفهرست ، وقال : إنه من شعراء سيف الدولة[٣] .

(٢) ابن أبى الجوع — وهو عبد الله بن محمد بن أبى الجوع أحد رواة المتنبى وأصحابه العلماء ، وممن تمهر فى لغات العرب ، وأجاد أنواع الأدب — كما يقول صاحب اليتيمة[٤] .

(٣) أبو على صالح بن رشدين الكاتب ، أحد أئمة الكتاب المهرة فى سائر الآداب . صحب المتنبى وروى شعره[٥] . وفى اليتيمة شىء من شعره .

وقد ذكر الأخيرين الدكتور سعد أطلس فى كتيبه « مصر والشام

---

(١) معجم الأدباء ﺣ ١٣ ص ٢٨٣ .

(٢) ابن خلكان ﺣ ٢ ص ٤٩ .

(٣) الفهرست ص ٢٤٠ .

(٤) اليتيمة ﺣ ١ طبعة سنة ١٩٣٤ ص ٣٥٣ .

(٥) المصدر نفسه ص ٣٥٧ .

فى الغابر والحاضر » فقال : « ومن شعراء مصر الذين جاءوا بلاط سيف الدولة ابن أبى الجوع وابن رشدين ، وكان سيف الدولة يغدق عليهما من عطاياه »[١].

هذه معلومات ضئيلة عن هؤلاء الشعراء المصريين ، ولا نكاد نعرف عنهم أكثر من ذلك ، وقد اضطررنا مع هذا إلى ذكرهم للعلة التى أسلفناها ، وتلك هى أن نبين أن من الشعراء الذين وفدوا على سيف الدولة من كانوا مصريين .

* * *

وطبيعى أن شعر الشعراء الوافدين سواء أكانوا من جنوب الشام أم كانوا من الأقطار الأخرى — لا يحسب كله على بيئة سيف الدولة ، وإنما الذى يحسب منه هو الذى قيل فى الفترات التى قضاها هؤلاء الشعراء فى حلب فى الأغراض المختلفة . ويمكن تعيين هذا الشعر بالنسبة لبعض الشعراء كالمتنبى ، وكأبى فراس الذى يحسب شعره كله على بيئة سيف الدولة ، وإن كان وافدا على حلب ، لأن أبا فراس كما عرفنا لم تكن سنه تتجاوز الثالثة عشرة حين قدم حلب مع سيف الدولة . فبعيد جدا أن يكون له شعر فى البيئة العراقية — منشئه الأول — قبل أن يرحل إلى حلب .

وليس ذلك التعيين ميسوراً فيما يتعلق بمعظم هؤلاء الشعراء . على أن الذى يمكن أن يقطع بأنه محسوب على بيئة سيف الدولة من شعر الشعراء الوافدين جميعاً — هو :

(١) الشعر الذى قيل فى مدح سيف الدولة أو غيره من أعوانه .

(٢) الشعر الذى يصف حروبه ، أو يدور حول تلك الحروب .

---

(١) مصر والشام ص ٦٠ .

(٣) الشعر الذى قاله هؤلاء فى وصف البيئة الحلبية .

* * *

وحيث إننا قد تعرضنا أخيراً لبيان الشعر الذى يحسب على بيئة سيف الدولة من شعر الشعراء الذين زخرت بهم حلب فى ذلك العصر — فلا بد قبل أن ننتهى من هذا الفصل ، أن نحاول الإجابة عن سؤال يعرض لنا فى هذا المقام - ذلك هو : إلى أى حد يكون الشعر مصدراً تاريخياً لهذه الفترة من تاريخ حلب ؟ ونحن نجيب عن هذا السؤال فيما يلى :

من المسلم به أن الأدب مرآة صادقة للحضارة ، فكثيراً ما جلى الشعراء فى شعرهم نواحى من المجتمع لم يعرض لها غيرهم ، وكثيراً ما صور الشعراء أحداثاً ، خفيت تفاصيلها ، وجانب الحق فيها نفراً من المؤرخين . وأصدق الشعر فى وصف الحقيقة هو ماساير الحوادث واستلهم الوقائع[1] .

والحياة الاجتماعية فى ظل سيف الدولة يمكن أن تلخص — على ما عرفنا من تاريخه السابق — فى مظهرين :

(١) مظهر الترف المسرف وما يتبعه من مجون ، له ولرجاله من الأمراء والقواد وسائر أرباب المناصب فى دولته . وقد شارك فى هذا الترف من اتصل به من الشعراء الذين التفوا حوله ، ليكسبوا المال ويغنموا الجاه .

(٢) مظهر الفقر المدقع للرعية المسخرة المسلوبة أموالها ، والتى ترزح تحت أعباء السيطرة والظلم والاستبداد .

وأما الحياة السياسية فلقد كان أجلى مظاهرها هو الصراع الدائم ، والحرب المستمرة ، ولا سيما حروب سيف الدولة مع الروم .

وإذا نظرنا إلى الشعر فى دولة حلب فى ذلك العصر وجدناه يسجل من

---

(١) استخدام المصادر ص ٦٨ .

الحياة الاجتماعية ذلك الجانب اللاهى الذى يتجلى فى الغزل بالمذكر والمؤنث ، وفى التغنى بجمال الزهر وجمال الطبيعة ، وفى وصف الخمر ومجالس الشراب ، وما إلى ذلك مما يصور جوانب الترف والنعيم . ونظرة فى كتاب يتيمة الدهر للثعالبى كفيلة بتأييدنا فيما نقول من أن الشعر قد صور تلك الحال خير تصوير . وأما جانب البؤس والفقر فإن الشعر يسكت أو يكاد عن تصويره .

وذلك أمر طبعى فى ظل أمير كسيف الدولة كان يغدق على الشعراء بغير حساب . فمتى استطاع إنسان أن يقول شعرا فى ظل ذلك الأمير — فقد أقبلت الدنيا عليه ، وانقطع لسان شكواه من البؤس والحرمان .

ولقد كانت النزعة الفردية فى ذلك الزمان سائدة طاغية على النفوس والقلوب . وقليل من الشعراء إذ ذاك من كان يلتفت حواليه ، ليصور ما يسود المجتمع من ألوان الضنك والإقتار . وإذا كان هؤلاء الشعراء يجدون النعمة والرخاء فى ظلال سيف الدولة الذى أسرف فى الإغداق على كل من قال شعراً — فلماذا يشكون الفقر ورثاثة الحال ، وهم أثرون ، يقولون الشعر لولى نعمتهم ، ويقولونه لأنفسهم ، تصويراً للذاتها ومجونها ، ولا يعنيهم أن يلتفتوا إلى تصوير نواحى البؤس ، وما كان يرزح تحت أعبائه غيرهم من ألوان الحرمان وشظف العيش ؟ هذا إلى أن معظمهم كانوا طارئين على حلب ، فلم يكن يعنيهم من أمر ذلك البلد شىء . إنما جاءوا لغاية هى المال ، وقد أصابوه ، فعلى الدنيا العفاء .

لقد كان الشعر فى ظل سيف الدولة شعراً بلاطيا ، يعيش فى كنف سيف الدولة ، ويضمه فسطاطه ، ولا تكاد عيناه تتفتحان لترنا شيئاً مما يبعد عن هذا البلاط وذلك الفسطاط قليلا أو كثيراً . وكذلك كان الشعر العربى بوجه عام منذ ألقى بنفسه فى أحضان الملوك والأمراء يستجديهم ويستندى أكفهم .

ومهما يكن من شيء فإن إغفال الشعر السيفى لهذه الناحية الشعبية يدل على ما لقيه الشعراء فى ظل سيف الدولة من رعاية ، لم تسكن فى أى إقليم آخر من الأقاليم التى كانت تحت ظلال الأعاجم ، وإلا فلم كثر أدب الحرمان شعرا ونثرا فى ظلال بنى بويه[1] ، مع أن هؤلاء كانوا أكثر الأعاجم تقديرا للأدب وأهله ؟ ألانهم كانوا أكثر ظلما وعسفا من سيف الدولة ؟

قد يكون ذلك ، ولكن ليس هذا هو العلة ، وإلا فقد كنا ننتظر أن يوجد أدب الحرمان فى ظل سيف الدولة ، ولا بأس بأن يكون أقل مما وجد فى ظلال البويهيين . فأما أن ينعدم أو يكاد فلذلك علة أخرى هى أن هذا الأمير الحمدانى العربى قد قطع ألسنة جميع الشعراء فى ظله بالعطاء ولم يجاره فى ذلك هؤلاء الأمراء الأعاجم ولم يلحقوا بغباره فى هذا المضمار .

على أن جور سيف الدولة قد يكون له فيه ما يبرره أحيانا ، إذ كان محتاجا إلى المال فى القيام بحروبه المتواصلة مع الروم ، فكثير من الأموال المغصوبة كانت تنفق على الجند والسلاح وفك الأسرى ، وتلك غاية نبيلة تغمض من أجلها العيون على القذى ، فى سبيل الدفاع عن الوطن وحوزة الدين ، وصد غارات الأعداء الطامعين . وكان كثير من أفراد الرعية المجندين يلقون من عطف سيف الدولة ما يلقاه غيرهم من الشعراء المحترفين .

وأما الحياة السياسية وما طبعت به من طابع الحرب ولا سيما حرب سيف الدولة مع الروم فقد صورها الشعر خير تصوير ، ولا سيما قصائد الشاعرين اللذين رافقا سيف الدولة إلى ميدان القتال ووصفا غزواته — المتنبى وأبى فراس .

فأما المتنبى فقد كان فارسا ، وقد اكتسب الفروسية من حياته البدوية التى

---

(١) فصل ذلك الأستاذ الزهيرى فى كتابه (الأدب فى ظل بنى بويه) .

عاشها فى صباه . ألم يصحبه أبوه إلى بلاد الشام ، فلم يزل يتنقل من باديتها إلى حاضرتها ومن وبرها إلى مدرها، فأكسبته البادية والتنقل فيها فروسية وشجاعة ، وما كان أهل البادية غير فرسان ومحاربين ؟

وقد « صحب سيف الدولة منذ مدحه فى أنطاكية ، حين استجم فيها من غزوته لحصن برزويه ، إلى أن فارقه قاصدا كافور الإخشيدى ، أى أنه لزم أمير حلب نحو تسع سنين (من ٣٣٨ — ٣٤٥) فلم يفارقه فى سورية الشمالية ودساكرها ، وفى رحلاته البدوية وغزواته للروم والأعراب . وكان يسجل فى قصائده الكثيرة التى اختصه بها — كل حوادثه ، فيتتبع بالذكر حروبه ، وسفره وقفوله ، وارتحاله ونزوله ، ويصف ظفره الصاعق ، وانخذال الروم وفرار ملكهم وقوادهم وتشتيت جيوشهم واندحارها[١] » .

« وإن هذه القصائد فوق ماحوته من قيمة أدبية ، ومن بيان ساحر وتحليق فى فن المعانى والأساليب ، وسمو فى الصنعة — لتجمع فى أبياتها قيمة تاريخية ، بل وجغرافية غالية نفيسة ، وتعد وثائق فى غاية الخطورة لكتابة التاريخ السياسى . . . فى عصر سيف الدولة »[٢] .

« يقول ديمومبين : كان المتنبى هو المسجل لتاريخ الأمير الحمدانى حينما احتكت الحضارة الإسلامية بالحضارة النصرانية فى القرون الوسطى ، وإن المرء حين يقرأ المتنبى ينساق فكره أحيانا إلى ذكر لويس الرابع عشر وعبور نهر الرين[٣] » .

« أما الأستاذ ماريوس كانار فيقول : إن المتنبى كان أعظم شاعر خلد حروب

---

(١) شعر الحرب فى أدب العرب ص ٢٣٢ .
(٢) المصدر نفسه .   (٣) المصدر نفسه ص ٢٥٨ .

العرب مع البيزنطيين ، فبذ بذلك كل شاعر قبله قال الشعر فى حرب الروم ، والمتنبى فى ذلك وحيد غير مدافع .

وقد استعان هذا الأستاذ بشعر المتنبى فى هذه الحروب على معرفة العتاد الذى كانت عليه الجيوش البيزنطية ، فاتخذ من قول المتنبى :

أتوك يجرون الحديد كأنما سروا بجياد مالهن قوائم

دليلا على ثقل جيش الفرسان عند البيزنطيين المسمى بالرومية Scholoriol أى المطاردون المدججون بالحديد الذين ركبوا خيلا مستورة القوائم برداء من الدروع يكاد يبلغ الأرض(١) » .

وقد يقال من الناحية التاريخية : إن المتنبى أغرق وأسرف ، وعظم من أمر هذه الوقائع أكثر مما ينبغى ، وأضاف إليها من الخطر أكثر مما تستحق ، وأعرض عن تصوير الهزيمة ولم يعن إلا بتصوير الانتصار . ومهما يكن من شىء فإن هذا القول لا يخلو من الحق ، فمذاهب الشعراء شىء ، ومذاهب المؤرخين شىء آخر ؛ والمتنبى لم يكن مؤرخا ولا محققا ، وإنما كان شاعرا معجبا بهذا الفتى العربى الذى ثبت مع من حوله من العرب الذين أقصوا عن ملكهم ، وردوا عن سلطانهم — إمبراطورية الروم الضخمة ، فحمى منها الثغور ، وذادها عن حوزة الإسلام ، واقتحم عليها ملكها حتى أبعد فى الغارة أحيانا ، حين كان سائر الدولة الإسلامية الضخمة ساهية لاهية ، مشغولة بما يفسد حياتها من اللهو والعبث(٢) .

على أن قصائد المتنبى التى قالها فى هذه الحروب ربما كانت أصدق من روايات المؤرخين التى يعترى أكثرها الاضطراب والتشكيك .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٥٩ .

(٢) مع المتنبى ح ٢ ص ٣٢٣ وما بعدها .

وأما أبو فراس فإن القدر الذى كتب لسيف الدولة فى حرب الروم قد أصابه أيضا ، فكان يصحب سيف الدولة فى حروبه منذ صباه . قال أبو فراس : « غزونا مع سيف الدولة وفتحنا حصن العيون سنة ٣٣٩ هـ وسنى اذ ذاك تسع عشرة سنة[١] » .

لهذا كان شعر أبى فراس فى وصف تلك الحروب وصف الخبير لها ، المشاهد لمعاركها الدامية وجحافلها الجرارة ، كالمتنبى .

على أنه إذا كان أبو فراس فى خبرته بالحرب وفى شجاعته وبطولته قد يفوق المتنبى — فإنه لايقاس به فى الشعر بوجه عام وفى قصائده الحماسية بوجه خاص . فكلا الشاعرين وإن كان قد شهد المواقع ، واشترك فيها وذاق لذاتها وآلامها ، ثم وصفها ووصف ماتركت فى نفسه وفى نفس غيره من الأثر — إلا أنك تجد فى وصف المتنبى قوة وفتوة ونشاطا يقرب صور هذه الحرب إلى الأذهان ، ويدنوبها من حقائق التاريخ ، على حين يظهر فى شعر أبى فراس دقة الحس ورقة العاطفة[٢] ، وهو لايخلو من فتور لا يلائم هذه الحياة العنيفة التى كان يحياها هؤلاء العرب من المسلمين فى ذلك الوقت ، ولعله يلائم الترف الذى كان يشمل القصرين فى أوقات السلم : قصر سيف الدولة فى حلب ، وقصر أبى فراس فى منبج[٣] .

---

(١) ديوان أبى فراس — تحقيق الأستاذ سامى الدهان حـ ٢ ص ١٤٢ .

(٢) يقول بلاشير : إن الأستاذ كراتشوفسكى يفضل أبا فراس على المتنبى ، لأن أسلوب أبى فراس أكثر يسرا ، ولأنه قبل كل شىء غنى بالتعبير عما يليه قلبه . Blachère p. 332

(٣) مع المتنبى حـ ٢ ص ٣٢٦ .

وجملة القول إن شعر هذين الشاعرين معا بوجه خاص — على تفاوت بينهما — يعد من مصادر التاريخ السياسى التى تلقى بكثير من الضوء على عصر سيف الدولة ، وتميط اللثام عن كثير من جوانبه ونواحيه ، وإن كان المعروف لدى المؤرخين أن الشعر بوجه عام لايعد مصدرا تاريخيا أساسيا ، وأنه لا يلجأ اليه إلا عند الضرورة القصوى[1] ، لأنه يعتمد على الخيال والعاطفة — أكثر مما يعتمد على الحق وذكر الوقائع بدون زيادة ولا نقصان .

---

(١) استخدام المصادر ص ٦٨ .

الفصل الخامس

الشعر من حيث موضوعاته وفنونه

نستطيع أن نحصر العوامل الموجهة لأغراض الشعر وفنونه فى عاملين رئيسين هما سيف الدولة والبيئة . فأما أثر سيف الدولة فى توجيه أغراض الشعر فقد كان عظيما حقا ، لأن معظم الشعر الذى قيل فى ظله كان يدور حول شخصه ، وإذا كان سيف الدولة هو الذى أحيا هذه النهضة الشعرية وأيقظها فقد كان هو أيضا القطب الأكبر لدائرتها .

كان سيف الدولة يعطى و يجزل العطاء ، فكان المدح .

وكان مجاهدا مناضلا ، فكانت الحماسة .

وهو رجل من الناس تمتحنه الأيام بفقد الأبناء والأقرباء ، فكان الرثاء[1] .

وهو كسائر الناس يغضب بعد الرضا فكان الاستعطاف والاعتذار .

ولسيف الدولة خصوم سياسيون فى العراق ومصر فكان الشعر السياسى .

وله كما للحمدانيين عامة مجد طريف وآخر تليد ، والحمدانيون ورجالهم جلهم شعراء ، فكان الفخر .

وسيف الدولة يعمل على إثارة التنافس بين الشعراء ، مما يدعو إلى خلق الحسد و إثارة الكيد بينهم ، فكان فخر ، وكان هجاء .

وأما أثر البيئة فقد كانت طبيعتها جميلة ، ومظاهر الحضارة القديمة والحديثة فيها متنوعة ، فكان الوصف .

---

(١) مع المتنبي ج ٢ ص ٣١٨ .

والترف والمجون كانا يسودان البيئات الإسلامية جميعا فى هذا العصر، فكان الغزل بنوعيه بالمذكر و بالمؤنث، وكان وصف الخمر.

و إذن نستطيع أن نقول إن أهم أغراض الشعر وفنونه العامة فى ظل سيف الدولة هى: المدح والحماسة والشعر السياسى والفخر والرثاء والاستعطاف والهجاء والوصف والغزل.

١ — المدح

تبوأ المدح المكان الأعظم فى ظل سيف الدولة، وقد دعا إلى ذلك ما كانت عليه الحياة السياسية والاقتصادية فى هذا العصر، مما سبق أن شرحناه مفصلا فى كلامنا عن سيف الدولة. وقد غلب هذا الغرض على شعر الشعراء الطارئين على حلب بوجه خاص، وهم الكثرة الغالبة، والعلة فى ذلك واضحة غنية عن البيان. ذلك بأن هؤلاء الشعراء إنما وفدوا على حلب يحدوهم حب المال والرغبة فى النوال، وذلك لايكون إلا بأن يغدقوا الثناء على ذلك الأمير الكريم سيف الدولة، ليغدق عليهم العطاء.

لهذا غلب فن المديح على سائر أغراض الشعر الأخرى، حتى أصبحت هذه الأغراض صغيرة إلى جانبه، بل أصبح بعض الأبواب مثل النسيب والوصف والحماسة لايطرقه الشاعر غالبا إلا فى أثناء المديح وبهذه الطريقة استطاع الشاعر أن ينوع الموضوعات فى قصائده، دون أن يخرج عن الغرض الأول الذى يقصده، وهو التماس الحظوة لدى الأمير.

نعم لقد كان هناك مدح خالص خال من شوائب الأغراض الأخرى، ولكن ذلك لم يكن فى القصيد، و إنما كان فى المقطعات الصغيرة تقال على لسان بعض الشعراء غير المحترفين، كذلك الأعرابى الذى تقدم إلى سيف الدولة والشعراء ينشدونه، فاستأذن الحجاب فى الإنشاد فأذنوا له، فأنشد:

أنت على وهذه حلب . . . . الأبيات السابقة

أو تقال على لسان بعض أمراء البيت الحمدانى فى مناسبة خاصة ، مما يجدر أن يلحق بالإخوانيات لا بمديح الاستجداء ، كالذى كتبه أبو فراس إلى سيف الدولة ،وقد أهدى الناس إلى سيف الدولة فى بعض الأعياد ، وأ كثروا :

نفسى فداؤك قد بعثـ ـت تعهدى بيد الرسول
أهديت نفسى إنما يهدى الجليل إلى الجليل
وجعلت ما ملكت يدى صلة المبشر بالقبول
لما رأيتك فى الأنا م بلا مثال أو عديل(١)

وقد كان المدح فى ظل سيف الدولة موجها إلى شخصه هو غالبا ، وتلك ظاهرة عامة للشعر فى ظل الإمارات التى انقسمت اليها الدولة العباسية فى ذلك العصر — دعا إليها تغير الحياة الاقتصادية والحياة السياسية ، وما نشأ عن هذا التغير من التنافس العنيف بين الأمراء والحكام فى القرن الرابع ، فقد كان هذا التنافس يقوم على أن يؤثر كل أمير أو حاكم نفسه ودولته بالخير ، و بكل ما من شأنه نشر الدعوة لهما والإشادة بذكرهما ، فلم يكن من اليسير لشاعر من الشعراء أن يمدح أميرين أو حاكمين إلا أن يكون أحدهما ظلا للآخر ومتصلا به ، بحيث يكون مدحه وسيلة لا غاية ، وسببا لا غرضا ، كما مدح المتنبى أبا العشائر والى أنطاكية من قبل سيف الدولة ، ليكون ذلك سلما لاتصاله بسيف الدولة ، وقد تم له ما أراد . وكمدح السرى الرفاء لأبى حصين على بن عبد الملك الرقى قاضى سيف الدولة ، ومن ذلك قوله :

لقد أضحت خلال أبى حصين حصونا فى الملمات الصعاب

---

(١) اليتيمة ج ١ ص ٢٩ .

كسانى ظل وابله وآوى غرائب منطقى بعد اغتراب
وكنت كروضة سقيت سحابا فأثنت بالنسيم على السحاب(١)

على أنه و إن كان جل المدح موجها إلى شخص واحد هو سيف الدولة — إلا أنه بلغ حدا من الكثرة يعد نادرا ، بالنسبة إلى الفترة التى قضاها سيف الدولة فى إمارة حلب . وحسبك ماسبق أن ذكرناه من أن كلامن أبى محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب وأبو الحسن على بن محمد الشمشاطى قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة — عشرة آلاف بيت(٢) و إذا كان ذلك هو المختار فحسب فلا شك أن ذلك يشير إلى أن مدحه بلغ عشرات الآلاف . وإذا عرفنا — كما يقول الثعالبى — أنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر(٣) ، وأن هؤلاء إنما كان الغرض الأول من اجتماعهم ببابه هو أن يمدحوه لينالوا عطاءه — عرفنا إلى أى حد تضاعف مدحه وكثر .

و إن أحد هؤلاء الشعراء وهو المتنبى — له فى سيف الدولة نيف وثمانون قصيدة ومقطوعة ، وهو مقدار ضخم لم يجتمع فى أغلب الظن لشاعر من الشعراء القدامى فى خليفة أو ملك أو أمير .

وأما المعانى التى دار حولها ذلك المدح فتتلخص فى أربعة هى : تمجيد العروبة ، وشرف الأصل ، والجود ، والشجاعة والبطولة .

وتلك المعانى هى التى تصور لنا سيف الدولة العربى الشريف الأصل الجواد الشجاع ، فلم يكن سيف الدولة إلا تلك المعانى الأربعة التى دار حولها

---

(١) ديوان السرى ص ٣٣ .
(٢) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ جـ ١ ص ١١ .
(٣) المصدر نفسه .

الشعراء فى مدح ذلك الأمير العظيم . وإليك أمثلة متفرقة فى مديح سيف الدولة وسترى أنه لا يكاد يخرج مثال منها عن تلك المعانى .

قال المتنبى وقد تساءلوا عن أيهم أفضل العرب أم الأكراد : —

إن كنت عن خير الأنام سائلا   فخيرهم أكثرهم فضائلا
من أنت منهم ياهمام وائلا   الطاعنين فى الوغى أوائلا
والعاذلين فى الندى العواذلا   قد فضلوا بفضلك القبائلا (١)

فهو يفضل العرب ممثلين فى وائل، ويصفهم بالكرم والشجاعة ، والأمير منهم ، وقد زاد فضلهم على الناس بفضل الأمير .

وقال السرى الموصلى : —

أعزمتك الشهاب أم النهار   أراحتك السحاب أم البحار
خلقت منية ومنى فأضحت   تمور بك البسيطة أو تمار
سيوفك من شكاة الثغر برد   ولكن للعدا فيها بوار
وكفاك الغمام الجون يسرى   وفى أحشائه ماء ونار (٢)

فهو يمدحه بالكرم والشجاعة .

ومثل ذلك قول ابن نباته السعدى :

نواله جعل الأرزاق من قبلى   وعزه صير الأيام من خولى
وما تمهل يوما فى ندى وردى   إلا قضيت لمح البرق بالكسل (٣)

---

(١) الديوان شرح البرقوقى ج ٣ ص ٢٨٨ .
(٢) ديوان السرى ص ١٠٥ .
(٣) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ ج ٢ ص ٣٥٧ .

وقول أبى العباس بن محمد النامى :

خلقت كما أرادتك المعالى فأنت لمن رجاك كما يريد
عجيب أن سيفك ليس يروى وسيفك فى الوريد له ورود
وأعجب منه رمحك حين يسقى فيصحو وهو نشوان يميد(١)

وقول أبى الفرج الببغاء :

بداك إذا ضن الغمام غمام وعزمك إن فل الحسام حسام
فهذا ينيل الرزق وهو ممنع وذاك يرد الجيش وهو لهام(٢)

وقال الوأواء يمدحه بالكرم :

من قاس جدواك بالسحاب فما أنصف فى الحكم بين شكلين
أنت إذا جدت ضاحك أبدا وهو إذا جاد دامع العين(٣)

وقال المتنبى يمدحه بشرف الأصل :

فأنت أبو الهيجاء بن حمدان يابنه تشابه مولود كريم ووالد
وحمدان حمدون وحمدون حارث وحارث لقمان ولقمان راشد(٤)

ومن مدحه بشرف الأصل أيضا قول الوأواء :

ويا هــــلالا بدت مطالعه فى أفق بدرين تغلبيــــين(٥)

وقال أبو فراس يمدحه بالقوة وشدة البأس ، إذ يذكر أنه ملاذ له واقومه بل للعرب جميعا :

(١) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٤ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) ديوان المتنبى شرح البرقوقى جـ ١ ص ٣١٦ .
(٥) ديوان الوأواء ص ٢٢٢ .

وإنك للجبـــل المشمخـــر لى بل لقومك بل للعرب[١]

* * *

وليس جديداً أن يكون من معانى المدح فى الشعر السيفى المدح بالكرم والشجاعة فقد كان المثل الأعلى للرجولة منذ العصر الجاهلى — الجمع بين خصلتى الشجاعة والكرم . وهذا المثل الأعلى كان قويا بارزا فى العصر الجاهلى ، لأن الحياة الجاهلية كانت ذات نظام يجعل للشجاعة فى الحرب ، وللكرم والبذل للمحتاجين — المكان الأول فى تكوين الرجل الخلق . ومع أن الشجاعة والكرم هما أفضل صفات الإنسان فى كل عصر فإن هاتين الخصلتين اكتسبتا فى الشعر العربى قوة عظيمة بفضل تأثير الشعر القديم[٢] . ولكنهما إذا مدح بهما سيف الدولة فلا تكاد تحس بسيطرة الشعر القديم على الشاعر الذى يمدح ذلك الأمير بهاتين الصفتين ؛ إذ أن سيف الدولة تتمثل فيه هذه الناحية البدوية الجاهلية تمثلا واضحا ، ففيه من صفات البادين تلك الفروسية التى تفيض بالشجاعة التى لا تحجم ، والبطولة العارمة التى لا تنثنى ، وفيه الكرم الحاتمى الذى لا يبقى ولا يذر . على أن سيف الدولة وإن اشترك مع غيره من الملوك والأمراء فى مدح الشعراء لهم بالكرم والشجاعة مع الاعتراف بأنه أجدر من غيره بهاتين الصفتين — إلا أنه انفرد عن معاصريه من البويهيين والإخشيديين الأعاجم بمدح الشعراء له بالعروبة وشرف الأصل ، وتلك ميزة أخرى تضم إلى مميزات هذا الغرض الشعرى فى ظل هذا الأمير الحمدانى العربى . ويجب أن نعلم أن تلك الميزة لم يكن يتسم بها إلا شعر من كان يعتز بالعروبة وينتمى إليها ، كأبى فراس والمتنبى . ومن الشعراء العرب من دفعته المبالغة فى مدح سيف الدولة إلى الاستهانة بالعروبة إلى جانب سيف الدولة .

(١) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ جـ ١ ص ٥٨ .
(٢) التوجيه الأدبى ص ١٧٠ .

فهذا أبو نصر بن نباته السعدى التميمى يقول :

حاشاك أن تدعيك العرب واحدها يا من ترى قدميه طينة العرب
فإن يكن لك وجه مثل أوجههم عند العيان فليس الصفر كالذهب
وإن يكن لك نطق مثل نطقهم فليس مثل كلام الله فى الكتب (١)

فقد دفعته المبالغة إلى أن يسوى بين العرب وبين ترى قدمى سيف الدولة . ومهما يكن من شىء فإنها مبالغة ممقوته ، واستهانة بالعروبة — فى عصر ساد فيه الصراع بين العرب و غيرهم من الأجناس التى طغت على العروبة وزعزعت أمنها ونقصت من أطرافها حتى قال المتنبى :

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم (٢)

ولكنه المال يهون فى سبيله كل شىء ، والمبالغة تجرف بتيارها كل ما يجب أن يصان ويرعى .

ولسنا الآن بصدد بيان ما كان يمتاز به فن المديح من المبالغة فلذلك مقام آخر هو الكلام عن الخصائص الفنية للشعر فى فصل آت ، وسنرى أن تلك الخاصة لم تكن مقصورة على فن المديح وحده ، وإنما كانت ظاهرة متفشية فى كثير من أغراض الشعر فى هذا العصر .

وبعد ، فيقولون إن أجل المدائح فى الشعر العربى ما كان صادرا عن شاعر كبير فى ممدوح خطير فى أحوال ممتازة ، وقد كان سيف الدولة ممدوحا

(١) اليتيمة — طبعة سنة ١٩٣٤ — ج ١ ص ٥٨ .
(٢) الديوان شرح البرقوقى ج ٤ ص ٢٣٠ .

جليلا ، وحياته كلها تحمل طابع الامتياز ، بما امتازت به من كثرة الجهاد والنضال ، وقد ضم بلاطه كثيرا من الشعراء الكبار من أمثال المتنبى وأبى فراس . لذلك كان المدح فى ظل سيف الدولة من أجل مدائح الشعر العربى ، إذ كان معظمه صادرا عن عاطفة قوية تحس بما للممدوح من خطر ، وما للظروف التى اكتنفته واكتنفت إمارته من امتياز ، وكذلك كانت القصائد التى مدح بها المتنبى سيف الدولة ، والقصائد التى أرسلها أبو فراس من الأسر إليه من قصائده الروميات .

٢ — الحماســـة

نقصد من هذا الفن الشعر الحربى الذى يتضمن تصوير الشجاعة والبأس والضرب والطعان ، ولا نصنع صنيع من عمم كلمة الحماسة بإطلاقها على كل شعر فيه قوة وروعة ، كما فعل بعض المؤلفين من أمثال أبى تمام والخالديين[١] .

وشعر الحماسة فى الشعر العربى يتوزعه غرضان من أغراض الشعر :

(ا) شعر المديح فإن فيه شعرا حماسيا كثيراً ، لكنه قد مزج بموضوعات المدح ، فالشاعر يذكر سجايا ممدوحه من كرم ومعروف وشهامة وأعراق ، ثم يذكر شجاعة الممدوح ، فيعرض لذكر حروبه ووقعاته ، إن كان من القواد ، أو يذكر وقائع آبائه وأجداده ، إن كان من أبناء القواد أو أحفادهم[٢] .

(ب) شعر الفخر — فإن الشاعر المفتخر يعرض لذكر أيامه الحربية ، إن كانت له مأثرة فى الحرب ، أو يفتخر بأيام آبائه وأجداده[٣] .

وأما الشعر الحربى الصريح الذى قيل خاصة لوصف الوقائع والمعامع فذلك لا وجود له فى الشعر العربى ، لأن هذا الشعر ميزته الأولى أنه شعر وجدانى يمثل

---

(١) شعر الحرب ص ٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٦٠ .

(٣) المصدر نفسه .

العواطف والإحساسات الشخصية ، فلم يذكر الشعر الحربى إلا بصدد تصوير الشاعر لعواطفه إزاء ممدوحه ، أو بصدد الفخر بنفسه أو الفخر بآبائه وأجداده — وكذلك كان هذا الشعر فى ظل سيف الدولة . ولما كان المديح هو الغرض الغالب على الشعر فى ظل ذلك الأمير كان معظم الشعر الحماسى الذى قاله شعراؤه تابعا لفن المديح .

فقد كان لسيف الدولة رعية بدوية قليلة الشعور بحب النظام شديدة النقض للسلطان القوى ، كثيرة الجنوح إلى الشغب والخروج والانتقاض ، وكان سيف الدولة يردها بالقتال إلى الطاعة والإذعان[١] .

وكان هذا الأمير مجاهدا ، يحمى ثغور المسلمين من قبل الروم ، وكانت له مع هؤلاء مواقع حسن بلاؤه فيها منتصراً أو منهزما[٢] .

وقد مدحه كثير من شعرائه كما يمدح المجاهدون والحامون للثغور ، الذائدون عن حوزة الدين والوطن ، وكما يمدح الأمير الذى يأخذ رعيته بالحزم ويحملها على الخضوع والرجوع إلى النظام[٣] .

وكان رجال الدولة الحمدانية أدباء حربيين وشعراء وفرسانا وكان الشعر والأدب مما يحسنونه جميعاً ، فكان لابد أن يطرقوا إذا افتخروا هذه الناحية الحربية التى هى أبرز صفاتهم وقوام حياتهم . ومن هؤلاء أبو فراس الحمدانى ، وأبو العشائر الحمدانى ، وأبو وائل تغلب بن داود الحمدانى ، وأبو زهير مهلهل ابن نصر بن حمدان ، وبقية من أمراء حمدان بين عمومة وخئولة كانوا منبثين فى عمالات سيف الدولة على ثغور الشام[٤] .

---

(١) مع المتنبى ج ٢ س ٣١٧ .

(٢) المصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه .

(٤) شعر الحرب س ٢١٩ .

١ — حماسة المديح

الشعراء فى هذا الباب ضربان : ضرب كانت حماسته أصيلة ، تنبع من ذات نفسه ، وتهتز بها أوتار قلبه ـ وهذا الضرب من الشعراء يمثله المتنبي وأبو فراس . فأما المتنبي فقد كان ـ كما ذكرنا فيما سبق ـ فارساً ا كتسب الفروسية من حياته البدوية التى عاشها فى صباه . فلما خالط سيف الدولة رافقه فى أكثر حروبه ، وشهدها معه وحارب فيها إلى جانبه ؛ لهذا كان فن الحماسة الذى طرقه المتنبى فى مدح سيف الدولة ـ فنا أصيلا ، لأنه يعبر عن حقيقة هواه . وهو الذى يقول :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى ... والطعن والضرب والقرطاس والقلم

وصدق الشريف الرضى إذ يقول : «وأما أبو الطيب المتنبي فقائدعسكر[1]» . استمع إلى المتنبى ، وهو يقول من قصيدة يمدح بها سيف الدولة بعد وقعة خرشنة ، التى كان له فيها النصر على الروم فى بدايتها :

بالجيش تمتنع السادات كلهم ... والجيش بابن أبى الهيجاء يمتنع
قاد المقانب أقصى شربها نهل ... على الشكيم وأدنى سيرها سِرَعُ
لا يعتقى بلد مسراه عن بلد ... كالموت ليس له رِىٌّ ولا شِبَعُ
حتى أقام على أرباض خرشنة ... تشقى به الروم والصلبان والبيع
للسبى ما نكحوا والقتل ما ولدوا ... والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا
مُخلى له المرج منصوبا بصارخة ... له المنابر مشهوداً بها الجمع
يطمع الطير فيهم طول أكلهم ... حتى تكاد على أحيائهم تقع[2]

فى هذه الأبيات تتمثل سيف الدولة بطلا يحتمى به الجيش ، مع أن الجيش

---

(١) الصبح ص ١٠٣٥ .

(٢) ديوان المتنبى شرح البرقوقى حـ ٢ ص ٣٩٧ و ٣٩٨ و ٣٩٩ .

يكون حمى لغير سيف الدولة من السادات ، وتتمثل سيف الدولة يقود الخيل معجلة عن الشرب ، فلا تشرب إلا مرة واحدة وهى ملجمة ، فلاتترك لها الفرصة لخلع اللجم عنها ، وأقل سيرها إسراع إلى لقاء العدو ، فلما وصل سيف الدولة إلى ضواحى خرشنة لم يلبث الشقاء أن حل بالروم بقتلهم وحرق صلبانهم و بيعهم . ولقد كانت خسارتهم جسيمة ، فسبيت نساؤهم ، وقتل أولادهم الكبار ، ونهبت أموالهم ، وأحرقت زروعهم ، وأخلى له المرج ، ونصبت المنابر التى هى شعار الإسلام بصارخة ، وشهدت صلوات الجمع . وطول أكل الطير من لحوم قتلى الروم أغراها بهم ، فقد ألفت لحومهم ، حتى تكاد تقع على لحوم الأحياء وتختطفهم فى غدواتهم وروحاتهم .

لقد كان سيف الدولة كما يقول عنه بلاشير محاربا بالوراثة بل كان مصابا بهوى الحرب[١] وكان المتنبى معجبا به ، لأنه كان يرى نفسه فى صورة سيف الدولة ، فعبر فى حماسة مديحه له عن نزعة الكفاح التى تصطرع بين جنبيه ، لهذا كانت حماسته أصيلة ، متجاوبة مع نوازعه وعواطفه .

وأما أبو فراس فلست فى حاجة إلى أن أبين أن حماسته كانت أصيلة ، لأن حياته كلها فروسية وضرب وطعان .

وإذا كنا الآن بصدد حماسة المديح فى شعره — قلنا إنه لم يمدح أحداً فى حلب إلا سيف الدولة ، وكانت صلته بذلك الأمير مؤسسة على الحب والإعجاب . وناحية إعجابه بسيف الدولة البارزة هى أنه أمير عربى وقف حياته على قتال أعدائه من العرب الثائرين حينا وأعدائه من الروم المجاورين حينا آخر ، وأنه فى ميدان القتال مقدام باسل .

ومن حماسه المديح فى شعر أبى فراس قوله فى سيف الدولة :

---

(١) شعر الحرب ص ٢٠٦ وانظر أيضا Blachére p. 127 .

قد ضج جيشك من طول القتال به   وقد شكتك إلينا الخيل والإبل

وقد درى الروم مذ جاورت أرضهم   أن ليس يعصمهم سهل ولا جبل

فى كل يوم تزور الثغر لا ضجر   يثنيك عنه ولا شغل ولا ملل

وهذا الجانب من جوانب حياة الأمير هو الذى كان يجذب انتباه الشاعر إليه أكثر من سائر الجوانب الأخر حتى إن ناحية الكرم وهى ناحية بارزة فيه تمام البروز — لم تسترع نظر أبى فراس كثيراً ، فلم يرددها إلا قليلا ، من مثل قوله فيه :

يا باذل النفس والأموال مبتسما   أما يهولك لا موت ولا عدم

وإنما كان يسترعيه من سيف الدولة جانب البطولة ، ولا عجب ، فهو الأمير البطل الذى لا ينظر إلى غيره إلا بعين البطولة ، ولا يليق بكرامة أمير عظيم كأبى فراس أن يعنى بشعر يشتم منه رائحة الاستجداء .

* * *

أما الجانب التقليدى من حماسة المديح فذلك يتمثل فى شعر بعض الشعراء المتكسبين غير المتنبي . ذلك الجانب الذى لم يصدرفيه هؤلاء الشعراء عن طبيعة حماسية أصيلة ، وإنما قيل لأن المقام فقط دعاهم إلى أن يزجوا بأنفسهم فى هذا المضمار إرضاء لممدوحهم من ناحية ، واستكمالا لفنهم من ناحية أخرى ، ولذلك تكاد لا تحس فى شعرهم هذا بالحرارة التى تحسها فى شعر الحماسة الأصيل الذى سبق أن مثلنا له . ومن هؤلاء السرى الرفاء — فمن شعره يمدح سيف الدولة ، ويذكر وقعة خرشنة :

فتوحك ردت بهجة الملك سرمدا   وأنت حسام الله فل بك العدا

يحدث عنك المشرفى مجردا   ويثنى عليك السمهرى مسددا

أعاد وأبدى الفتح منك معودا قراع العدا جار على ما تعودا
وممطر أرض الروم من دم أهلها سحابا إذا روى الثرى منه أحمدا[١]

فأين هذه الحماسة الباردة الفاترة مما قاله المتنبي في وقعة خرشنة ، والذى ذكرنا منه طرفا في الكلام عن حماسة المديح في شعره ؟

ومنهم ابن نباته السعدى . ومن حماسة المديح في شعره قوله في سيف الدولة يذم الروم ، ويذكر فضل الأمير على الأسرى بعد أسرهم :

قد كنت تأسرهم بالسيف منصلتا فصرت تأسرهم بالخوف والوَهَلِ
من يزرع الضرب يحصد طاعة عجبا ومن يربى العلا يأمن من الشكل
كانت سحابك فيهم كل بارقة حمراء تهطل بالأيدى على القلل
فاليوم سحبك فيهم كل بارقة غراء تهطل بالأموال والحلل
حتى تمنى مليك الروم حظهم وأنه معهم في الأسر لم يزل[٢]

ومن هؤلاء أبو العباس النامى الذى يقول :

لكم يا بنى العباس سيف على العدا حسام متى يعرض له الداء يحسم
أخف إلى يوم الوغى من حمامه وأثبت من شوق بقلب متيم[٣]

وقد خرج سيف الدولة يريد مدينة « قاليقلا » ، وكان الروم قد بنوا حذاءها مدينة سموها « هفجيج » ، فلما علم الروم بمسيره أخربوا المدينة التى بنوها ، وهربوا . وفى ذلك يقول النامى :

ونادى الهدى مستصرخا فأجبته بقاليقلا إذ أنت بالخيل سهما

(١) ديوان السرى ص ٧٧ .
(٢) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ ج ١ ص ٣٥٨ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٩٠ .

ولم تتشد « هفجيج » أيدى بناتها أبدتهم تحت السنابك رغما
لئن حسنت عذراء والبحر خدرها لقد وجدت فيه ثكولا وأيما(١)

ومنهم الوأواء ، ومن حماسة مديحه قوله فى سيف الدولة :

هو السيف إلا أنه ليس نابيا إذا عاقه المقدور عن كل ضارب
إذا شاجروه بالرماح تشاجرت نفوس المنايا فى نفوس الكتائب
وتصبغ أيدى النقع أيدى خيوله بأحمر ترب من نجيع الترائب
وكم خاض نقعا يمطر الهام وقعه إلى الموت فى صفى قنا وقواضب(٢)

وقوله من قصيدة أخرى :

مجيب لأطراف الرماح إذا ارتمت بها وافدات الطعن من كل جانب
بعادات صبر لم تزل تستعيده إلى الحرب حتى مات صبر المحارب
فتى ألبس الأيام ثوب شبيبة وكانت قديما فى جلابيب شائب
تظل المنايا تحت ظل سيوفه إذا خطر الخطى بين الكتائب
ينظم نثر الطعن فى وجه طاعن وينثر نظم الضرب فى نحر ضارب(٣)

(ب) حماسة الفخر

وأما حماسة الفخر فإنها تتمثل خاصة فى شعر الحمدانيين ممن ذكرنا بعضهم فيما سلف ، فللحمدانيين مجد طريف إلى جانب مجدهم التليد ، وكلاهما حافل

(١) نخبة تاريخية أدبية — كانار — ص ٧٢ ، ٧٣ والنزعات ص ١٢٤ .
(٢) ديوان الوأواء ص ٢٧ ، ٢٨ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢١ .

بالبطولة والحرب والضرب ، مسطر بحروف قانية من الدماء . ومن حماسة فخرهم قول أبى فراس :

ولما أن طغت سفهاء كعب فتحنا بينهم للحرب بابا
منحناها الحرائب غير أنا إذا جارت منحناها الحرابا
ولما ثار سيف الدين ثرنا كما هيجت آسادا غضابا
أسنته إذا لاقى طعانا صوارمه إذا لاقى ضرابا
دعانا والأسنة مشرعات فكنا عند دعوته الجوابا

ولأبى فراس قصيدة مطولة فى الفخر أشار فيها الشاعر إلى كثير من المواقف التاريخية المجيدة للحمدانيين فى سالف العهود ولاحقها ، وإن كان قد اقتصر على ما كان لهم من هذه المواقف فى الإسلام دون الجاهلية .

وقد بلغت هذه القصيدة خمسة وعشرين ومائتى بيت . ومطلعها : (٢)

لعل خيال العامرية زائر فيسعد مهجور ويسعدها جر

ومنها قوله :

أنا الحارث المختار من نسل حارث إذا لم يسد فى القوم إلا الأخاير
فجدى الذى لم المشيرة جوده وقد طار فيها للتفرق طائر
تحمل قتلاها وساق دياتها حمول لما جرت عليه الجرائر

وقوله :

وما زال منا جار خرشنة امرؤ يراوحها فى غارة ويباكر

---

(١) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ جـ ١ ص ٣٢ .

(٢) ديوان أبى فراس حـ ٢ ص ١٠١ وما بعدها .

ولما وردنا « الدرب » والروم فوقه وقدر قسطنطين أن ليس صادر
ضربنا بها عرض الفرات كأنما تسير بنا تحت السروج جزائر
إلى أن وردنا «أرقنين» نسوقها وقد نـكلت أعقابها والخاصر
ومال بها ذات اليمين «بمرعش» مجاهيد يتلو الصابر المتصابر
ومازلن يحملن النفوس على الوجى إلى أن خضبن بالدماء الأشاعر
وأبن بقسطنطين وهو مكبل تحف بطاريق به وزرازر
وولى على الرسم الدمستق هاربا وفى وجهه عذر من السيف عاذر
فدى نفسه بابن عليه كنفسه وللشدة الصماء تقنى الذخائر
وقد يقطع العضو النفيس لغيره وتدفع بالأمر الكبير الكبائر

ومن حماسة الفخر فى شعر الحمدانيين قول أبى العشائر :

وقد علمت بما لاقته منا قبائل يعرب و بنو نزار
لقيناهم بأرماح طوال تبشرهم بأعمار قصار(١)

وقول أبى زهير مهلهل بن نصر بن حمدان :

ألخا الفوارس لورأيت مواقفى والخيل من تحت الفوارس تنحط
لقرأت منها ما تخط يد الوغى والبيض تشكل والأسنة تنقط(٢)

وأنشد أبو بكر الخوارزمى لبعضهم .

أغمام ما يدريك ما أفعالنا والخيل تحت النقع كالأشباح

---

(١) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ ج ١ ص ٧١ .
(٢) المصدر نفسه .

تطفو وترسب فى الدماء كأنها صور الفوارس فى كئوس الراح[1]

وهذا النوع من الحماسة أصيل ولا ريب ، وما قرأته إلا تمثلت لى الحماسة الجاهلية أو حماسة الخوارج فى العصر الإسلامى ، مع ملاحظة جانب الترف الذى كان يسود حياة الحمدانيين ، والذى بدا فى شعرهم جميعا حتى فى حماستهم .

هذا الترف هو الفارق الذى يلحظ بين شعر هؤلاء وأولئك ، وإلا فإن حياة الحمدانيين تشبه إلى حد كبير الحياة الجاهلية الدامية وحياة الخوارج الثائرة ، فكانت حماستهم من أجل ذلك حماسة صادرة من أعماق القلوب مطابقة كل المطابقة لمقتضى حال القائل . على أن حماسة الفخر هذه لم تكثر فى شعر الحمدانيين إلا فى شعر شاعرهم الأكبر أبى فراس ، بل إننا لا نكاد نعثر على شعر لزعيمهم الأعظم سيف الدولة فى حماسة الفخر ، مع أنه كان شا كما عرفنا من قبل ، وجل شعره وشعر سائر الحمدانيين — عدا أبى فراس — يمثل جانب ترفهم ولهوهم أكثر مما يمثل ما عرفوا به من حياة الضرب والقتال . فلعلهم لم يكونوا يقولون الشعر إلا فى الفترات القصيرة التى كانوا يفرغون فيها لأنفسهم ، فينعمون باللذة العارضة والدعة السانحة . وأما أبو فراس فهو — فوق أنه كان أشعر الحمدانيين — قد أتاح أسره للشعر الفرصة الطويلة ليجول ويصول ، فكثر فى شعره هذا الجانب الحماسى الفخرى الذى اضطرمت به نفسه — فيما اضطرمت به — بين براثن الأسر ، وظل الغربة ، والبعد عما تصبو إليه نفسه من مواطن النزال والقتال .

ومن ذلك قوله من قصيدة كتبها إلى سيف الدولة وهو أسير :

فإن تفتدونى تفتدوا شرف العلا وأسرع عواد إليكم معود

يدافع عن أعراضكم بلسانه ويضرب عنكم بالحسام المهند

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٢ .

متى تخلف الأيام مثلى لـكم فتى طويل نجاد السيف رحب المقلد
ولا وأبى ما ساعدان كساعد ولا وأبى ما سيدان كسيد[١]

وقوله :

تمر الليالى ليس للنقع موضع لدى ولا للمعتفين جناب
ولا شد لى سرج على ظهر سابح ولا ضربت لى بالعراء قباب
ولا برقت لى فى اللقاء قواطع ولا لمعت لى فى الحروب حراب
ستذكر أيامى نمير وعامر وكعب على علاتها وكلاب[٢]

* * *

وإذا نقبنا عن حماسة الفخر فى الشعر فى ظل سيف الدولة عند غير الحمدانيين من الشعراء المتـكسبين — فلا نـكاد نجدها إلا فى شعر المتنبى الذى كان كثير التحدث عن نفسه ، فى معرض المديح . وكان جانب الحماسة بارزا فى هذا الفخر وذلك الحديث ؛ إذ كان كما قلنا شاعرا فارسا ، يستهويه جانب الشجاعة والبطولة ، كقوله فى إحدى قصائده لسيف الدولة .

ومرهف سرت بين الجحفلين به حتى ضربت وموج الموت يلتطم
فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم[٢]

٣ — الهجاء

أهم العوامل المؤثرة فى هذا الفن ثلاثة عوامل : — (١) السياسة الخارجية (٢) السياسة الداخلية (٣) التنافس الأدبى .

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٤ و ٥٥ .
(٢) ديوان المتنبى شرح البرقوقى ج ٤ ص ١١١ .

فأما العامل الأول وهو السياسة الخارجية — فنحن نعلم أن أهم دافع دفع سيف الدولة إلى العمل على التفاف الشعراء حوله هو رغبته فى أن يتخذهم وسيلة للدعاية ، وتوطيد دعائم ملكه فى حلب ، ونشر صيته فى الآفاق ، وأن يحدث الشعراء من حوله دويا يصم آذان القائمين على شئون الدويلات والإمارات المحيطة بملكه . وتحمل هذه الرغبة من جانب سيف الدولة فى طياتها أن يمدحه الشعراء من ناحية ، وأن يهجوا خصومه ومنافسيه من ناحيـــة أخرى . هذا هو الذى ينتظره ذلك الأمير الحمدانى من الشعراء .

وقد عرفنا إلى جانب ذلك أن أهم حافز حفز الشعراء للإقبال على سيف الدولة — إنما هو الطمع فى عطائه والتماس جانب الغنى فى رحابه على أن يظل الباب أمامهم مفتوحا إلى غيره من الأمراء والملوك ، فيستطيعوا أن يقصدوا من شاءوا فى أى وقت وعلى أية حال . وإذن فالذى ننتظره من جانب الشعراء نحو سيف الدولة أن يمدحوه فحسب ، وأما أن يهجوا منافسيه فذلك جدير أن يقترن بالحيطة والحذر والأناة ، لأنهم رأوا فى تلك الدويلات التى انقسمت إليه الدولة العباسية كلأً مباحاً يتنقلون بين أرجائه ، ليصيبوا منه بشعرهم ماشاءوا . وهم أو كثير منهم لم يفرضوا على أنفسهم أن ينقطعوا لأمير دون أمير ، وإنما هم كما يقول الشاعر :

يسقط الطير حيث يلتقط الحـــــب وتغشى منازل الكرماء

وإذن فهم إذا قصدوا أميراً من الأمراء فقد وطدوا عزمهم أولا على أن يمدحوه ، وأما أن يهجوا أعداءه ومنافسيه من سائر الأمراء الآخرين فذلك مالا بد أن يواجهوه بالحيطة والحذر . لذلك يجب ألا ننتظر أن تكون السياسة التى تدور حول العلاقات بين أمراء الإسلام فى محيط الدولة العباسية المتفككة — يجب ألا ننتظر أن تكون تلك السياسة عاملا خطيراً فى فن الهجاء فى ظل

سيف الدولة ، بل إننا لا نكاد نجد لها أثرا فى ذلك الفن إلا فى شعر ثلاثة من شعراء سيف الدولة ، هم : أبو فراس والسرى الرفاء والمتنبى .

فأما أبو فراس فلا يخرق القاعدة التى قدمنا بها للكلام عن هذا الغرض لأن أبا فراس أمير ، ولم يكن من الشعراء المتكسبين الذين يجوبون الآفاق من أجل العطاء الذى ينال فى رحاب الملوك والأمراء .

وقد كان أبو فراس فى فخره يعرض بخصوم الحمدانيين السياسيين ، وينوه بأفضال سيف الدولة فى مجاهدة هؤلاء الأعداء والتغلب عليهم ، كقوله فى رائيته المطولة :

وصب على الأتراك نقمة منعم رماه بكفران الصنيعة غادر

وقوله :

فلما رأى الإخشيدُ ما قد أظلَّهُ تلافاه يثنى غربه ويكاشر

رأى الصهر والرِّسْلَ الذى هو عاقد ينال به مالا تنـال العساكر

بل لقد دفعه تشيعه ونزعته العربية إلى أن يصب هجاءه على العباسيين ، وأن يستصرخ من حوله من الناس للانتقام لدين الله والانتصار لبنى على المشردين فى ديارهم ، المظلومين فى أرضهم على حين أمر الملك فى الدولة العباسية يدبره الخدم ويصرفه النساء[1] ، كما يقول :

يا للرجـال أما للدين منتصف من الطغاة أما للدين منتقم

بنـو على رعايا فى ديارهم والأمر تملكه النسوان والخدم

ويتعرض لهؤلاء الملوك والأمراء المنافسين للحمدانيين ، بصدد تقريع العباسيين وإظهار ضعفهم والتهكم بهم ، إذ يدعون الخلافة ويسمون خلفاء

(١) شاعر بنى حمدان ص ٧٩ .

مع أن أمر الخلافة الحق إنما هو بأيدى العجم ، فأى فخر لهم ، وغيرهم هو الآمر المحتكم[1] :

أبلغ لديك بنى العباس مألكة ... لا تدعوا ملكها أملاكها العجم

أى المفاخر أمست فى منابركم ... وغيركم آمر فيهن محتكم

وهل يزيدكم من مفخر علم ... وفى الخلاف عليكم يخفق العلم

وهو فى هذه القصيدة ينعى على العباسيين انغماسهم فى الترف واستباحة ما حرم الله ، على حين قد تمسك العلويون بالدين ، وازدانوا بالتقوى والورع ، وحفظوا أنفسهم مما يجلب غضب الله وسخطه . فهو يقول :

منكم علية أم[2] منهم وكان لكم ... شيخ المغنين إبراهيم أم لهم

ماف ديارهم للخمر معتصر ... ولا بيوتهم للسوء معتصم

ولا تبيت لهم خنثى تنادمهم ... ولا يرى لهم قرد له حشم

* * *

لم يكن أبو فراس إذن بوقا لسيف الدلة كالشعراء المكتسبين ، وإنما كان أميرا شعره يعبر عن خلجات نفسه وخواطره ، وما قاله فى سيف الدولة من المدح إنما دفعه إليه صلة النسب والقرابة وفضل الرعاية والتربية . فأبو فراس فى المدح أو فى الهجاء لم يكن باعثه شيئا غير التعبير عن خواطر شخصه ، وهو الأمير الحمدانى الذى يشعر بكيانه وشخصيته فى ظلال سيف الدولة . وما أصدقه إذ يقول :

نطقت بفضلى وامتدحت عشيرتى ... وما أنا مداح وما أنا شاعر

* * *

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٠ .

(٢) علية بنت المهدى أخت الرشيد مغنية مشهورة وإبراهيم بن المهدى أخو الرشيد مغن مشهور كذلك .

وأما السرى الرفاء فقد نشأ فى ظل الحمدانيين فى الموصل أولا ، وفى حلب ثانياً . ولهذا كان هجاؤه السياسى كثيرا ما يكون الدافع إليه عاطفته الوطنية . فقد كانت تلك العاطفة تدفعه إلى هجاء خصومهم من بنى بويه الذين كانوا أحيانا يغيرون على الموصل مسقط رأسه ومرباه ، وينفردون دون الحمدانيين بالسلطان فيها .

ومن ذلك ما يحدثنا به التاريخ من أنه لما امتنع ناصر الدولة عن إرسال الأموال المقررة عليه لدار الخلافة ، أو بالأحرى للبويهيين أرباب السلطان إذ ذاك فى بغداد — استولى معز الدولة البويهى على الموصل ونصيبين وأرغم ناصر الدولة على الهرب إلى ميافارقين ثم إلى حلب لدى أخيه سيف الدولة[1] . فقال السرى قصيدة يمدح سيف الدولة ويذكر ذلك الحادث . ومن هذه القصيدة قوله يهجو معز الدولة والبويهيين ، ويحث الحمدانيين على استرجاع بلادهم التى بها جثث الآباء والأجداد :

أرى الخائن المغرور نام بأرضكم ... كأن المنايا الحمر عنه نيام

تسنم أعـــلام الديار وأنتم ... لمن حل فيها غارب وسنام

فشق على الماضين من عظمائـكم ... وهم رمم فى تربهـــا وعظـام

منازل مرفوع لحاضركم بها ... قباب وللبادى الأغر خيام

تهلل منها الغيث وهى عوابس ... وأسفر منها الصبح وهى ظلام

فعودوا ليحتل الندى فى خلالها ... ويرحل لؤم حلها ولئام[2]

(١) تكملة الخبر — أن ناصر الدولة بعد ذلك حاول إبرام الصلح مع معز الدولة ولكنه لم يتم إلا بعد أن تدخل سيف الدولة الحمدانى وأخذ على عاتقه أداء ما على أخيه من الأموال — تاريخ الإسلام السياسى والثقافى والاجتماعى ج ٣ ص ١٣٥ . « نخبة تاريخية أدبية » لكانار ص ٢٤٣ .

(٢) ديوان السرى ص ٣٣٦ و ٣٣٧ .

وتلمح فى هذه الأبيات العاطفة الوطنية فى ندائه للحمدانيين أن ينقذوا هذه الديار من البويهيين اللئام ، وكأنه أشد رغبة من الحمدانيين فى طرد هؤلاء المغيرين الذين ألقوا فى قلوب أهلها الرجفة والفزع .

وأما المتنبى فهو مع أنه شاعر متكسب — كان له شخصية خاصة تفترق عن سائر الشخصيات المتكسبة بشعرها فى ذلك الزمان . كان المتنبى معتدا بنفسه ، وكثيرا ما كان يركب فى سبيل ذلك متن الشطط ، فلا يحسب المستقبل حسابا يجعله يأخذ نفسه بالحيطة فيما يقول أو يفعل . هذا إلى أنه كان يرى فى سيف الدولة صورة نفسه الأبية العربية النزعة الشجاعة الطموح ، فكان حين يمدحه ، ويعجب بمضائه وحسن بلائه — لا يملك نفسه أن يعيب أولئك الملوك الآخرين الذين ينعمون بالحياة واللين وسعة الملك وضخامة الثروة فى غير مشقة ولا جهد . فكان تعرضه لغير سيف الدولة من الملوك والأمراء إرضاء لنزعته هو وتوافقا مع شخصيته أولا ؛ ثم إرضاء لسيف الدولة موضع تقديره وإعجابه ثانيا . ولقد كان سيف الدولة حين يظهر على بعض ما دبر له من الكيد فى العراق أو فى مصر يغرى شاعره المتنبى بأن يمس هذه الناحية من نواحى السياسة الإسلامية ؛ فلا يتردد فى أن يعرض بأصحاب السلطان فى مصر والعراق تعريضا خفيا مرة ، وواضحا يكاد يبلغ التصريح مرة ، وكل ذلك يجىء عرضا فى قصائد المدح والوصف لما كان من جهاد سيف الدولة لعدوه من الروم . ومن تعريضه الخفى ماورد فى قصيدتين له ، قالهما يمدح سيف الدولة — حين فسد الأمر بين أخيه ناصر الدولة فى الموصل ، وبين معز الدولة البويهى فى بغداد . قال الأولى يصور اضطراب الأمر فى الموصل ، وما أدى إليه ذلك من وحشة فى حلب ، ومن فساد العلاقة بينها وبين بغداد — ويهدد وينذر :

على الفرات أعاصير وفى حلب توحش لملقى النصر مقتبل
تتلو أسنته الكتب التى نفذت ويجعل الخيل أبدالا من الرسل
يلقى الملوك فلا يلقى سوى جزر وما أعدوا فلا يلقى سوى نفل

وكأن إذاعة الأخبار بأن سيف الدولة يريد أن يزحف لنصر أخيه لاتكفى فى إنذار بغداد ورفع الضغط عن الموصل ، فيظهر سيف الدولة أنه آخذ فى الزحف ، ويطلب إلى المتنبى أن يصحبه ، ويتقدم إليه سرا فى أكبر الظن أن يقول شعرا فى ذلك ، فيقول المتنبى قصيدة أخرى تأتى فيها هذه الأبيات ،

وله وإن وهب الملوك مواهب در الملوك لدرها أغبار
لله قلبك ما تخاف من الردى ويخاف أن يدنو إليك العار
وتحيد عن طبع الخلائق كله ويحيد عنك الجحفل الجرار
يامن يعز على الأعزة جاره ويذل من سطواته الجبار

ولما نهض سيف الدولة لقتال الروم وأتم بناء مرعش[(١)] — مدحه المتنبى ببائيته المعروفة ، ولكنه ختم هذه البائية بأبيات لايعرض فيها بمنافسيه من ملوك الإسلام ، وإنما يصرح بذمهم وسبهم فى غير احتياط ، ويخص المصريين بشىء قاس من هذا الذم ، وذلك حيث يقول :

كفى عجبا أن يعجب الناس أنه بنى مرعشا تبا لآرائهم تبا
وما الفرق ما بين الأنام وبينه إذا حذر المحذور واستصعب الصعبا
لأمر أعدته الخلافة للعدا وسمته دون العالم الصارم العضبا

---

(١) مرعش أول الثغور مما يلى جبل اللكام أخربتها الروم سنة ٣٣٧ هـ فبناها سيف الدولة بن حمدان فى سنة ٣٤١ وجاء الدمستق ليمنع من بنائها فقصده سيف الدولة فولى هاربا وتمم سيف الدولة عمارتها « نخبة تاريخية أدبية . . » ص ٩٥ ، ٩٦ .

ولم تفترق عنه الأسنة رحمة ولم تترك الشام الأعادى له حبا

ولكن نفاها عنه غير كريمة كريم الثنا ما سب قط ولا سبا

ولكن نفاها عنه غير كريمة كريم الثناء ما سب قط ولا سبا

وجيش يثنى كل طود كأنه خريق رياح واجهت غصنا رطبا

كأن نجوم الليل خافت مغاره فمدت عليها من عجاجته حجبا

فمن كان يرضى اللؤم والكفر ملكه فهذا الذى يرضى المكارم والربا

فهو يسب الذين أكبروا من سيف الدولة بناءه مرعش ، وهو هنا مصانع للخلافة لا يعرض لصاحبها بأذى ، ولكنه يصارح المصريين بالعداء ، فيعلن أنهم لم يتركوا ما تركوا من الشام لسيف الدولة حبا له ، وإنما نفاهم عنه نفيا ، ثم يختم القصيدة ببيت قصد به معز الدولة ، فرماه بأنه يقيم ملكه على اللؤم والكفر ، على حين يقيم سيف الدولة ملكه على ابتغاء مرضاة الله .

وهو إذا كان فى هذه القصيدة مصانعا للخليفة ، غير متعرض له بالسوء — فإنه فى القصيدة التى أنشدها سيف الدولة فى ميدان حلب عند عرض الجيش وهما على فرسيهما مهنئا له بعيد الأضحى — يهاجم الخليفة تصريحا لا تلميحا ، وذلك حيث يقول :

فوا عجبا من دائل أنت سيفه أما يتوقى شفرتى ما تقلدا

ومن يجعل الضرغام للصيد بازه تصيده الضرغام فيما تصيدا

وفى آخر قصيدة أنشدها المتنبى بحلب قال هذا البيت الذى لاشك فى أنه لم يرد به إلا أهل العراق :

ألهى الممالك عن فخر قفلت به شرب المدامة والأوتار والنغم (١)

---

(١) مع المتنبى ج ٢ س ٤٦٤ — ٤٧٤ بتصرف .

على أنه إذا كان هجاء أعداء سيف الدولة من منافسيه من أمراء الدولة الإسلامية — مناطا للحذر والحيطة ، فمما لا ريب فيه أن هجاء الروم — أعداء الدولة الإسلامية جميعا — على النقيض من ذلك ، بعيد عن تحرج الشعراء ، ولولا أن كثيرا من شعراء سيف الدولة لم يكونوا بفطرتهم ممن يعنيهم الجانب الحربى كثيرا ، فقصروا فى شعر الحماسة أو انصرفوا عنه ، وبالتالى انصرفوا عن هجاء الروم الذين كانت حروب سيف الدولة معهم أقوى باعث على الشعر الحماسى — لولا ذلك لخلفت لنا حروب الروم السيفية هجاء أكثر مما نراه بأيدينا .

ومن أبلغ ما قيل فى هذا الصدد قول المتنبى يهجو الدمستق :

أفى كل يوم ذا الدمستق مقدم   قفاه على الإقدام للوجه لائم
أينكر ريح الليث حتى يذوقه   وقد عرفت ريح الليوث البهائم
وقد فجعته بابنه وابن صهره   وبالصهر حملاتُ الأمير الغواشم
مضى يشكر الأصحاب فى فوته الظبا   لمـــا شغلتها هامهم والمعـــاصم
ويفهم صوت المشرفية فيهم   على أن أصوات السيوف أعاجم
يسر بما أعطاك لا عن جهالة   ولـكن مغنوما نجا منك غانم
ولست مليكا هازما لنظيره   ولـكنك التوحيد للشرك هازم

وقد لاقى أبو فراس خاصة من الروم ما لاقى فى إبان أسره من الإهانة فى الـكرامة ومحاولة المساس بالدين ، مما جعله يقذع فى هجائهم . ففى مناظرة جرت بينه و بين الدمستق — قال هذا : مالـكم وللحرب ؟ إنما أنتم كتاب . فقال له أبو فراس : نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام ؟ ثم ذكر له أسماء الوقائع وأسماء الأسرى حتى يكون لـكلامه ميزة الصدق والابتعاد عن

الفخر الكاذب الذى لا دليل عليه . وفى قصيدته التى يذكر فيها خير هذه المناظرة يقول :

أتزعم ياضخم اللغاديد أننا ... ونحن أسود الحرب لا نعرف الحربا
فويلك من للحرب إن لم نكن لها ... ومن ذا الذى يضحى ويمسى لها تربا

* * *

لقد جمعتنا الحرب من قبل هذه ... فكنا بها أسدا وكنت بها كلبا

* * *

بأقلامنا أجحرت أم بسيوفنا ... وأسد الشرى قدنا إليك أم الكتبا[1]

وحدث مرة أخرى أن كان الدمستق تحيط به بطارقته ، يحاول أن يشرح لأبى فراس الحلال والحرام ، فقال أبو فراس متعجبا :

أما من أعجب الأشياء علج ... يعرفنى الحلال من الحرام
وتكنفه بطارقة تيوس ... تبارى بالعثانين الضخام
لهم خلق الحمير فلست تلقى ... فتى منهم يسير بلا حزام[2]

* * *

وأما السياسة الداخلية فنحن نعلم أن الحياة الداخلية فى ملك سيف الدولة لم تكن كلها أمنا وهدوءا ، وإنما كانت تضطرب وتفسد من حين إلى حين[3]. هذا إلى أن بعض الدعوات الهدامة كانت تجد طريقاً إلى هذه القبائل أحياناً ، فتساعد على انتشار الثورة بينها ، كالذى حدث من فتنة القرامطة فى بادية السماوة ، وأسرهم والى سيف الدولة على حمص . بل كان بعض خصومه السياسيين من الأمراء المنافسين له يساعد على نشر الثورة بين هذه القبائل ، حتى يضطرب

---

(١) شاعر بنى حمدان ص ٦٥ — اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ ج ١ ص ٩٥
(٢) ديوان أبى فراس ج ٢ ص ٣٧٣ .
(٣) مع المتنبى ج ٢ ص ٤٠١ .

أمر الحمدانيين فى حلب . ولابد لنا أن نفترض هنا تحرج الشعراء إزاء هجاء هذه القبائل المنتقضة على حكم سيف الدولة ، أو التعريض بهم — كما افترضناه إزاء هجاء الأمراء المنافسين للحمدانيين أو التعريض بهم ، بل إن افتراض ذلك التحرج هنا أولى من افتراضه هناك ، فلم يكن من السهل على الشاعر أن يمس هذه القبائل بأذى من القول ، فيسلم من عدوانها و بطشها ، وهو يعيش قريباً منها . و إذا اعتمد على احتمائه بسيف الدولة فقد لاينفعه ذلك كثيرا ، فسيف الدولة نفسه لم يسلم من عدوانهم وخروجهم عن طاعته وأسر عامله . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت هذه القبائل العربية عدة سيف الدولة وعتاده فى صراعه الخارجى ، ولا سيما مع الروم . ومن يدرى فلعل سيف الدولة لم يكن يسره أن تنالهم ألسنة الشعراء بما تنال غيرهم من الخصوم بالهجاء والتجريح ؟

كل هذه الأمور كان الشعراء يعرفونها — ولا ريب — فيعلمون أن هجاء هذه القبائل شائك صعب غير ميسور لكل شاعر يود أن يطرق هذا الباب ، ليشد أزر السياسة الحمدانية . ونحن لا نكاد نجد فى الشعر الحمدانى هجاء أو تعريضاً بهذه القبائل إلا فى شعر بعض رجال سيف الدولة الذين لهم من قوتهم وعصبيتهم —ما يجعلهم لا يرهبون هذا المسلك الوعر . ومع ذلك فإنهم قد سلكوه فى حيطة وحذر ، مبتعدين فيه فى أكثر الأحيان عما لا يليق بكرامة هذه القبائل العربية ، فى بيئة تعتز بالعروبة وتفخر بها — ومن هؤلاء أبو فراس الحمدانى وأبو أحمد عبد الله بن ورقاء الشيبانى [١] ، و إلا فى شعر المتنبى الذى كان فذا بين الشعراء المتكسبين فى ذلك العصر ، كما ذكرنا آنفاً . وحسبك أن المتنبى قد هجا مع الروم من خذلوا سيف الدولة من رجال جيشه فى الحرب التى وقعت بينه و بين هؤلاء سنة ٣٣٩ هـ ، والتى انكسر فيها المسلمون بعد أن كانوا

---

(١) من رؤساء عرب الشام والمختصين بسيف الدولة اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ ج ١ ص ٧٧ .

منتصرين . ولم ير المتنبي فى ذلك الهجاء حرجاً على نفسه ، مع أن ذلك الهجاء كان من العوامل التى أفسدت عليه الجو فى رحاب سيف الدولة ، وكادت تودى بحياته هناك . على أن المتنبي كان فى معظم هجائه وتعريضه إزاء هذه الثورات القبلية خفيف الوقع ، بل كان أقرب إلى العتـاب والنصح والعطف منه إلى الهجاء . ولنذكر بعد ذلك أمثلة من هذا الهجاء الذى أنتجته السياسة الداخلية .

فى سنة أربع وأربعين وثلثمائة تجمعت قبائل من قيس وثارت على ملك سيف الدولة ، فنهض لها الأمير ، وأخمد ثورتها . وفى ذلك يقول أبو فراس :

فلما أيقنوا ألا غيـــاث　　دعوه للمغوثة فاستجـــابا
وعاد إلى الجميـــل لهم فعادوا　　وقد مدوا لصارمه الرقابا

ويقول أبو أحمد الشيبانى :

وإنهم لما استهاجوا صيـــاله　　وما كان عن مستوجب البطش وانيا
كمن شب نارا فى شعار ثيابه　　وهيج ليثا للفريسة ضاريا

ويقول المتنبي عاتباً على الثائرين تمردهم على سيف الدولة ، ومحاولتهم بهذا التمرد أن يصرفوه عن جهاد الروم :

فما حرموا بالركض خيلك راحة　　ولـكن كفاها البر قطع الشواهق
ولا شغلوا صم القنا بقلوبهم　　عن الركز لـكن عن قلوب الدماسق

وفى السنة السابقة لتلك الواقعة كان بنو كلاب قد أحدثوا حدثا وارتحلوا ، فلحقهم سيف الدولة ، وردهم إلى الطاعة . يقول المتنبي معرضاً بالمحرضين على تلك الثورة :

وجرم جره سفهاء قـــوم　　وحل بغير جارمه العذاب ..

ويقول عاتباً على الثائرين عليهم على تحويل الأمير عن قتال أعدائه من الروم إلى قتاله أوليائه من العرب :

وكنت السيف قائمه إليهم وفى الأعداء حدك والغرار
فأمست بالبدية شفرتاه وأمسى خلف قائمه الحيار

ويقول أبو فراس بعد قتل سيف الدولة الزعيم القرمطى ، صاحب الفتنة فى بادية السماوة :

وآب ورأس القرمطى أمامه له جسد من أكعب الرمح ضامر

ويقول المتنبى فى هذه الوقعة ، وهو من أشد ماقيل من الهجاء الذى أنتجته السياسة الداخلية :

فلقين كل ردينيـــة ومصبوحة لبن الشائل
وجيش إمام على ناقـــة صحيح الإمامة فى الباطل

ويقول :

وليس بأول ذى همة دعته لما ليس بالنائل
يشمر للج عن ســـاقه ويغمره الموج فى الساحل

ويعرض بل يصرح باتهام بغداد بالإعانة على سيف الدولة فيقول :

أما للخلافة من مشفق على سيف دولتها الفاصل

* * *

وأما التنافس الأدبى فقد بلغ فى هذا العصر مبلغا عظيما ونستطيع أن نتصور مبلغ هذا التنافس من ذلك الخبر الذى يرويه بعض الأدباء ، إذ قال : « قال لى

بعض أصحاب ابن العميد : قال : دخلت عليه يوما قبل دخول المتنبى ، فوجدته واجما ، وكانت قد ماتت أخته عن قريب ، فظننته واجدا لأجلها ، فقلت : لايحزن الله الوزير ، فما الخبر ؟ قال : إنه ليغيظنى أمر هذا المتنبى واجتهادى فى أن أخمد ذكره ، وقد ورد على نيف وستون كتابا فى التعزية ما منها الا وقد صدر بقوله :

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر ... فزعت فيه بآمالى إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لى صدقه أملا ... شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى

فكيف السبيل إلى إخماد ذكره ؟ فقلت : القدر لا يغالب ، والرجل ذو حظ من إشاعة الذكر ، واشتهار الاسم ، فالأولى ألا تشغل فكرك بهذا الأمر[1] » .

إن التنافس الأدبى كان يضم بين طياته التنافس على المكانة الأدبية التى كانت ترفع اسم الأديب وتعلى ذكره من ناحية ، وتضمن له سعة الرزق ووفرة المال من ناحية أخرى . ولقد ظهر ذلك التنافس بجلاء فى ظل سيف الدولة ومجالسه ، وكانت الرغبة فى الاستئثار بالحظوة لدى الأمير حافزا إلى ذلك التنافس ، ويدلك على ذلك مثلا ما رواه بعض الأدباء . قال : « كان سيف الدولة يميل إلى أبى العباس النامى الشاعر ميلا شديدا إلى أن جاء المتنبى ، فمال عنه إليه ، فغاظ ذلك أبا العباس ، فلما كان ذات يوم خلا بسيف الدولة وعاتبه وقال للأمير : لم تفضل على ابن عبدان السقاء ؟ فأمسك سيف الدولة عن جوابه ، فلج وألح عليه وطالبه بالجواب ، فقال : لأنك لاتحسن أن تقول كقوله :

---

(١) الصبح ص ٨٢ و ٨٣ .

يعود من كل فتح غير مفتخر   وقد أغذ إليه غير محتفل

فنهض من بين يديه مغضبا ؛ واعتقد ألا يمدحه أبدا[١] » .

وإننا لنلحظ أثر ذلك التنافس بين الشعراء فى اعتزاز كل بشعره ، والفخر به ، والغض مما عداه من شعر سائر الشعراء .

ولكن التاريخ الأدبى لايعنى كثيرا بما كان من مظاهر ذلك التنافس فى مجالس سيف الدولة إلا فيما يتعلق بشاعره الكبير المتنبى ، ولعل ذلك إنما كان لأن المتنبى كان أعظم الشعراء لدى سيف الدولة ، وكان هو الخطر الداهم بالنسبة إليهم جميعا ، فاتحدت القوى وتضافرت الجهود لهدم ذلك الطود الأشم الذى علاهم وتطاول عليهم ، والوقوف سدا أمام هذا السيل المنحدر الذى يحاول أن يكتسحهم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحاربوه بمثل السلاح الذى هاجمهم به لأن مكانته العظيمة لدى سيف الدولة كانت تحميه من هجائهم . وعلى النقيض من ذلك ما كانت عليه حال المتنبى فى العراق بعد رحيله إليها من مصر ، فقد أغرت السياسة العراقية الشعراء هناك بهجائه والعبث به والتندر عليه . وقد أشار إلى ذلك الثعالبى[٢] . ومن أجل هذا فإن المنافسة الأدبية بين المتنبى و بين غيره فى حلب لاتكاد تأتى لنا بشعر فى الهجاء من جانب خصومه ، فإن هؤلاء قد عمدوا فى محاربتهم إياه إلى الدسائس والنقد والتجريح ، لا إلى الهجاء الذى تحاشوه اتقاء سيف الدولة الذى كان يرعى شاعره و يقربه إليه حتى فسدت حاله عنده ، على حين كان المتنبى لايفتأ يتحدى هؤلاء الحساد ، و يسخر منهم ، و يهزأ بشعرهم ، فهو يقول لسيف الدولة :

أرى كل يوم تحت ضبنى شويعر   ضعيف يقاوينى قصير يطاول

لسانى بنطقى صامت عنه عادل   وقلبى بصمتى ضاحك منه هازل

---

(١) الصبح ص ٤٠ .

(٢) اليتيمة ج ١ ص ٩٩ .

وأتعب من ناداك من لا تجيبه   وأغيظ من عاداك من لا تشاكل

ويقول لسيف الدولة أيضا :

أرى المتشاعرين غروا بذمى   ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مرا به الماء الزلالا

وكذلك يقول :

غضبت له لما رأيت صفاته   بلا واصف والشعر تهذى طماطمه

ويقول :

ولا تبال بشعر بعد شاعره   قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

ويحدثنا الديوان بأن كاتبا من كتاب الأمير عراقيا ، هو أبو الفرج السامرى قد انتهز فرصة حنق الأمير على الشاعر ، بعد أن أنشد ميميته الرائعة الخالدة :

واحر قلباه من قلبه شبم   ومن بجسمى وحالى عنده سقم

وقد أحاط بالأمير ابن عمه أبو فراس وغيره من منافسى المتنبى ، فاستأذن هذا السامرى سيف الدولة فى أن يذم الشاعر ، فرخص له الأمير فى ذلك ،وانتهى ذلك إلى المتنبى فقال يهجوه :

أسامرى ضُحْكَةَ كل راء   فطنت وكنت أغبى الأغبياء
صَغُرْتَ عن المديح فقلتَ أُهْجَى   كأنك ما صغرت عن الهجاء
وما فكرتُ قبلك فى محالٍ   ولا جربت سيفى فى هباء[1]

* * *

على أن التنافس الأدبى كانت له مظاهر أخرى تعدت الخصومة حول

---

(١) ديوان أبى الطيب طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٣٢٦ .

المتنبى ، فيروى لأبى فراس بيتان فى الهجاء قالهما فى شاعر يدعى الشيظمى :

فى الشيظمى غثاشة وخساسة ... فإذا أدرت الكف فيه تهذبا
كالطبل ليس بمطرب حتى إذا ... كثر اللطام بجانبيه أطربا

وكان بين السرى والخالديين معاداة ، وقد آذاه الخالديان أذى شديدا وقطعا رسمه من سيف الدولة وغيره[1] فنراه يقول مستعطفا سيف الدولة وقد حرمه إنشاد شعره فى حضرته :

علام حرمتنى إنشاد شعرى ... لديك وقد تناشده الأنام
ولى فيك التى تلغى القوافى ... إذا ذكرت ويمتهن الكلام
يقصر عن مداها الريح جريا ... وتعجز عن مواقعها السهام
تناهب حسنها شاد وحاد ... تحث بها المطايا والمدام
لك النعم التى جلت ولكن ... دنوى منك والقرب التمام
وتشريفى القيام إزاء ملك ... ملوك العالمين له قيام
وإحضارى إذا حبرت شعراً ... لتسمع ما أحبر والسلام

وقد ادعى السرى على الخالديين سرقة شعره وشعر غيره ، على أنه هو أيضا كان يدس فيما يكتبه من شعر كشاجم الذى كان ينسخ ديوانه — أحسن شعر الخالديين ، ليزيد فى حجم ما ينسخه ، وينفق سوقه ، ويغلى سعره ، ويشنع بذلك عليهما ، ويغض منهما ويظهر مصداق قوله فى سرقتهما — كما يقول الثعالبى[2] . وقد أنتجت لنا هذه المعاداة بعض الهجاء . فمن ذلك قول السرى من أرجوزة فى أحدهما :

---

(١) مقدمة ديوان السرى نشر القدسى ص ٢ .
(٢) اليتيمة — طبعة سنة ١٩٣٤ — ج ٢ ص ١٠٤ .

بؤسا لعرس الخالدى بوسا   أكل يوم تفتدى عروسا
خلته واعتاضت فتى نفيسا   وفارقت من نتنه ناووسا
فصادفت ربع هوى مأنوسا   وبدلت من رخمه طاوسا
وكيف تهوى وجهه العبوسا   وهى ترى الأقمار والشموسا(١)

وكان أدباء الشام والعراق إزاء هذه الخصومة فرقتين : إحداهما تتعصب على السرى للخالديين ، والأخرى تتعصب له عليهما . ولعل ذلك كان سببا فيما قاله السرى فى هجاء بعض الشعراء غير الخالديين ، واتهامهم بمثل ما اتهم به الخالديين من السرقة ، كقوله فى أبى العباس النامى الذى يقال إنه كان جزارا بالموصل :

أرى الجزار هيجنى وولى   فكاشفنى وأسرع فى انكشاف
ووقع شعره بعيون شعرى   فشاب الشهد بالسم الذعاف
لقد شقيت بمديتك الأضاحى   كما شقيت بغارتك القوافى
توعر نهجها بك وهو سهل   وكدر وردها بك وهو صافى
فتكت بها مثقفة النواحى   على فكر أشد من الثقاف
لها أرج السوالف حين تجلى   على الأسماع أو أرج السلاف
جمعن الحسنيين فمن رياح   معنبرة وأرواح خفاف
وما عدمت مغيرا منك يرمى   رقيق طباعها بطباع جاف(٢)

وقال أبو بكر الخالدى فى هجاء شاعر :

لما تبدى الكوفى ينشدنا   قلنا له طعنة وطاعونا

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٦٦ .

تجمع يا أحمق العباد لنا   شعرك فى برده وكانونا[1]

وقال فى مثل ذلك :

لو أن فى فمه جمرا وأنشدنا   شعرا لماضره من برد إنشاده[2]

* * *

وأما المعانى التى طرقها الهجاء فى ظل سيف الدولة فقد كانت تختلف باختلاف المهجو — فهجاء الأمراء أو التعريض بهم كان بوصفهم بالترف واللهو والانغماس فى اللذات ، على حين سيف الدولة جاد فى الحرب والضرب وحماية حمى الإسلام . كقول المتنبى السابق :

ألهى الممالك عن فخر قفلت به   شرب المدامة والأوتار والنغم

وهجاء الروم إنما كان بوصفهم بالجبن ، ورميهم بالكفر ، كما كان باستهجان هيئة بطاريقهم وزيهم — كالذى رأينا فى الأمثلة السابقة .

ولما كان سيف الدولة عربيا ، وكان خصومه كلهم أو جلهم فى ذلك الزمان من الأعاجم — فقد كان من المعانى التى طرقها الشعراء فى الهجاء تعظيم شأن العروبة ، وتحقير ما عداها . كقول المتنبى ، وقد جلس سيف الدولة تحت قازة من الديباج عليها صور منها صورة ملك الروم :

وفى صورة الرومى ذى التاج ذلة   لأبلج لا تيجان إلا عمائمه

وقول السرى فى بناء الحدث :

أعدته عدويا فى مناسبه   من بعد ما كان روميا مناسبه

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣١ .

(٢) المصدر نفسه .

وأما الهجاء الذى دعت إليه السياسة الداخلية — فقد كان أهم عناصره وأقواها النعى على الثائرين والمحرضين عدم تقديرهم لما يقدمون عليه من شغل الأمير عن عدو المسلمين جميعا ، وهم الروم . وإزاء الدعوة القرمطية خاصة كان ببيان فساد تلك الدعوة مع ضعف القائمين بها عن بلوغ ما يريدون .

تلك هى العناصر الغالبة فى الهجاء السياسى بطرفيه .

وأما الهجاء الشخصى فكان منصبا فى الغالب على الاتهام بالضعف الأدبى وسرقة الشعر ؛ إذ كان التنافس الأدبى هو أكبر الدواعى إليه . وأوضح ما يميز هذا الهجاء الذى أنتجه ذلك التنافس أن الشاعر كثيراً ما يقرن فيه بين الفخر بشعره والغض مما عداه . وقد رأينا المتنبى يقول لسيف الدولة :

ولا تبالِ بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

ويقول :

غضبت له لما رأيت صفاته بلا واصف والشعر تهذى طماطمه

ورأينا السرى يقول فى هجاء النامى :

ووقع شعره بعيون شعرى فشاب الشهد بالسم الذعاف

وهو كذلك يقول فى معرض مديحه لسيف الدولة :

صنت الثناء عن الملوك نزاهة وجعلته وقفا على آلائه
ألفاظه كالدر فى أصدافه لا بل تزيد عليه فى لألائه
من كل ريقة الكلام كأنما جاد الشباب لها بريق مائه
فالشعر بحر نلت أنفس دره وتنافس الشعراء فى حصبائه(١)

(١) ديوان السرى ص ٥ .

والهجاء فى ظل سيف الدولة فى جملته كان ينزع إلى العفة والتعريض وسلب الفضائل النفسية ، وإن كان قد يسف أحيانا فيتعرض لمعايب الخلقة الجسمية أو يمس الأعراض — كما سبق فى هجاء السرى لأحد الخالديين ، أو ينزع إلى الشتم وتقبيح الزى والهيئة — كما فى هجاء أبى فراس للروم ، بل قد تلعب فيه إصبع المجون السافر أحيانا كقول الصنوبرى فى زامرة سوداء :

وكأنما المزمار فى أشداقها . . . .
وترى أناملها على مزمارها كخنافس دبت على ثعبان (1)

ولكن مثل هذا الهجاء فى الشعر الحمدانى كان قليلا — ما فى ذلك من شك — ولعل بيئة سيف الدولة المطبوعة بطابع الفروسية الممتزة بالعروبة وخلالها — كان لها أكبر الفضل فى هذا الطابع الذى أشاد به بعض كبار الأدباء فى فن الهجاء . قال صاحب العمدة : وأنا أرى أن التعريض أهجى من التصريح لاتساع الظن فى التعريض ، وشدة تعلق النفس به ، والبحث عن معرفته ، وطلب حقيقته (2). كما يقول : وأجود ما فى الهجاء أن يسلب الإنسان الفضائل النفسية ، وما تركب من بعضها مع بعض (3) .

ونظرة إلى ما أثر من الهجاء فى ظل سيف الدولة ، ثم إلى ما أثر من الهجاء فى ظل بنى بويه ، ولا سيما أهاجى ابن سكرة وابن الحجاج — ترينا كم كان الهجاء الأول عفيفا بالقياس إلى الثانى ، وما ورد فيه من فحش ومقاذر .

وما لنا نبعد ، وهذا هجاء المتنبى فى ظل سيف الدولة إذا قيس بأهاجيه قبل أن يتصل به ، وبأهاجيه بعد أن فارق ظلاله — لكافور الإخشيدى ، ولضبة

---

(1) الروضيات ص ٧١ .

(2) العمدة ج ٢ ص ١٤٠ .

(3) المصدر نفسه ص ١٤١ .

الـكلابى — يتبين لنا كيف كان المتنبى فى ظل سيف الدولة متسما فى معظم هجائه بسيما العفة والجد والوقار ، على حين كان على النقيض من ذلك ، وهو خارج ظلال الحمدانيين . وأنا أذكر مثالا لهجائه قبل اتصاله بسيف الدولة ، وأدع أهاجيه لـكافور ، وهجاءه لضبة الـكلابى ، فإن ذلك معروف لدى كل من يطلب صورا من الهجاء الذى جاوز الحد فى الإقذاع والإفحاش .

قال المتنبى فى صباه يهجو القاضى الذهبى :

لما نسبت فـكنت ابنا لغير أب ثم امتحنت فلم ترجع إلى أدب

سميت بالذهبى اليوم تسمية مشتقة من ذهاب العقل لا الذهب

ملقب بك ما لقيت ويك به يأيها اللقب الملقى على اللقب .

يقول : ليس لك أب تنسب إليه ، وليس لك أدب تعرف به ، ومع ذلك فلا بد من شىء تنسب إليه لتعرف به ، فنسبوك هذه النسبة التى توهم أن تـكون إلى الذهب مع أنها فى الحقيقة إلى ذهاب العقل . وأنت شين وعار للقبك ، فلقبك ملقى على لقب هو أنت ، وأنت عار وخزى . وقد صدق الواحدى إذ يقول — ومثل هذا الـكلام لا يستحسن ولا يستحق التفسير[١] .

بل لقد كان لشخصية سيف الدولة وإعجاب المتنبى بها — أثر فيما قاله أبو الطيب عند كافور من شعر يعرض فيه بصاحبه القديم . ومهما بلغ فيه من العنف فإنه لم يبلغ حد الإقذاع والإفحاش .

وأشد ما عرض فيه المتنبى بسيف الدولة فى ظل كافور هو قوله :

رأيتـكم لا يصون العرض جاركم ولا يدر على مرعاكم اللبن

جزاء كل قريب منـكم ملل وحظ كل محب منـكم ضغن

---

(١) شرح ديوان المتنبى للبرقوقى جـ ١ ص ٢٥٠ .

وتغضبون على من نال رفدكم   حتى يعاقبه التنغيص والمنن

فأين هذا مما قاله المتنبي فى كافور بعد أن فارقه — من تصوير خلقته والإقذاع فى وصفه وحشد ألفاظ السب والشتم البذيئة المنكرة فى هذا التصوير وذلك الإقذاع ؟

الحق أن الهجاء فى الشعر الحمدانى كان فى طابعه وفى بواعثه — صورة للبيئة الحمدانية إلى حد كبير ، وأن ذلك الفن الشعرى على الرغم من أنه لم يبلغ مبلغ الأغراض البارزة فى ظل الحمدانيين كالمديح والحماسة والوصف ، إلا أنه كان عظيم الخطر فى الدلالة على السياسة الحمدانية وعلى الصراع الأدبى فى حلب فى أيام سيف الدولة ، مما يجعله ركنا قويا فى الإحاطة بتاريخ حلب السياسى والأدبى فى فترة من فترات التاريخ .

(٤) الوصف

تناول الشعر فى ظل سيف الدولة من فنون الوصف :

(ا) وصف الطبيعة   (ب) وصف الخمر

(ح) وصف الآثار الإنسانية

* * *

(١) وصف الطبيعة

انتشر وصف الطبيعة ونما فى ظل سيف الدولة نتيجة لعوامل متعددة : —

(١) وكان العامل الأساسى فى عناية الشعراء بذلك الغرض هو ما تمتاز به البيئة الشامية من المناظر الجميلة المتنوعة التى فصلنا الكلام عنها فى الفصل الأول ، وقلنا : إنها فتنت طائفة من شعراء سيف الدولة ، فتغنوا بها فى شعرهم ، ورسموا منها صورا شتى جعلت لهذا الغرض مكانة بارزة فى شعر ذلك العصر ،

فقد وصفوا الطبيعة الساكنة من الفصول والسحب والأمطار والثلج ، والأنهار والرياض والأزهار والثمار . . . ، ووصفوا الطبيعة المتحركة : أليفها وآبدها ، بريها وبحريها — وإن كان ذلك قليلا بالقياس إلى وصف الطبيعة الساكنة .

فمن وصفهم للطبيعة الساكنة قول الصنوبرى يصف الربيع[(١)] :

يا ريم قومى الآن ويحك فانظرى ... ما للربى قد أظهرت إعجابها
كانت محاسن وجهها محجوبة ... فالآن قد كشف الربيع حجابها
ورد بدا يحكى الخدود ونرجس ... يحكى العيون إذا رأت أحبابها
وشقائق مثل المطارف قد بدت ... حمرا وقد جعل السواد كتابها

* * *

ونبات باقلاء يشبه نوره ... بلق الحمــــام مشيلة أذنابها
والسرو تحسبه العيون غوانيــا ... قد شمرت عن سوقهــا أثوابها
وكأن إحداهن من نفح الصبا ... خود تلاعب موهنا أترابها
لو كنت أملك للرياض صيانة ... يوما لما وطئ اللئــــام ترابها

وقول السرى يصف الربيع أيضاً[(٢)] :

هفــا طربا فى أوان الطرب ... فأنخب أقداحــه كالنخب
وغنى ارتيــاحاً إلى عارض ... يغنى وعــــبرته تنسكب
غيــوم تمسك أفق السماء ... وبرق يكتبــــه بالذهب
وخضراء ينثر فيها الندى ... فريد نـــدى ماله من ثقب

---

(١) الروضيات ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢) اليتيمة — طبعة ١٩٤٧ — تحقيق محمد محيى الدين — جـ ٢ ص ١٦٩ .

فأنوارها مثل نظم الحلى   وأنهارها مثل بيض القضب
حللت بها مع ندامى سلوا   عن الجد واشتهروا باللعب
وأغنتهم عن بديع السماع   بدائع ما ضمنته الكتب
وأحسن شىء ربيع الحيا   أضيف إليه ربيع الأدب

وقوله الصنوبرى فى الخريف(١) :

ماقضى فى الربيع حق المسرا   ت مضيع زمانه فى الخريف
نحن منه على تلقى شتاء   يوجب القصف أو وداع مصيف
فى قميص من الزمان رقيق   ورداء من الهواء خفيف
يرعد الماء منه خوفاً إذا ما   لمسته يد النسيم الضعيف

وقول النامى يصف السحاب(٢) :

خليلى هل للمزن مقلة عاشق   أم النار فى أحشائها وهى لاتدرى
أشارت إلى أرض العراق فأصبحت   وكاللؤلؤ المبتول أدمعها تجرى
تسربل وشيا من خروز تطرزت   مطارفها طرزا من البرق كالتبر
سحاب حكت ثكلى أصيبت بواحد   فعاجت له نحو الرياض على قبر
فوشى بلا رقم ونقش بلايد   ودمع بلا عين وضحك بلا ثغر

وقول السرى فى يوم من أيام الشتاء(٣) .

يوم خلعت به عذارى   فعريت من حلل الوقار

---

(١) ديوان الصنوبرى — الجزء الثانى المصور .
(٢) اليتيمة — طبعة سنة ١٩٤٧ — جـ (١) ص ٢٣١ .
(٣) ديوان السرى ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

وضحكت فيه إلى الصبا والشيب يضحك فى عذارى
متلون يبدى لنا طرفا بأطراف النهار
فهواؤه سكب الردا ء وغيمه جافى الإزار
يبكى فيجمد دمعه والبرق يكحله بنار

وقول الصنوبرى فى يوم كثر فيه الثلج [١] :

ذهب كئوسك يا غلام فإن ذا يوم مفضض
الجو يجلى فى الرياض وفى حلى الدر يعرض
أتظن ذا وردا وذا ثلجا على الأغصان ينفض
ورد الربيع ملون والورد فى كانون أبيض

وكذلك قوله [٢] :

تعالى الله خالق كل شىء بقدرته وبادىء كل نفس
لقد أضحى جميع الأرض تجرى كواكبه بسعد لا بنحس
ألم تر كيف قد لبست رباها من الثلج المضاعف أى لبس
ثيابا لاتزال تذوب لينا إذا الأيدى عرضن لها بلمس
كأن الغيم مما بث منه على أرجائها أنداف برس

وكذلك قول كشاجم [٣] :

الثلج يسقط أم لجين يسبك أم ذا حصى الكافور ظل يفرك

---

(١) شعر الطبيعة ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٢) ديوان الصنوبرى — الجزء الثانى المصور .

(٣) ديوان كشاجم — طبع بيروت سنة ١٣٤٣ — ص ١٤٠ .

راحت به الأرض الفضاء كأنها   من كل ناحية بثغر تضحك
شابت ذوائبها فبين ضحكها   طربا وعهدى بالمشيب ينسك
أو فى على خضر الغصون وأصبحت   كالدر فى قضب الزمرد يسلك
وتزين الأشجار منه ملاءة   عما قليل بالرياح تهتك
كانت كعود الهند عريا فاكتست   فى لون أبيض وهو أسود حالك

وقول الصنوبرى فى نهر قويق(١) :

قويق إذا شم ريح الشتا   ء أظهرتيها وكبرا وعجيبا
وناسب دجلة والنيل والـ   ـفرات بهاء وحسناً وطيبا
وإن أقبل الصيف أبصرته   ذليلا حقيراً حزينا كئيبا
إذا ما الضفادع نادينه   قويق قويق أبى أن يجيبا

وكذلك قوله(٢) :

قويق إذا شم ريح الشتاء   تشم الخلافة من جيبه
وفى الصيف وغد متى عبته   فلست ملوما على عيبه

وكذلك قول كشاجم(٣) :

والنهر بين اعتدال   من سيره وتأود
كأفعوان تلوى   ثم استوى وتمدد
كأن فيه سيوفا   مهنـدات تجرد

---

(١) الروضيات ص ٤٥ .
(٢) بغية الطلب — نسخة خطية بدار الكتب — الجزء الثالث .
(٣) ديوان كشاجم المخطوط ص ٤٨ و ٤٩ .

فتارة هي تنفضي وتارة هي تغمد

وقول الصنوبرى يصف رياض نهر قويق[1] :

رياض قويق لاتزال مروضة يجاور فيها أحمر اللون أبيضه
يعارضنا كافوره كل شارق إذا ما الصبا مرت به متعرضه
لدى الموجان المستفادة عنده معان على حث الكئوس محرضه
إذا ماطفا النيلوفر الغض فوقه مفتحة أجفانه أو مغمضه
حسبت نجوما مذهبات تتابعت فرادى ومثنى فى سماء مفضضه

وقول كشاجم يصف روضا[2] :

وروض عن صنيع الغيث راض كما رضى الصديق عن الصديق
إذا ما القطر أسعده صبوحا أتم له الصنيعة فى الغبوق
يعير الريح بالنفحات ريحا كأن ثراه من مسك فتيق
كأن الطل منتثرا عليـه بقايا الدمع فى الخد المشوق
كأن غصونه سقيت رحيقا فماست ميس شراب الرحيق
كأن شقائق النعمان فيـه مخصرة شقائق من عقيق
يذكرنى بنفسجه بقايا صنيع اللطم فى الوجه الرقيق

وكذلك قوله فى رياض حلب[3] :

أرتك يد الغيث آثارها وأعلنت الأرض أسرارها

---

(١) الروضيات ص ٤٥ .

(٢) ديوان كشاجم — مخطوط بدار الكتب .

(٣) المصدر نفسه .

وكانت وأ كنت لسكانونها حبيبا فأعطته آذارها
يفتح فيها نسيم الحيا خلافا فيهتك أستارها
وتسفح فيها دماء الشقيق إذا ظل يفتض أبكارها
ويدنى إلى بعضها بعضها كضم الأحبة زوارها
كأن تفتحها بالصبا عذارى تملك أزرارها
يغض لنرجسها أعينا وطورا تحدق أبصارها
إذا مزنة سكبت ماءها على بقعة أشعلت نارها
وما أمتعت جارها بلدة كما أمتعت حلب جارها
هى الخلد تجمع ما تشتهى فزرها فطوبى لمن زارها
إذا ما أمد قويق السماء بها فأمدته أمطارها
وأقبل ينظم أنجادها بفيض المياه وأغوارها
فأرضع جناته دره فنمنم بالنور أشجارها

وقول الصنوبرى فى الشقيق يحيط به الورد[1] :

قد أحدق الورد بالشقيق خلال بستانك الأنيق
كأن حوله وجوه مستشرفات إلى حريق

وقوله فى النرجس[2] :

أرأيت أحسن من عيون النرجس أم من تلاحظهن وسطه المجلس
درر تشقق عن يواقيت على قضب الزمرد فوق بسط السندس

(١) الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٤٣١ .
(٢) الروضيات ص ١٩ ، ٢٠ .

أجفان كافور حففن بأعين من زعفران ناعمات الملمس
فكأنها أقمار ليل أحدقت بشموس أفق فوق غصن أملس
مغروروقات من ترقرق طلها ترنو رنو الناظر المتفرس
وإذا تغشتها الرياح تنفست عن مثل ريح المسك أى تنفس

وكذلك قول الببغاء[١] :

ونرجس لم يعد مبيضه الا كأس ولا أصفره الراحا
تخال أقحاف لجين حوت من أصفر العسجد أقداحا
كأنما تهدى التحايا به لطفا إلى الأرواح أرواحا
يلهى عن الورد إذا ما رنا ويخلف المسك إذا فاحا
أحبب به من زائر راحل عوض بالأحزان أفراحا
فانتهز الفرصة فى قربه وكن إلى اللذات مرتاحا

وكذلك قول الوأواء[٢] :

نرجسة لما تزل محدقة لم تكتحل قط لذة الغمض
أمالها القطر فهى باهتة تنظر فعل السماء بالأرض

وقول السرى فى النيلوفر[٣] :

ياحسن نيلوفر شغفت به يمنحه الماء صفو مشروبه
كأنه عاشق به ظمأ توهم الماء ريق محبوبه

---

(١) اليتيمة — طبعة سنة ١٩٤٧ — ج ١ ص ٢٦٥ .
(٢) ديوان الوأواء ص ١٣٦ ، ١٣٧ .
(٣) ديوان السرى ص ٦٢ .

وكذلك قوله[1] .

صفر مدار نصبها شرف مفتضج عند نشرها العطر
تحملها خيزرانة ذبلت ذبول صب أدله الهجر
كأنها إذا زهت بألسنة أنطقها للمهيمن الذكر
خناجر من حناجر نزعت فهى من الماء من دم حمر

وقول يصف نارنجة[2] :

وبديعة أضحى الجمال شعارها صبغ الحياء رداءها وإزارها
حلت نسيم عقالها وتوشحت بالأرجوان وشددت أزرارها
فالعين تحسر إن رأت إشراقها والنفس تنعم إن بلت أخبارها
فكأنها فى الكف وجنة عاشق عبث الحياء بها فأضرم نارها
محمولة حملت مجاجة عنبر فإذا سرى ركب النسيم أثارها
أمنت على أسرارها ريح الصبا وهنا فضيعت الصبا أسرارها
وكأنما صافحت منها جمرة أمنت يمينك حرها وشرارها
ما أحسب النارنج إلا فتنة هتك الزمان لناظر أستارها
عشقت محاسنه العيون فلو رنت أبدا إليه لما قضت أوطارها

وكذلك قول كشاجم[3] .

كأنما النارنج لما بدت أغصانه فى الورق الخضر

(١) المصدر نفسه ص ١٤١ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٤١ ، ١٤٢ .
(٣) ديوان كشاجم طبع بيروت ص ٨٥ .

زمرد أبدى لنا أنجما معجونة من خالص التبر
إذا تحيانا بها خلتنا نستنشق المسك من الجمر

وقول السرى يصف الليمون[١] :

واصطبحناها على نهـ ـر بصفو الماء يجرى
ظللته شجرات عطرها أطيب عطر
فلك أنجمه الليـ ـمون من بيض وخضر
أكر من فضة قد شابها تلويح تبر
...... إلخ

ومن وصفهم للطبيعة المتحركة قول ابن نباته السعدى يصف فرسا أدهم أغر محجل ، حمله عليه سيف الدولة[٢] :

قد جاءنى الطرف الذى أهديته هاديه يعقد أرضه بسمائه .
أولاية وليتنا فبعثته رمحا سبيب العرف عقد لوائه
يختال منه على أغر محجل ماء الدياجى قطرة من مائه
وكأنما لطم الصباح جبينه فاقتص منه فخاض فى أحشائه
متمهلا والبرق من أسمائه متبرقعا والبدر من أكفائه
ما كانت النيران يكمن حرها لو كان للنيران بعض ذكائه
لا تعلق الألحاظ فى أعطافه إلا إذا كفكفت من غلوائه
لا يكمل الطرف المحاسن كلها حتى يكون الطرف من أسرائه

---

(١) ديوان السرى ص ١٣٣ .
(٢) اليتيمة — طبعة سنة ١٩٤٧ — جـ ٢ ص ٣٩١ ، ٣٩٢ .

وقوله أيضا فى وصف هذا الفرس[١] :

وأدهم يستمد الليل منه ... ويطلع بين عينيه الثريا
سرى خلف الصباح يطير مشيا ... ويطوى خلفه الأفلاك طيا
فلما خاف وشك الفوت منه ... تشبث بالقوائم والمحيا

وقول أبى الفرج الببغا يصف فرسا أيضا[٢] :

إن لاح قلت أدمية أم هيكل ... أو عَنّ قلت أسابح أم جندل
تتخاذل الألحاظ فى إدراكه ... ويحار فيه الناظر المتأمل
فكأنه فى اللطف فهم ثاقب ... وكأنه فى الحسن حظ مقبل

وقول أبى الفرج الوأواء يصف بغلة[٣] :

ملء الحزام وملء العين مسفرة ... يريك غائبها فى الحسن حاضره
أهدى لها الروض من أوصافه شية ... خضراء ناضرة إن زال ناضره

وقول أبى الفرج الببغاء يصف السنجاب[٤] :

قد بلونا الذكاء فى كل ناب ... فوجدناه صنعة السنجاب
حركات تأبى السكون وألحا ... ظ حداد كالنار فى الالتهاب
خف جدا على النفوس فلوشا ... ء ترامى مجاورا للتصابى
واشتهت قربه العيون إلى أن ... خلته عندها أخا للشباب

(١) المصدر نفسه ص ٣٩٢ .
(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .
(٣) ديوان الوأواء ص ٢٧١ ، وروى الثعالبى ذلك الشعر للببغاء : انظر اليتيمة طبعة سنة ١٩٤٧ جـ ١ ص ٢٧٠ .
(٤) شعر الطبيعة ص ١٩٩ .

وقوله يصف الثعلب :[١]

وأعفر المسك تلقاه فتحسبه ... من أدكن الجو مخبوء بخيفان

كأن أذنيه فى حسن انتصابهما ... – إذا هما انتصبا–للحسن زجان

يسرى و يتبعه من خلفه ذنب ... كأنه حين يبدو ثعلب ثان

فلا يشك الذى بالبعد يبصره ... فردا بأنهما فى الخلقة اثنان

وقوله يصف الببغاء[٢] :

تزهى بدواج من الزمرد ... ومقلة كسبج فى عسجد

وحسن منقار أشم قان ... كأنما صيغ من المرجان

صيرها انفرادها فى الحبس ... بنطقها من فصحاء الإنس

تميزت فى الطير بالبيان ... عن كل مخلوق سوى الإنسان

تحكى الذى تسمعه بلا كذب ... من غير تغيير لجد أو لعب

إلخ . . . . . .

(٢) وفضلا على جمال الطبيعة الشامية – توفرت عوامل أخرى ساعدت على نمو هذا الفن « وصف الطبيعة » فى ظل سيف الدولة :

(ا) فمن ذلك ما كان للحضارة الفنية التى نمت فى العصر العباسى من أثر فى تطور فن الطبيعة . ذلك بأنها قدمت من الصور والتماثيل للطبيعة مازاد الشعور بجمالها ، ووضعت أمام الشعراء نماذج فنية تساعد على التجويد والإتقان ، و إن كنا قد عرفنا فيما سبق أن الفن الإسلامى كان فنا بيزنطيا فى طابعه واتجاهه ، فلم يقدم صوراً تحاكى الطبيعة بالدقة التى جرى عليها أرباب الفن من الإغريق لنفور المسلمين من محاكاة الخالق ، ولخوفهم من الرجوع إلى عبادة الأوثان .

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٠ .

(٢) اليتيمة — طبعة سنة ١٩٤٧ — جـ ١ ص ٢٥٤ .

وقد سبقت بيزنطة المسلمين إلى السير فى ذلك الاتجاه ، فلما جاء المسلمون رأوه موافقاً لنزعتهم وروحهم ، فانتهجوه .

ومهما يكن من شيء ، فإن أثر الحضارة الفنية فى نهضة وصف الطبيعة لاسبيل إلى نكرانه . وليس المطلوب من الفنان أن يرسم الطبيعة رسم الصورة الشمسية ، وكلما لعب خياله وشعوره فى تحوير الطبيعة وتغييرها — برز جانب الفن جليا واضحاً .

(ب) هذا إلى ما ألم به الشعراء فى ظل سيف الدولة من الثقافة الشعرية التى برزت فيها عناية كثير من شعراء العباسيين بوصف الطبيعة : كأبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن المعتز وابن الرومى ، ولعل ذلك يرجع إلى أن العصر العباسى قد كمل فيه تحضر العرب وتأثرهم بمشاهدة الأقطار الواسعة والجنات البهيجة ، هذا إلى أن أدبهم فى ذلك العصر قد دخل فى طور الثقافة والصناعة الفنية. ووصف الطبيعة وصفا مسهبا محكما مقصودا لذاته — لا يتأتى إلا بإعمال الفكر ورياضة النظم[١] ، ولم يكن ذلك ميسوراً فى عهد البداوة فى العصر الجاهلى ، ولا فى العهد الذى لم يخلص من البداوة ، ولم يكمل فيه تحضر العرب — وهو العصر الإسلامى .

ومن أوصاف الشعراء فى ظل سيف الدولة ما تلحظ فيه جليا أثر هذه الثقافة الشعرية الوصفية العباسية .

فمن ذلك تأثر الصنوبرى بوصف البحترى لبركة المتوكل — فى قوله[٢] :

سقى حلبا سافك دمعه بطىء الرقوء إذا ماسفك

---

(١) يرجع إلى مقال الأستاذ فخرى أبى السعود (الطبيعة فى الأدبين العربى والإنجليزى) بمجلة الرسالة عدد ١٧٢ من السنة الرابعة سنة ١٩٣٦ .

(٢) الروضيات ص ٢٣ .

ميادينه بسطهن الرياض ... وساحاته بينهن البرك
ترى الريح تنسج من مائه ... دروعاً مضاعفة أو شبك
كأن الزجاج عليها أذيب ... وماء اللجين بها قد سبك
هى الجو من رقة غير أن ... مكان الطيور يطير السمك
كما درج الماء مر الصبا ... ودبج وجه السماء الحبك
يباهين أعلام قمص القيان ... ونقش عصائبها والتكك

وتأثره بوصف ابن المعتز لزهر الآذريون — فى قوله[1] :

كأن آذريونها ... من فوق تلك القضب
خيام مسك فوقها ... سرادق من ذهب

وتأثر الوأواء بوصف ابن المعتز للهلال - فى قوله[2] :

والبدر أول مابدا متلثما ... يبدى الضياء لنا بخد مسفر
فكأنما هو خوذة من فضة ... قد ركبت فى هامة من عنبر

. . . . . . الخ .

(ج) وكذلك كانت العناية بوصف الخمر ومجالسها ـ مما سنتكلم عنه بعد ـ عاملا آخر من عوامل الإقبال على وصف الطبيعة . فكثيرا ما كانت مجالس الخمر تنعقد بين أحضان الطبيعة ، وكثيراً ما امتزج وصف الخمر بوصف الطبيعة .

ومن ذلك قول الوأواء[3] :

---

(١) الروضيات ص ٦٣ .
(٢) ديوان الوأواء ص ١٠٨ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٠٥ — ١٠٨ .

زمان الرياض زمان أنيق وعيش الخلاعة عيش رقيق
وقد جمع الوقت حاليهما فمن ذا يفيق ومن يستفيق
أيامن هو الفوز لى والمنى ومن هو بالحب منى حقيق
تغنم بنا غفلة الحادثا ت فوجه الحوادث وجه صفيق
أدر لحظ عينك وامزجه فى مروج الرياض تجدها تشوق
ترى مزوج الحسن فى مفرد جليل المحاسن فيه دقيق
إذا قابل الزهر زهر الخدود فأين الخلاص وأين الطريق
بهـار بهير به غـيرة على نرجس وشقيق شقيق
فذا عاشق دنف خائف وذا خجل وكذاك العشيق
مداهن يحملن طل الندى فهاتيك تبر وهذا عقيق
ينظم أوراقهـا دره وينثر منها الذى لايطيق
يميل النسيم بأغصانها فبعض نشاوى و بعض مفيق
ويوم ستارته غيمة وقد طرزت رفرفيها البروق
تظل به الشمس محجوبة كأن اصطباحك فيها غبوق
جعلنا البخور دخانا له ومن شرر الراح فيه حريق
سجدنا لصلبان منثورها وقد نصرتنا عليه الرحيق
لدى شجر رافعات الذيول لجرى الجداول فيها شهيق
كأن طيالس غدرانها على هيكل الماء فيها خروق
وقلنا بها ولضوء الصباح على عنبر الفجر منه خلوق

أدر ياغلام كئوس المدام ... وإلا فيكفيك لحظ وريق
وحث الصبوح لوقت الصباح ... فمتسع الهم فيه يضيق

وقول كشاجم[1] :

ياطيب يوم خلاعة وبطالة ... قصرته بتمتع ولذاذة
فى روضة جليت على أبصارنا ... فيما اكتسته بالحلى النابت
والغيث يبكى فى خلال نباتها ... والبرق يضحك فيه ضحك الشامت
والورد كالوجنات والأنفاس من ... ظبى غرير عند ظبى بايت
وتعلق الأترج فى أغصانه ... مثل النهود قد اتسكت أوكادت
وتجاوبت نغم الحمائم بالضحى ... يسجعن بين بلابل وفواخت
يوم حمدت به الزمان وأحكمت ... فيه الشمول على العقول لحارت

(د) وقد كان انتشار الديرة فى بلاد الشام من العوامل التى ساعدت على نمو وصف الطبيعة ، فإن كل دير كان — كما ذكرنا فيما سبق — شبه جنة بما يحف به من الحدائق المملوءة بالأشجار والأزهار ، فأغرم قصاد الأديرة من الشعراء بالطبيعة ، وهتفوا بها وصوروها ضمن ما كانوا يصورون من ألوان العبث والمجون .

فمن ذلك قول الصنوبرى فى دير زكى[2] :

حبذا المرج حبذا العمر لابل ... حبذا الدير حبذا السروتان
قد تجلى الربيع فى حلل الزهـ ... ـر وصاغ الحمام طيب الأغانى

(١) ديوان كشاجم — نسخة خطية بدار الكتب .
(٢) الروضيات ص ٢٩ ، ٣٠ .

زينت أوجه الرياض فأضحت ... وهى تزهى على الوجوه الحسان
أخضر اللون كالزبرجد فى أحـ ... ـمر صافى الأديم كالعقيان
وبهار مثل الزنانير محفو ... ف بزهر الخيرى والحوذان
سقيانى بكل لون من الرا ... ح على كل هذه الألوان

وقوله فى ذلك الدير أيضا(١):

أراق سجاله بالرقمتين ... جنوبى صخوب الجانبين
وأهدى للرصيف رصيف مزن ... يعاوده طرير الطارتين
معاهد بل مآلف باقيات ... بأكرم معهدين ومألفين
يضاحكها الفرات بكل فج ... فتضحك من نضار أولجين
كأن الأرض من حمر وصفر ... عروس تجتلى فى حلتين
كأن عناق نهرى دير زكى ... إذا اعتنقا عناق متيمين
وقت ذاك البليخ يد الليالى ... وذاك النيل من متجاوبين
أقاما كالسوارين استدارا ... على كفيه أو كالدملجين
أيا متنزهى فى دير زكى ... ألم تك نزهتى بك نزهتين
أردد بين ورد نداك طرفا ... تردد بين ورد الوجنتين
ومبتسم كنظمى أقحوان ... جلاه الطل بين شقيقتين
ترانا واصليك كما عهدنا ... وصالا لا تنغصه ببين

---

(١) الديارات للشابشتى — مخطوط بدار الكتب ، والروضيات ص ٢٨ .

وقول الخالدى فى دير « مارت مروثا[١] :

واستشرفت نفسى إلى مستشرف　　للدير تاه بحسنه و بطيبه
فنعمت بين رياضه وغياضه　　وسكرت بين سكوره وعروبه

وقول الصنوبرى فى دير مران و بعض الأماكن الأخرى التى امتازت بجمال طبيعتها[٢] :

متى الأرحل محطوطه　　وعير الشوق مربوطه
بأعلى دير مران　　فداريا .إلى الغوطه
فشطى بردى فى جنـ　　ـب بسط الروض مبسوطه
ربـاع تهبط الأنهـا　　ر منها خير مهبوطه
وروض أحسنت تكتيـ　　ـبه المزن وتنقيطه
ومد الروض والآس　　لنا فيه فساطيطه
ووالى طيره ترجيـ　　ـعه فيه وتمطيطه

(هـ) ونستطيع كذلك أن نقول : إن الترف الذى كان ينعم به الأمراء والحكام ومن يلوذ بهم فى ذلك العصر — قد هيأ لشعر الطبيعة أن ينمو ، لما تهيأ لهؤلاء المترفين من العيش وسط الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء ، ومزاولة الصيد . فقد تناول الشعر وصف هذه المظاهر ، وهى من صميم الطبيعة الساكنة أو المتحركة .

فالصنوبرى مثلا كان له بمدينة حلب حديقة بها قصر فخم ، حوله الغروس والرياحين وشجر النارنج[٣] ، وكان ذلك مما قوى فيه نزعة الإحساس

(١) بغية الطلب فى تاريخ حلب — نسخة خطية بدار الكتب — الجزء الثانى .
(٢) الروضيات ص ٢٧ ، ٢٨ .
(٣) الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٤٣١ .

بجمال الرياض وأزهارها ، وقد عرف فيه صديقه كشاجم إلفه للرياض النضرة والحدائق البهجة ، فكتب إليه فى إحدى قصائده يقول[١] :

فألهتك بساتيـ ـنك ذات النور والزهر
وما شيدت للخلو ة من دار ومن قصر
وما جمعت من غرس ومن فسل ومن بذر
ونارنج وريحان جنى طيب النشر

وهذ السرى الرفاء يصف لنا مسكنه بالموصل ، فيدلنا على ما كان من أثر الترف فى اتجاه بعض الشعراء فى هذا العصر إلى وصف الطبيعة ، لما تهيأ لهم من مساكن تطل على الرياض وتنساب أمامها الأنهار والجداول .

يقول السرى[٢] :

لنا غرفة حسنت منظرا وطابت لساكنها مخبرا
ترى العين من تحتها روضة ومن فوقها عارضا ممطرا
وينساب قدامها جدول كما ذعر الإيم أو نفرا

ومن الشعراء الذين أغرموا بوصف الصيد أبو فراس الحمدانى ، ومن ذلك قوله من أرجوزة طويلة[٣] :

جئت بباز حسن وهبرج دون العقاب وفوق الزمج
زين لرائيه وفوق الزين ينظر من نارين فى غارين
كأن فوق صدره والهادى آثار مشى الذر فى الرماد

(١) شعر الطبيعة ص ٢٠٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢١٨ .
(٣) ديوان أبى فراس ج ٢ ص ٤٤١ .

ذى منسر فخم وعين غائره وأخذ مثل الجبال واقره

ومنهم أبو الفرج الببغاء . ومن طردياته قوله[١] :

يارب سرب آمن لم يزعج غاديته قبل الصباح الأبلج
بزمج أدلق حوش أهوج مضبر المنكب صلب المنسج
ذى قصب عبل أشم مدمج وجؤجؤ كالجوشن المدرج
وعنق سام طويل أعوج ومنسر أقنى فسيح مسرج
متخرج المدخل رحب المخرج ومقلة تشف عن فيروزج
ناظرة من لهب مؤجج وهامة كالحجر المدملج
ومخلب كالمعول المعوج[٢]

ومنهم السرى الرفاء . ومن شعره فى الصيد قوله :

إذا ما دعونا لاحقا ومعانقا وقيد لدينا واثب ومخالس
فذلك يوم جانب السعد سر به وقوبل بالنحس الظباء الكوانس
كأن جلود الوحش بين كلابه وقد هميت أجيادها والمعاطس
مصندلة القمصان شقت جيوبها ورقرق فيها الزعفران الغرائس

ومنهم كشاجم . ومن طردياته قوله يصف الباشق[٣] :

يسمو فيخفى فى الهواء وينكفى عجلا فينقض انقضاض الطارق
وكأن جؤجؤه وريش جناحه خضبا بنقش يد الفتاة العاتق
وكأنما سكن الهوى أعضاءه فأعارهن نحول جسم العاشق

---

(١) نهاية الأرب ج ١٠ س ١٨٤ ، ١٨٥ .
(٢) ديوان السرى س ١٠٦ .
(٣) نهاية الأرب ج ١٠ س ١٩١ .

ذا مقلة ذهبية فى هامة ... محفوفة من ريشها بحدائق
ومخالب مثل الأهلة طالما ... أدمين كف البازيار الحاذق
وإذا انبرى نحو الطريدة خلته ... كالريح فى الأسماع أو كالبارق
وإذا دعاه البازيار رأيته ... أدنى وأطمع من محب وامق
وإذا القطاة تخلفت من خوفه ... لم يعد أن يهوى بها من حالق

وللمتنبي طردية حمدانية قصيرة ، يروى فى مناسبتها أن أبا العشائر أرسل بازيا على حجلة فأخذها ، فقال المتنبي[1] :

وطائرة تتبعها المنايا ... على آثارها زجل الجناح
كأن الريش منه فى سهام ... على جسم تجسم من رياح
كأن رءوس أقلام غلاظ ... مسحن بريش جؤجئه الصحاح
فأقعصها بحجن تحت صفر ... لها فعل الأسنة والصفاح
فقلت لكل حى يوم موت ... وإن حرص النفوس على الفلاح

* * *

وجملة القول إن وصف الطبيعة فى ظل سيف الدولة قدنهض نهضة عظيمة ، وإن العناية بوصف الطبيعة تبدو فى شعر شعراء العصر جميعا ، ولكن أشهر شعراء الطبيعة فى ظل سيف الدولةهم :الصنوبرى و كشاجم والسرى الرفاء والوأواء .

نهض وصف الطبيعة فى الشعر السيفى ، ولكنه مع ذلك بقى سائرا فى اتجاه الوصف الطبيعى للشعر العربى — حسيا خاليا غالبا من الروح والاندماج فى الطبيعةذلك الاندماج الذى نلحظه فى الشعر الغربى . فالطبيعة فى أدبنا بوجه عام

(١) ديوان المتنبي — شرح البرقوق — ج ١ ص ٢٩٥ — ٢٩٧ .

لذة الحس، لا لذة الروح كما هى عند أدباء الفرنجة الذين اتصلوا بالطبيعة بأرواحهم ، ومنحوها من الحب ما يمنحون الأحبة والأصدقاء .

ونظرة إلى العوامل التى ذكرناها فيما سبق « العوامل المؤثرة فى وصف الطبيعة فى ظل سيف الدولة » ، وإلى ما قدمنا من أمثلة لشعر الطبيعة فى العصر السيفى — ترينا أن ذلك الفن لم يخرج عن التيار العام الذى كان يسود الشعر العربى فى وصف الطبيعة « تيار الحس واللذة الحسية » .

فالطبيعة الشامية جميلة تسترعى الحس .

والحضارة العباسية فى جملتها حضارة مادية تنزع إلى الحس أكثر من نزعتها إلى الروح .

والخمر لذة حسية تنال وسط الطبيعة غالبا ، فإذا وصفت الخمر وصفت معها الطبيعة غالبا .

وقد وصفت الديرة وما حولها من زروع وبساتين ، وما فيها من عبث ولذات حسية .

والترف — وهو لذة حسية — قد هيأ من مادة وصف الطبيعة الاستمتاع بالجنات والبساتين والأزهار . . . كما هيأ الاستمتاع بالصيد والطرد .

والثقافة الشعرية المستمدة من الشعراء السابقين قد وجهت الشعراء توجيها حسيا ، إذ لم تكن الطبيعة لدى هؤلاء إلا لذة حسية غالبا .

هذا إلى أن الشعراء بوجه عام — إنما أقبلوا على حلب ابتغاء العطاء والمال ، ليصيبوا من لذاتهم الحسية ماشاءوا . فما الذى ينتظر أن يكون عليه وصف الطبيعة فى ظل سيف الدولة إلا أن يكون مصورا للذة الحس — غالبا — لا لذة الروح ؟

ولنذكر مثلا من الشعر فى ظل سيف الدولة وآخر من الأدب الغربى ، لنوضح ما قررناه .

قال الصنوبرى يمدح الربيع ويذم ماعداه[1] :

إن كان فى الصيف ريحان وفاكهة ... فالأرض مستوقد والجو تنور

وإن يكن فى الخريف النخل مخترفا ... فالأرض عريانة والجو مقرور

وإن يكن فى الشتاء الغيث متصلا ... فالأرض محصورة والجو محصور

ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا ... أتى الربيع أتاك النور والنور

الأرض ياقوتة والجو لؤلؤة ... والنبت فيروزج والماء بلور

ما يعدم النبت كأسا من سحائبه ... فالنبت ضربان سكران ومخمور

فيه لنا الورد منضود مورده ... بين المجالس والمنثور منثور

هذا البنفسج هذا الياسمين وذا الن ... سرين ذا سوسن فى الحسن مشهور

تظل تنثر فيه السحب لؤلؤها ... فالأرض ضاحكة والطير مسرور

حيث التفت فقمرى وفاختة ... فيه تغنى وشفنين وزرزور

إذا الهزاران فيه صوتا فهما ... بحس صوتيهما عود وطنبور

تبارك الله ما أحلى الربيع فلا ... تغرر فقايسه بالصيف مغرور

تطيب فيه الصحارى للمقيم بها ... كما تطيب له فى غيره الدور

فى كل أرض هبطنا فيه دسكرة ... فى كل ظهر علونا فيه ماخور

من شم ريح تحيات الربيع يقل ... لا المسك مسك ولا الكافور كافور

فى هذه القطعة يفضل الصنوبرى الربيع على سائر الفصول . فعرض علينا لوحات لجميع الفصول ، ليظهر منها الفرق بين لوحة الربيع ولوحات ماعداه .

---

(١) الروضيات ص ١٨ ، ١٩ .

عرض علينا لوحات جامدة خالية من الروح والحياة ، وإن كانت متقنة الرسم والتصوير ، ولذلك بدا هذا الشعر كشعر ألفية ابن مالك ، وإن كان الفارق بين هذا وذاك أن الأول نظم حقائق طبيعية ، يمتاز بها كل فصل من فصول السنة — والثانى نظم حقائق نحوية معروفة فى علم النحو .

دع هذه القطعة ، وانتقل إلى قطعة أخرى من الأدب الغربى ، للشاعرة الإنجليزية روث بتر ، تذكر فيها الصيف فصل الحياة عند البيئات الشمالية ، وتفضله على فصل الشتاء فصل الموت فى هذه البيئات :

لا تنادنى والصيف مشرق أيها المـــوت
إنى فى الصـــيف لن أجيب النـــداء
حين يوســـوس العشب ويتمايل بأعطافه
لاترفع الى صوتك بالنداء من تلك الظلال السفلى
حـــين يحن الصفصـــاف ويترقرق الماء
حتى يتوانى الجـــدول ويَتَنفَسُ الهـــواء
حين يتموج اللبـــلاب على الأســـوار
لاتنادنى ، قلت لك لاتنادنى أيها الموت فى ذلك الأوان
إنك عبثا تنادى وترفع الصوت بالنـــداء
فى إبان الأزاهير الناميـــة لن أصغى إليك
لـكننى سأصغى إليك حين يتجرد كل حال وحالية
ومرحبا بدعائك حيث ينتثر الورق من الشجر على ثراه

حين يسمع للسفـــوح نحيح فى العاصف المهتاج
حين يشم الرعاة من الشرق رائحة الثلوج
حين يهجر الحقل للريح تتولى حصـــاده
حين يصبح الإعصار حطاب الوادى الذى يطيح بأعواده
حين يصبح البرد بذرة الأرض التى تنثرها السماء
حين ننفر من كل شىء ولا نتوق إلى شىء
ناد يومئذ ياموت ، ولك الإصغاء والترحاب
فيومئـــذ أسمع وأنهض وأمضى[1]

* * *

فهذه الشاعرة أيضاً قد رسمت لنا لوحتين : إحداها للصيف فصل الحياة ، والأخرى للشتاء فصل الموت فى بيئتها . ولـكن هاتين اللوحتين فيهما حياة وحركة وعواطف وخلجات ، وإذا بحثنا عن سر الحياة فى اللوحتـين وجدنا تلك الصلة الوثيقة بين حياة الطبيعة وحياة الشاعرة . فقد اندمجت فى الطبيعة ، حتى صارت خلية حية فى جسمها ، وهى من أجل ذلك لاتستطيع أن تموت والطبيعة فى فصل الحياة . أما حين يدب الموت فى الأم الـكبيرة فهنا يحس أبناؤها أن لامانع من إجابة داعى الموت ، وذلك حين ننفر من كل شىء ، حين يدب الموت من الداخل تسهل إجابة ندائه من الخارج .

هذا فضلا عن مواضع الجمال الجزئية فى تصوير الطبيعة فى الصيف إبان الحياة ، وفى الشتاء إبان الموت ، وتصوير وسوسات الحيـاة ووسـاوس الموت

---

(١) كتب وشخصيات ص ٦٢ .

هنا وهناك — « حين يوسوس العشب ويتمايل بأعطافه ، يحن الصفصاف ويترقرق الماء ، وحين يتوانى الجدول وينعس الهواء » أو « حين يسمع للسفوح فحيح فى العاصف المهتاج ، وحين يصبح الإعصار حطاب الوادى الذى يطيح بأعواده ، وحين يهجر الحقل للريح تتولى حصاده . . الخ » وإن كانت هذه خطرات مفردة قد تخطر للشعر العربى ، وإن لم تخطر فى مثل هذه الصور ، لأنها منتزعة من بيئة الشمال كما يقول الأستاذ سيد قطب[١] .

(ب) وصف الخمر

أثرت فى هذا الفن ، وعملت على العناية به عوامل عدة ، أهمها : —

أولا — الثقافة الشعرية الموروثة عن بعض الشعراء العباسيين من أمثال أبى نواس . فقد كانت معظم النزعات الأدبية التى تسود الأقطار الإسلامية فى العصر العباسى الثانى — متأثرة بالثقافة الشعرية التى تكونت ونمت خلال العصر العباسى الأول .

وقد اتسع وصف الخمر فى العراق منذ هذا العصر ، وعالجه كثير من كبار الشعراء مثل أبى نواس ، وأضيف إليها وصف سقاتها والأوانى التى تشرب الخمر فيها أو تحفظ ، وانتشرت مجالس الشراب ، ووضعت لها القواعد والقوانين والآداب ، كالذى فعله كشاجم — وهو من شعراء سيف الدولة — فى كتابه « أدب النديم » ، وتفننوا فيما يكتب من الشعر على زجاجات الخمر وكئوسها[٢] .

وهكذا أصبحت الخمريات من الثقافات الشعرية التى يجدر بالشعراء والأدباء أن يلموا بها فيما يلمون من ثقافات . وكان لذلك أثره فى اتجاه بعض الشعراء إلى وصف الخمريات جريا على عادة السلف ، ممن وسعوا هذا الباب وتفننوا فيه.

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٣ .

(٢) ظهر الإسلام ج ١ ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

ومن شعراء سيف الدولة النواسيين الخليع الشامى الذى يقول :

بأى المدامين لم أسكر — بكأسك أم طرفك الأحور
سقيت من الشمس مشمولة — على غرة القمر الأزهر
إذا الماء خالطها جنحت — أكاليل در على جوهر
كأن على الشرب من لونها — ثياباً من الذهب الأحمر(١)

والوأواء . ومن ملحه فى الخمر :

عذبتها بالمزاج فابتسمت — عن برد نابت على لهب
كأن أيدى المزاج قد سكبت — فى كأسها فضة على ذهب(٢)

والصنوبرى الذى يقول :

لاتبكين على الأطلال والدمن — ولا على منزل أقوى من السكن
وقم بنا نصطبح صهباء صافية — تنفى الهموم ولاتبقى على الحزن(٣)

وتلاحظ أن الصنوبرى فى قوله هذا ـ متأثر كل التأثر بقول أبى نواس :

صفة الطلول بلاغة القدم — فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ثانياً ـ الديرة ـ وقد سبق أن قلنا : إن الديرة انتشرت فى الشرق قبل الإسلام وملئت بها برارى سوريا ومصر منذ القرن الثالث الميلادى ، وعرفت بكثرة كرومها وخمورها .

ومن الناس من كان يقصد الديرة ليستريح من مشاق السفر(٤) ، ومنهم من كان يقصدها للتفرج على تماثيلها وصورها . على أن قصادها للعبث والخمر

(١) اليتيمة — طبعة ١٩٤٧ — جـ ١ ص ٢٧١ .
(٢) ديوانه نشر سامى الدهان ص ٣٥ .
(٣) الروضيات ص ٤٧ .
(٤) تطور الخمريات ص ١٩٠ .

أكثر من كل أولئك وهؤلاء ، وحول هذه الطائفة العابثة نظم شعر كثير[١] لا يعدو الخمر وما حولها . على أن أدب الخمر الذى يتعلق بالديرة كان كثيرا ما يمتزج بوصف الطبيعة الجميلة التى تحيط بالديرة ، وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق فى الكلام عن وصف الطبيعة ، ومثلنا له . ومن الأمثلة التى توضح هذا أيضاً قول أبى الفرج الببغاء فى دير مران[٢] :

ويوم كأن الدهر سامحنى به ... فصار اسمه ما بيننا هبة الدهر
جرت فيه أفراس الصبا بارتياضنا ... إلى دير مران المعظم والعمر
بحيث هواء الغوطتين معطر النـ ... ـسيم بأنفاس الرياحين والزهر
فمن روضة بالحسن ترفد روضة ... ومن نهر بالفيض يجرى إلى نهر
وفى الهيكل المعمور منه انتزعتها ... وصحبى حلالا بعد توفية المهر
ونزهت عن غير الدنانير قدرها ... فما زلت منها أشرب التبر بالتبر

وكانت أكاليل الزهر تزين رءوس الشاربين[٣] . قال الصنوبرى فى رفاقه على الشراب[٤] :

فعلى ذا تاج ورد ... وعلى ذا تاج نسرين

ثالثا — أصالة الشام الخمرية — فهى معروفة من قديم الزمان بالكروم وكثرة الخمر ، وكان العرب يسمونها فى جاهليتهم بلاد الخمر » ولما اتخذ الأمويون دمشق عاصمة لهم ظلت حانات هذه المدينة فى الإسلام كما كانت قبل الإسلام ،

(١) المصدر نفسه ص ١٩١ .
(٢) الخطط ج ٦ ص ٤١ .
(٣) الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٠٦ .
(٤) المصدر نفسه .

و بقيت حمص وغزة وبصرى مدن الخمر والحانات فى الإسلام ، كما كان أمرها من قبل[(١)] .

رابعا — الترف : — فقد كان للترف الذى وجد حول سيف الدولة والمقربين إليه أثر فيما شاع من ألوان اللهو والمجون التى من بينها معاقرة الخمور والحفاوة بمجالسها ، وفى طَرْق الشعر لوصف هذا اللون من المجون . وقد طرق سيف الدولة نفسه هذا الباب ، كما فى المثال السابق الذى أوردناه له فى وصف الطبيعة ، إن صحت نسبته إليه[(٢)] : وساق صبيح . . . . . إلخ

ومع ذلك فإن سيف الدولة لم يكن لديه من الوقت ما يكفى للإمعان فى هذا الاتجاه ، إذ كان فى شغل بمهماته الكثيرة التى كان يضطلع بها ، و إنما كان يلم بذلك أحيانا إذا أتيح له السلم ، وقليلا ما كان يتاح ؛ فشتان ما بين أثره الذاتى فى هذا الاتجاه ، و بين ما كان من أثر الحكام والأمراء فيه — فى سائر الأقطار الأخرى ، ولا سيما العراق : بيئة اللهو والمجون ، كما ذكرنا فيما سبق . وفى ذلك يقول المتنبى[(٣)] :

ألهى الممالك . . . . . . إلخ

و يقول :

ما الذى عنده تدار المنايا   كالذى عنده تدار الشمول

* * *

و بعد فإذا انضم إلى العوامل السابقة ماورثه الشاميون عن الروم من ليونة العاطفة والمبالغة فى اللذائذ — عرفنا إلى أى حد اتجه الشعر الشامى إلى وصف

---

(١) تطور الخمريات ص ١٤١ .
(٢) انظر ص ٦٥ ، ٦٦ وهامش (٢) ص ٦٦ من هذا البحث .
(٣) انظر ص ١٢٥ من هذا البحث .

الجو ، حتى برز هذا الغرض بين الأغراض الشعرية التى طرقها الشعراء فى ظل سيف الدولة .

(ج) وصف الآثار الإنسانية

والمراد بهذا الغرض ما شمل :

(١) وصف الآثار الفنية بخاصة : من أبنية ونقوش ونحوها .

(٢) وصف ما أنتجته يد الإنسان بعامة .

فأما وصف الآثار الفنية فقد تناول الشعر منها الأبنية الفنية القديمة — الحربية منها ، كوصف أحد الخالديين — شاعرى سيف الدولة — لقلعة حلب ، إذ يقول :

وخرقاء قد قامت على من يرومها ... بمرقبها العالى وجانبها الصعب
يجر عليها الجو جيب غمامه ... ويلبسها عقدا بأنجم الشهب
إذا ما سرى برق بدت من خلاله ... كما لاحت العذراء من خلل السحب
فكم من جنود قد أماتت بغصة ... وذى سطوات قد أبانت على عقب

وكقول السرى فى حصن الحدث بعد أن أعاد بناءه سيف الدولة[١] :

مصغ إلى الجو أعلاه فإن خفقت ... زهر الكواكب خلناها تخاطبه
كأن أبراجه من كل ناحية ... أبراجها والدجى وحف غياهبه

والدينية ، كالذى رأينا من وصف بعض الشعراء للأديرة ، وإن كان يغلب على الشعر الذى يصف الأديرة — الغزل ووصف الخمر ووصف الطبيعة ، وقلما يتعرض

---

(١) اليتيمة — طبعة سنة ١٩٣٤ ج ١ ص ٢٣ .

فيه إلى بنيانها ، وذلك لأن الأديار إنما كان يقصدها الشعراء للهو والعبث والمجون .

ومن وصف الآثار الدينية قول الصنوبرى فى جامع حلب[1] :

حبذا جامعها الجا　　مع للنفس تقاها
موطن يرسى ذوو البر　　بمرساه جباها
شهوات الطرف فيه　　فوق ما كان اشتهاها
قبلة كرمها الله　　بنور وحباها
ورآها ذهبا فى　　لا زورد من رآها
ومراق منبر أعظم　　شيء من رقاها
وذرا مئذنة طالت　　ذرا النجم ذراها
ولفوارته ما　　لن تريا لسواها
أبدا تستقبل السحب　　بسجب من حشاها
فهى تسقى الغيث إن لم　　يسقها أو إن سقاها
كنفتها قبة تضحك　　عنها كنفاها
ضاهت الوشى نقوشا　　فحكته وحكاها
لو رآها مبتنى قا　　بة كسرى ما ابتناها

أما الأبنية الفنية الحديثة فلا يجدر بالذكرى منها غير قصر سيف الدولة الذى بناه بالحلبة ، والذى تهدم على يد نيقفور فوكاس سنة ٣٥١ هـ .

(١) الروضيات ص ٣٩ ، ٤٠ .

ومع ذلك فإن الشعر فى ظل سيف الدولة لا يكاد يتعرض لوصف هذا القصر ، على الرغم من إطناب الفرنجة فى وصفه ، وفيما كان عليه من الناحية الفنية. وقد نقلنا شيئاً من هذا الوصف بصدد الكلام عن الحياة الفنية فيما سبق[١] .

وقد مد نهر قويق كما ذكرنا فيما سبق[٢] حتى أحاط بذلك القصر ، فما تندى لسان المتنبى بوصفه فى ذلك المنظر ، بل انطلق يقول فى مدح البحر الأكبر سيف الدولة الذى يزرى بالبحار ، وظن الماء يزاحمه فى طلب العطاء ، أو يريد مباراة الممدوح[٣] . . . الخ ما ذكره فى تلك المناسبة التى قال فيها :

حجب ذا البحر بحار دونه ... يذمها الناس ويمدحونه

يا ماء هل حسدتنا معينه ... أم اشتهيت أن ترى قرينه

. . . . الخ .

ومما قيل فى وصف الأبنية غير الفنية قول أبى فراس يصف جسرا عقد بمنبج[٤] :

كأنما الماء عليه الجسر ... دَرْجٌ بياض خط فيه سطر

كأننا لما تهيا العَبْرُ ... أسرة موسى يوم شق البحر

ويقول السرى فى وصف جسر أيضاً[٥] :

كأنما الجسر فويق الماء ... وسفنه جانحة الأفياء

شبه الطراز لاح فى الرداء ... كأنه فى خلع الظلماء

دهم من الخيل على رواء

---

(١) انظر ص ١٢٧ ، ١٢٨ من هذا البحث .

(٢) انظر ص ١١ ، ١٢ من هذا البحث .

(٣) انظر صحيفة دار العلوم — أبو الطيب المتنبى بعد ألف سنة — ج ١ ص ١٦١ .

(٤) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ ج ١ ص ٤٥ .

(٥) ديوان السرى ص ١٤ .

وأما وصف الآثار الفنية غير الأبنية فكوصف المتنبي لفازة كان فيها سيف الدولة ، وهى خيمة ديباج ، عليها صور رياض ذات دوح وطير وحيوان ، وهى مؤلفة من عدة أثواب ، كل منها ذو وجهين ، وعلى حواشيه دوائر بيض لطيفة ، كأنها اللؤلؤ المنظوم .

يقول المتنبي فى تلك الفازة[1] :

وأحسن من ماء الشبيبة كله حيا بارق فى فازة أنا شائمه

عليها رياض لم تحكها سحابة وأغصان دوح لم تغن حمائمه

وفوق حواشي كل ثوب موجه من الدر سمط لم يثقبه ناظمه

ترى حيوان البر مصطلحا بها يحارب ضد ضده ويسالمه

وقد اتخذ الشعراء أدوات الغناء — كما ذكرنا فيما سبق — موضوعاً للوصف كقول كشاجم يصف عودا :

مخطف الخصر أجوف جيده ضعف سائره

لفظه لفظ عاشق يشتكى هجر هاجره

ذو لسانين فوقه عدلا من مقادره

أنطقته يد امرئ فاتر اللحظ ساحره

فحكى عن ضميره ماجرى فى خواطره[2]

ومن وصف الآثار الإنسانية غير ذلك ، وصف السرى الرفاء لمزملة :

بديعة جسمها زبرجدة خضراء يخفى جمالها الحجب

---

(١) ديوان المتنبي شرح البرقوقى ج ٤ ص ٦٧ و ٦٨ .

(٢) ديوان كشاجم — نسخة خطية بدار الكتب — ص ٧٧ .

مجروحة الخصر غير دامية كما تكون الجروح والندب
كأنها من جفاء لِبْسَتِها مقرورة والهجير يلتهب
كأنما الماء حين تبعثه ذوب لجين ميزابه ذهب[1]

ووصف الشيظمى[2] لنمرقة رآها بجنب سيف الدولة :

نمرقة منها استعار الروض أصناف الملح

.... الخ .

ووصف الصنوبرى لمجمرة[3] :

مِجْمَرَةٌ طاف بها الغلمان أبدع فى صنعتها الزمان
كأنها فيما حكى العيان فوارة وماؤه دخان
فى بركة حصباؤها نيران إذا تبدت حزن الريحان

والملاحظ فى وصف الآثار الانسانية بوجه عام أن وصف الطبيعة غالب عليها ، إذ يتلمس الشاعر الأسباب إذا كان بصدد وصف لأثر إنسانى ، ليشبه ، ويستق معانيه من وصف الطبيعة .

فالمزملة جسمها زبرجدة ، والنمرقة استعار الروض منها أصناف الملح ، والنقوش عليها كأنها قوس قزح ، والمجمرة كأن دخانها ماء الفوارة . وهكذا تجد الأوصاف الطبيعية والتشبيهات المستمدة من الطبيعة تتزاحم فى وصف الآثار الإنسانية ، وهذا طبيعى فى هذه البيئة ، لأن وصف الطبيعة كان من الأغراض البارزة فى الشعر فيها ، وكان للطبيعة مكان ملحوظ لدى كثير من الشعراء فى ظل سيف الدولة .

(١) ديوان السرى ص ٦٠ .
(٢) انظر ص ١٤٦ من هذا البحث .
(٣) الروضيات ص ٥٩ .

وقد وصف الشعراء بعض ما كان يجود به سيف الدولة عليهم من عظيم الهبات والأعطيات ، فمن ذلك أن سيف الدولة أهدى لأبى الطيب ذات مرة ثياب ديباج من صنع الروم ، وعليها صور ملوكهم وصور قيان ومغنيات وخيل وأشياء أخرى ، فقال فيها(١) :

ثيابُ كريم ما يصون حسانَها ... إذا نشرت كان الهباتُ صوانَها
ترينا صناعُ الروم فيها مُلُوكَها ... وتجلو علينا نَفْسَهَا وقيانها
ولم يكفها تصويرُها الخيلَ وَحْدَهَا ... فصورت الأشياء إلا زَمَانَهَا
وما ادخرتها قدرةً فى مُصَوِّرٍ ... سوى أنها ما أنطقتْ حيوانَهَا

وقال أحد الخالديين وقد بعث إليهما سيف الدولة مرة وصيفة ووصيفا ، ومع كل واحد منهما بدرة وتخت من ثياب مصر(٢) :

لم يغد شكرك فى الخلائق مطلقا ... إلا ومالك فى النوال حبيس
خولتنا شمسا و بدرا أشرقت ... بهما لدينا الظلمة الحنديس
رشأ أتانا وهو حسنا يوسف ... وغزالة هى بهجة بلقيس
هذا ولم تقنع بذاك وهذه ... حتى بعثت المال وهو نفيس
أتت الوصيفة وهى تحمل بدرة ... وأتى على ظهر الوصيف الكيس
وحبوتنا مما أجادت حوكه ... مصر وزادت حسنه تنيس
فغدا لنا من جودك المأكول والـ ... ـمشروب والمنكوح والملبوس

* * *

(١) الديوان ص ٣٨٣و ٣٨٤ جـ ٤ شرح البرقوقى .
(٢) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ جـ ١ ص ١٧ .

هذا ولا يفوتنا أن نقول هنا أيضا : إن وصف الآثار الإنسانية كان كوصف الطبيعة ينزع إلى جانب الحس و يبعد عن الروح ؛ و إذا كان الشعراء قد عجزوا أن يبثوا فى شعرهم الذى يصف الطبيعة ، الحيوية التى تنم عن الاندماج القوى فى الطبيعة والإحساس الروحى بها — فهم أشد عجزا حين يعرضون لغير الطبيعة . فمن لم يستطع الإحساس بالحياة فى الحى خليق أن يعجز عن خلقها فى غير الحى .

٥ — الغــزل

أثرت فى هذا الفن عوامل منها . —

(١) — الروح الفارسية — فقد تأثر الغزل بالروح الفارسية التى نعنى بها فى هذا المقام حب الغلمان ، مما دعا إلى انتشار الغزل بالمذكر انتشارا عظيما .

وقد انتقلت هذه الروح من الفرس إلى الأقطار الإسلامية بطريق العراق منذ القرن الثانى للهجرة ، حتى إذا جاء القرن الرابع شاعت تلك العادة ، بحيث أصبح حب الغلمان والتولع بهم شأن العامة والخاصة ، ولا سيما فى فارس والعراق . ومما ساعد على انتشار هذه الروح فى الشام فى عصر سيف الدولة خاصة ما يأتى .

أولا — أن الحمدانيين قد وفدوا عليه وهم عراقيون .

ثانيا — أن معظم الشعراء الطارئين على حلب كانوا أيضا من العراق .

ثالثا — حروب سيف الدولة التى كانت سببا فى كثرة الرقيق من الغلمان .

رابعا — الخمر واحتفال الشعراء بها والتوسع فى وصفها ووصف مجالسها وأوانيها وسقاتها من الغلمان جريا على نهج من فعل ذلك من شعراء العصر العباسى الأول من أمثال أبى نواس .

كل ذلك جعل حب الغلمان والتغزل بهم أمرا لا يستنكر ، ولا ينظر إليه نظرة الأمر المريب فى ظلال الحمدانيين فى الشام .

فهذا أبو فراس مع شرفه ونبله له غزل بالغلمان ، ومن ذلك قوله[١] :

فما السلاف دهتنى بل سوالفه ولا الشمول ازدهتنى بل شمائله
ألوى بعزمى أصداغ لُوين له وغال صبرى بما تحوى غلائله

وقوله[٢] :

الورد فى وجنتيه والسحر فى مقلتيه
وإن عصانى سانى فالقلب طوع يديه
ياظالما لست أدرى أدعو له أم عليه

وقوله[٣] :

ألزمنى ذنبا بلاذنب ولج فى الهجران والعتب
أحاول الصبر على هجره والصبر محظور على الصب
وأكتم الوجد وقد أصبحت عيناه عينا على القلب
قد كنت ذا صبر وذا سلوة فاستشهدا فى طاعة الحب
لاجعل الله رسيس الهوى أشد سلطانا على القلب

ولا عجب فقد كان أميره ومثله الأعلى سيف الدولة — يعشق غلاما تركيا اسمه يماك ، فسيف الدولة نفسه لم يسلم من هذا الداء الوبيل[٤] .

والحق أن الحمدانيين ورجالهم كانوا فى ذلك قدوة سيئة لغيرهم فى حلب فى هذا الاتجاه ، والناس على دين ملوكهم كما يقولون .

---

(١) الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٣٥ .
(٢) شاعر بنى حمدان ص ١٠٠ .
(٣) ديوان أبى فراس ج ٢ ص ٥٣ .
(٤) شاعر بنى حمدان ص ١٠٠ .

ومن ذلك ما حكاه بعض الرواة ، قال : دخلت على أبى العشائر أعوده من علة هجمت عليه ، فقلت له : ما يجد الأمير ؟ فأشار إلى غلام قائم بين يديه اسمه نسطوس ، كأن رضوان غفل عنه فأبق من الجنة وأنشد[1] :

أسقم هذا الغلام جسمى   بما يعنيه من سقام
فتور عينيه من دلال   أهدى فتورا إلى عظامى
وامتزجت روحه بروحى   تمازج الماء بالمدام

ولأبى ذر أستاذ سيف الدولة[2] :

مروع منك كل يوم   محتمل فيك كل لوم
إن كنت أنكرت ملك رقى   غصبا صراحا بغير سوم
فقل لجنبى أين قلبى   وقل لعينى أين نومى

* * *

وإذا كان هذا ما كان عليه السادة الحمدانيون ورجالهم فلا شك أن غيرهم من الشعراء كانوا أسبق فى هذا الميدان ، ولم يشذ عن ذلك إلا المتنبى الذى ربأ بنفسه أن يسلك هذا الاتجاه المنحرف الشاذ الذى رسمه للشعراء من قبل — أبو نواس الشاعر العباسى الداعر . ويطول بنا الكلام لو استعرضنا شعراء سيف الدولة ممثلين لكل منهم فى الغزل بالمذكر .

(٢) كثرة الجوارى — فقد كثرن على اختلافهن منذ أن اتصل العرب بغيرهم من الأمم الأجنبية . وكانت حروب الفتح الإسلامى بوجه عام أعظم الدواعى لهذه الكثرة ، كما دعت حروب سيف الدولة مع الروم إلى زيادة الجوارى الروميات

---

(١) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ جـ ١ ص ٧٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ٨٥ .

فى الشام فى عصر الحمدانيين خاصة . وقد كان انتشار الجوارى فى المحيط الإسلامى بوجه عام — عاملا على اتجاه الشعراء إلى جانب التغزل بالغلمان ، وإن كان التغزل بالغلمان فى القرن الرابع عامة ، وفى الشام خاصة — قد طغى على التغزل بالنساء حرائر وجوارى حتى أصبح ذلك إلى جانبه نادرا قليلا .

ومن الغزل فى الجوارى ما أورده الثعالبى لسيف الدولة فى جارية من بنات الروم ، كان لا يرى الدنيا إلا بها ، ويشفق من الريح الهابة عليها ، فحسدتها سائر حظاياه على لطف محلها منه ، وأزمعن إيقاع مكروه بها من سم أو غيره . فلما بلغ سيف الدولة ذلك أمر بنقلها إلى بعض الحصون احتياطا على روحها ، وقال[1] :

راقبتنى العيون فيك فأشفقـ ـت ولم أخل قط من إشفاق

ورأيت العـــذول فيـ ـك مجداً بأنفس الأعلاق

فتمنيت أن تكونى بعيدا والذى بيننا من الود باق

رب هجر يكون من خوف هجر وفراق يكون خوف الفراق

* * *

(٣) الغناء — فللغناء صلة وثيقة بالغزل ، إذ أن الغناء كثيرا ما يتخذ مادته من هذا الفن الشعرى ، وهو بذلك يكون داعيا من دواعى الإكثار من الغزل . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى طرق الشعراء باب الغزل فى الجوارى المغنيات . وقد كثر تعليم الجوارى الغناء فى العصر العباسى ، وكان العراق — وبخاصة بغداد — مدرسة لتخريج هؤلاء القيان .

ومن الغزل فى المغنيات قول كشاجم فى مغنية[2] :

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٥ .

(٢) ديوان كشاجم المخطوط ص ١٠٥ .

ولها من الأوتار حين تجسها إذن على حجب القلوب لطيف
شغلت عقول السامعين فكلها مصغ إلى نغماتها مصروف
ترد الجوانح والعقول شواخص فيها فتقعد والقلوب وقوف
لو كان من حجر فؤادك لم ترح إلا وأنت بحبها مشغوف

ولكن ما أظن أن أثر الغناء فى الغزل فى عصر سيف الدولة فى الشام — كان له من الخطر مثل الذى كان له بالعراق ، لأن سيف الدولة وإن حفل بالغناء بعض الشىء — كان كثيرا ما يشغل عنه وعن سائر أسباب اللهو بحروبه الكثيرة التى كانت تقع بينه وبين الروم . لهذا لم يكن أثر الغناء فى الغزل تحت ظلاله قويا ، فلم يعن شعراؤه كثيرا بإنشاء القطع الغزلية من أجل الغناء ، حتى إن المنكرى مغنيه لجأ إلى ابن الحجاج الشاعر العراقى ، ليصنع له شعرا يغنى به سيف الدولة[1] فقال :

أميرى يامن ندى كفه يزيد على العارض الممطر
أرى يومنا يوم كأس تدو ر من يد ذى دعج أحور
وأبيض يحدوك سكر الغرا م على لثم شارب الأخضر
بحمرة وجنته تستدلـــ على أنه من بنى الأصفر
وأنك من دونه قد ضربــــت هامة ذى لبدة قسور
وشعر ابن حجاج ياسيدى يغنى به عبدك المنكرى
غناء وشعر لنا يجمعا ن ما بين زلزل والبحترى

ومما كان يُتَغَنَّى به قول أبى زهير الحمدانى[2] :

---

(١) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ ج ٢ س ٣١ .
(٢) المصدر نفسه ج ١ س ٧٣ .

وزعمت أنى ظالم فهجرتنى ورميت فى قلبى بسهم نافذ
فنعم ظلمتك فاغتفر لى زلتى هذا مقام المستجير العائذ

و بالنظر إلى العوامل السابقة نجد أن الغزل قد تناول المذكر والمؤنث و إن كان الغزل بالمذكر بدا أكثر من غيره كثرة ظاهرة بارزة .

وكان معظم الغزل ماجنا عابثا ، وقد كان للفروسية بعض الأثر فيما وجد من غزل قليل يميل إلى العفة ، كالذى يرى فى بعض غزل أبى فراس الذى مالت به فروسيته أحيانا إلى مسلك الغزل العفيف ، كقوله من قصيدة فى بعض نساء أهل بيته — وقد شيعها إلى الحج(١) :

أشيعه والدمع من شدة الأسى على خده نظم وفى نحره نثر
رجعت وقلبى فى سجاف غبيطه ولى لفتات نحو هودجه كثر
وفيمن حوى ذاك الحجيج خريدة لهادون عطف الستر من صونها ستر
وفى الكم كف لا يراها عديلها وفى الخدر وجه ليس يعرفه الخدر

* * *

وكان إلى جوار هذين الغزلين : الماجن الكثير والعفيف القليل — غزل ثالث هو الغزل الصناعى التقليدى الذى يتجلى فى مطالع القصائد جريا مع النزعة العربية القديمة ، كما كان يفعل المتنبى وأبو فراس أحيانا والسرى الرفاء كثيرا .

ومن ذلك قول المتنبى فى مطالع قصيدة يمدح بها سيف الدولة(٢) :

لعينيك ما يلقى الفواد وما لقى وللحب ما لم يبق منى وما بقى

(١) ديوان أبى فراس ج ٢ ص ١٨٥ .
(٢) ديوان المتنبى — شرح البرقوقى — ج ٣ ص ٥٦ و ٥٧ شرح البرقوقى .

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولكن من يبصر جفونك يعشق
وبين الرضا والسخط والقرب والنوى مجال لدمع المقلة المترقرق
وأحلى الهوى ما شك فى الوصل ربه وفى الهجر فهو الدهر يرجو ويتقى

وقول أبى فراس :

على لربع العامرية وقفة يملى على الشوق والدمع كاتب
فلا وأبى العشاق ما أنا عاشق إذا هى لم تلعب بصبرى الملاعب
ومن مذهبى حب الديار لأهلها وللناس فيما يعشقون مذاهب

وقول السرى (١) :

كملن فأطلعن البدور كواملا وملن فأبدين الغصون موائلا
غدون لنا بالوصل إنساً نواضرا وكن من الهجران وحشاً خواذلا
يحركن أعطاف العليل صبابة إذا حركت أعطافهن الغلائلا

وهذا النوع من الغزل لم يصدر عن عاطفة الحب التى تشع فيه الحرارة والقوة ، ولذلك كان معظمه ضعيفا متكلفا .

على أن غلبة المحسنات اللفظية التى اتجه الشعراء إليها فى هذا العصر — كما سنتكلم على ذلك فى الفصل التالى — أضعفت من روح الغزل بوجه عام ، لأنها احتجزت كثيرا من قوة العاطفة ، وفيض الشعور ، فى سبيل توفيق الشعراء إليها وإصابتهم لها .

وذلك وإن كان عاما بالنسبة لأغراض الشعر جميعا ، إلا أن خطره على الغزل الذى يجب أن تكون أولى سماته صدق العاطفة ـ كان أشد وأعظم بلاء .

---

(١) ديوان السرى ص ٢١٥ .

(٦) الرثـــــاء

روى بعضهم أن بعض العرب سئلوا ـ ما بال أفضل أشعاركم الرثاء فأجابوا ـ لأنا نقولها وقلوبنا موجعة ، أى لأنها صادرة عن عاطفة حارة خالية من التكلف .

فهل كان أفضل الشعر فى ظل سيف الدولة هو الرثاء ؟

إن معظم ما قيل من الرثاء فى ظل ذلك الأمير لم يصدر عن الشعراء وقلوبهم موجعة ، وإنما قبل أداء للواجب ونهوضا بالحق . فإذ فقد سيف الدولة قريبا أو عزيزا كان أكبر دافع للشعراء على الرثاء هو حزن الأمير نفسه على من فقده ، وصدر الشعراء فى هذا الرثاء عن فنهم وعقولهم أكثر مما يصدرون عن قلوبهم ومشاعرهم .

وقد كان ذلك داعياً إلى اتجاه الرثاء إلى التعزية أكثر من اتجاهه إلى البكاء ، والحزن على الفقيد ، والتوجع عليه ، وإبداء الألم الشديد لفقده . وقد يمزج الشاعر التعزية بإطراء الأمير وتمجيده ، فيستعين بهذا الإطراء وذلك المدح على تملق الأمير وإلهائه عما يكون فى رثائه من القصور أو التقصير .

وخير ما يمثل ذلك شاعر القصر الحمدانى أبو الطيب المتنبى الذى كان يعتمد فى رثائه لمن يمت بصلة إلى سيف الدولة أولا على الحكم ـ تعزية للأمير ، كقوله فى رثاء أم سيف الدولة :

نعد المشرفية والعوالى وتقتلنا المنون بلا قتال

وكقوله فى رثاء ابنه :

إذا ما تأملت الزمان وصرفه تيقنت أن الموت ضرب من القتل
وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل

وعلى المدح – إرضاء للأمير ، كقوله فى رثاء أمه :

رأيتك فى الذين أرى ملوكا   كأنك مستقيم فى محال
فإن تفق الأنام وأنت منهم   فإن المسك بعض دم الغزال

وأما قوله فى صميم الرثاء فهـــو بوجه عام ضعيف فاتر ، كقوله فى رثاء أم سيف الدولة :

وهذا أول الناعين طرا   لأول مَيْتَةٍ فى ذا الجلال
كأن الموت لم يفجع بنفس   ولم يخطر لمخلوق ببال
صلاة الله خالقنا حنوط   على الوجه المكفن بالجمال

على أن من الشعراء من طرق الرثاء تدفعه إليه عواطفه الخاصة ، إذ يكون المرثى ذا صلة قوية به تدفعه إلى أن يجيد التعبيرعن الحزن وتصوير اللوعة والأسى، كقول أبى فراس يرثى ابنا له :

أعزز على بأن يبيت موسدا   وأبيت أندبه مع الإخوان
ولقد وددت بأن أكون مكانه   تحت التراب وأن يكون مكانى

وكقول الصنوبرى فى رثاء ابنته :

بأبى ساكنة فى جدث   سكنت منه إلى غير سكن
نفسى ازدادى عليها حزنا   كلما زاد البلى زاد الحزن

وكقول السرى الرفاء فى رثاء بعض بنى عمه :

نظرت إليك المكرما   ت فلم تجد لك من نظير
ففدت عليك حواسرا   ينظرن من طرف حسير
فاذهب على رغم العدا   والبأس والحسب الخطير

فارقتنى وتركتنى غرضاً لأحداث الدهور
فلبست أثواب الأسى وخلعت أثواب السرور

وكقول كشاجم فى رثاء أبيه[1] :

يا أبق أى أسى لم تبق لابن ثكلك
خلفتـــه مفتقراً إلى المعالى سبلك
وددت لو بجســدى كنت احتملت عللك
وددت أنى المنا يا كنت يوما بدلك

* * *

ومهما يكن من شىء فقد كان هذا النوع من الرثاء الحق قليلا ، فقد كان معظم الشعراء مشغولين بسيف الدولة ومايتعلق به ـ حبا فى العطاء ، وقد شغلهم حب المال عن الفروغ لعواطفهم الخاصة . وجملة القول : لم يكن الرثاء بوجه عام من الأغراض الرئيسية فى ظل سيف الدولة .

الإخوانيـــات

وهذا باب من أبواب الشعر يقصد به ما كان يدور بين الأصدقاء من الشعراء، تدفعهم إليه الأخوة الصادقة ، سواء ما كان يدور منه بين بعض الحمدانيـين ورجالهم و بعض ، وما كان يدور بين غيرهم من سائر الشعراء .

وقد كان انتشار الشعر ودورانه على الألسن واستخدامه استخدام النثر فى المراسلات الودية بين الأصدقاء ـ أقوى العوامل التى ساعدت على انتشار هذا الشعر الإخوانى ، واستعماله فى غراض مختلفة ، كالمدح والعتاب والتهنئة

(١) ديوانه المخطوط ص ١١٦ و ١١٧ .

والتعزية والاعتذار والاستعطاف وغير ذلك مما يتبادله الأصدقاء فى المناسبات .

وقد كثر الشعر الإخوانى الذى كان يدور بين بعض الحمدانيين ورجالهم وبعض ، ولم يجارهم فى الإكثار من هذا الشعر — الشعراء الشعبيون الذين كانوا يتخذون الشعر حرفة لاكتساب المال ، فهم مشغولون عن العواطف الأخوية بعواطفهم الرسمية ، أو بعبارة أخرى — بعواطفهم المادية تجاه الأمير الذى يمنح الذهب ويغدق العطاء . أما الأولون فقد اتخذوا الشعر وسيلة للتعبير عن عواطفهم وذوات أنفسهم ، ولم يكونوا فى حاجة إلى المال الذى يهملون من أجله العناية بواجب الصداقة ، والتعبير عن أحاسيس المودة فى شتى المناسبات .

وخير ما يمثل ذلك الجانب الإخوانى ما كان بين أبى فراس وغيره من الحمدانيين ورجالهم ، ومن ذلك ماروى من أن أبا فراس كتب إلى سيف الدولة وقد شخص من حضرته إلى منزله بمنبج — كتابا ، فاستحسن سيف الدولة بلاغته ، ووصف براعته ، وبلغ أبا فراس ذلك ، فكتب إليه[1] :

هل للفصاحة والسما حة والعلا عنى محيد
إذ أنت سيدى الذى ربيتنى وأبى سعيد
فى كل يوم أستفيد من العلاء وأستزيد
ويزيد فى إذا رأيـ ـتك فى الندى خلق جديد

وكتب إليه يعاتبه[2] :

قد كنت عدتى التى أسطو بها ويدى إذا اشتد الزمان وساعدى
فرميت منك بغير ما أملته والمرء يشرق بالزلال البارد
فصبرت كالولد التقى لبره أغضى على ألم لضرب الوالد

(١) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ جـ ١ ص ٢٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٩ .

وكتب إليه يستعطفه[1] :

إن لم تجاف عن الذنو ... ب وجدتها فينا كبيره
لكن عادتك الجميـ ... ـلة أن تغض على بصيره

وكتب إلى أبي محمد جعفر وأبي أحمد عبدالله ابني ورقاء الشيباني (من رؤساء عرب الشام وقوادها المختصين بسيف الدولة)[2] :

أتاني من بني ورقاء قول ... ألذ جنى من الماء القراح
وأطيب من نسيم الروض حفت ... به اللذات من روح وراح
وتبكي في نواحيه الغوادي ... بأدمعها وتبتسم الأقاحي
ولو أني اقترحت على زماني ... لكنتم يابني ورقا اقتراحي

فكتب أبو أحمد إليه قصيدة — جوابا لها ، منها[3] :

أمدره تغلب لسنا وعلما ... ومصقع نطقها عند التلاحي
لقد أوتيت علما واضطلاعا ... بآداب وألفاظ فصاح
لمقولك المضاء إذا انتضاه الـ ... ـقصيد على المهندة الصفاح

وكتب أبو فراس إلى أبي الحصين قاضي حلب ، وقد عزم على المسير إلى الرقة — قصيدة منها[4] :

ياطول شوقي إن كان الرحيل غدا ... لافرق الله فيما بيننا أبدا

فأجابه القاضي بقصيدة أولها[5] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٧٧ و ٧٨ .

(٤) المصدر نفسه ص ٨٠ .

(٥) المصدر نفسه .

الحمد لله حمدا دائما أبدا أعطانى الدهر مالم يعطه أحدا

ومنها :

إن كان ما قيل من سير الركاب غدا حقا فإنى أرى وشك الحمام غدا

* * *

وأما الإخوانيات الشعبية فمنها ما كتبه أبو الفتح كشاجم إلى الصنوبرى يعزيه فى ابنته[١] :

تأسى يا أبا بكر لموت الحرة البكر
وقد زوجتها قبرا وما كالقبر من صهر
وعوضت بها الأجرا وما كالأجر من مهر
زفاف أهديت فيه من الخدر إلى القبر
فتاة أسبغ الله عليها أسبغ الستر
وقد يختار فى المكرو ه للعبد وما يدرى
فقابل نعمة الله الـ تى أولاك بالشكر
وعز النفس مما فا ت بالتسليم والصبر

وكتب كشاجم إلى الصنوبرى معاتبا — قصيدة ، منها[٢] :

أخ لى كنت أغبط باعتقاده ولا أخشى التنكر من وداده
هلال فى إضاءته حياء سماحته شهاب فى اتقاده

---

(١) ديوان كشاجم المخطوط ص ١٧٨ .

(٢) الروضيات ص ٧٦ .

إلى أن يقول .

فأصبح قد تبرأ من ودادى　　كما برأ المتيم من فؤاده

وعانــــدنى ولم أعلم بأنى　　سأنقل من هواه إلى عناده

. . . . . الخ .

فأجابه الصنوبرى بقصيدة منها(١) :

أخ لى عاد من بعد اجتنـابه　　ففرق بين قلبى وا كتئابه

حبانى بالعتاب وكان ظنى　　به ألا سبيــل إلى عتــابه

وقال السرى الرفاء فى عتاب صديق أفشى سرا(٢) :

رأيتك تبرى للصديق نوافذا　　عدوك من أوصابها الدهر آمن

وتـكشف أسرار الأخلاء مازحا　　ويارب مزح عاد وهو ضغائن

سأحفظ ما بينى و بينك صائنـًا　　عهودك إن الحر للعهد صائن

وألقاك بالبشر الجميل مداهنـا　　فلى منك خل ماعرفت مداهن

أنم بما استودعته من زجاجة　　ترى الشىء فيهاظاهراً وهو باطن

وقال أبو بكر الخالدى فى العتاب(٣) :

وأخ رخصت عليه حتى ملنى　　والشىء مملول إذا ما يرخص

ياليته إذ باع ودى باعه　　فيمن يزيد عليه لامن ينقص

ما فى زمانك مايعز وجوده　　إن رمته إلا صديق مخلص

* * *

(١) المصدر نفسه ص ٧٨ .
(٢) ديوان السرى ص ٢٦٧ .
(٣) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ ج ٢ ص ١٧٩ .

و بعد فهذه هى أهم أغراض الشعر فى ظل سيف الدولة تكلمنا عنها وعن أهم العوامل الداعية إليها والمؤثرة فيها ، ومثلنا لكل غرض بأمثلة توضح مختلف الاتجاهات التى طرقها ، ذاكرين الخصائص العامة له ، إذا كانت له خصائص جديرة بالذكر فى هذا المقام .

أما الخصائص الفنية للشعر بوجه عام — فقد آثرت أن يكون لها فصل خاص ، هو الفصل التالى .

الفصل السادس

الخصائص الفنية

تمهيد — سأحاول جهدى فى هذا الفصل أن أقصر جل اهتمامى على ما يجعل للشعر فى ظل سيف الدولة كيانا متميزا ، بحيث يصور أدبا إقليميا خاصا ، هو شعر حلب وما جاورها ، مما كان مستظلا بظل سيف الدولة ، و بحيث لا يكون الكلام عن تلك الخصائص عاما لا يميز هذا الشعر عن سائر الشعر العباسى بوجه عام من ناحية ، وعن سائر الشعر فى القرن الرابع بوجه خاص من ناحية أخرى .

سأحاول ذلك بقدر الإمكان — وأقول بقدر الإمكان ، لأن الاستقلال المطلق لا يمكن تحقيقه فى بيان تلك الخصائص ، لأسباب منها : —

(١) أن الشعراء فى جملتهم قد أخذوا أنفسهم فى مختلف العصور الإسلامية بتقليد الأقدمين والمحافظة على نظام القريض الموروث عن الجاهليين . ومن أبرز مظاهر ذلك التقليد وتلك المحافظة ما نراه من الافتتاحية الغزلية التى لزمت القصيدة العربية منذ العصر الجاهلى .

(٢) أن خصائص الشعر فى أى فترة من فترات التاريخ مرتبطة تمام الارتباط بما قبلها من فترات ، إذ لا تخلق تلك الخصائص بين عشية وضحاها ، بحيث نستطيع أن نجعل بين ما قبلها و بينها سدا فاصلا وحاجزا منيعا .

(٣) كان معظم الشعراء الحمدانيين طارئين على حلب من بيئات أخرى ، ولا سيما العراق — وهم لذلك كانوا متأثرين فى شعرهم الحمدانى ببيئاتهم التى وفدوا منها .

(٤) كان العراق مقر الخلفاء العباسيين ، وفى العراق تخرج العلماء والأدباء

الذين وفدوا على الأقطار الإسلامية التى انقسمت إليها الدولة العباسية ، فكان الطابع العراقى غالبا على العلم والأدب فى تلك الأقطار .

لهذه الأسباب كان لا بد فى بيان خصائص الشعر السيفى من أن نسلك طريقا عامة من ناحية ، وطريقا خاصة نسير فيها فى البيئة السيفية من ناحية أخرى ، وإن كنا سنسلك فى الطريق العامة مسلك السرعة والإيجاز لنخلص وشيكا إلى سلوك الطريق الخاصة التى يجب علينا أن نسلكها متئدين ، وأن نعنى خلالها بالبسط والشرح والتحليل .

الخصائص العامة للشعر العباسى ومدى تأثرها فى حلب بالبيئة الحلبية السيفية

(١)

ومن أبرز الخصائص الفنية للشعر العباسى ما طرأ على الشعر من شيوع المقطعات الصغيرة والأوزان القصيرة والعبارات اللينة . ومرجع ذلك إلى قلة شعر البطولة بعد طغيان تيار العجمة وتيار الترف وشيوع الغناء .

ففى العصر العباسى تم التزاوج والاختلاط بين العرب وغيرهم من الأعاجم ، وبهذا ظهر تغير الدم العربى ظهورا واضحا . والعباسيون كما نعلم قد آثروا الأعاجم على العرب وأطلقوا أيدى الموالى فى تدبير شئون الدولة . ووكلوا إليهم شئون السياسة والحرب والفن ، واشترك فى كل أولئك كثير من العناصر الفارسية والتركية والسريانية والرومية والبربرية ، بعد أن كانت الدولة الأموية عربية خالصة ، قد تعصبت للعرب ولغتهم وآدابهم ، وكان جنودها وقوادها وكتابها وسائر عمالها من العرب .

وتغير دم الأمة العربية واضمحلال قوة الطبقة العليا فيها — وهى التى كانت بيدها القيادة — وعودة الشعوب الشرقية القديمة التى كانت تتألف من أجناس مختلطة إلى القوة والظهور ، كل ذلك كان من أثره فى الشعر انصراف الجيل الجديد

من الشعراء — إلى حد كبير ـ عن القصيدة إلى المقطوعة ، إذ أصبحت الأولى بوجه عام شاقة على هذا الجيل الجديد ، الذى كره ما أولع به القدماء من تعظيم شأن القصيدة ، وظلت هذه تفقد ما كانت تتمتع به من تفرد بالسيادة حتى ظهر ذلك بجلاء فى القرن الرابع وما تلاه[١] .

وقد كان لكثرة المجالس الأدبية فى منازل الأصدقاء والأغنياء والأدباء وحبهم للملح والتنادر ووصف ما يعرض فى تلك المجالس من الفواكه والأزهار وآنية الشراب وأدوات الترف والزينة ونحوها ـ كان لذلك كله أثره فى شيوع المقطعات الشعرية ومزاحمتها القصائد .

وقد بين ابن رشيق حد القصيدة الذى يفرق بينها و بين المقطوعة ، فقال : قيل إذا بلغت الأبيات سبعة فهى قصيدة ، ولهذا كان الإيطاء بعد سبعة غير معيب عند أحد من الناس . ومن الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ العشرة وجاوزها ، ولو ببيت واحد[٢] .

و يتضح من كلام ابن رشيق أن الرأى الأول هو رأى جمهرة الأدباء .

و بدت العلاقة واضحة فى العصر العباسى بين الغناء وأوزان الشعر . وأهم ما يلاحظ بصدد ذلك أن الشعراء نحوا الأوزان الطويلة المعقدة ، وخصصوها بالشعر التقليدى ـ شعر المديح ونحوه .

و كان من أثر استفحال تيار العجمة ورقة الحضارة وألوان الترف بوجه عام ـ أن أقبل الشعراء على العبارات الرقيقة اللينة ، وانصرفوا إلى حد كبير عن الأساليب البدوية الخشنة التى لا تلائم ذوق العصر ، ولا تستسيغها البيئة الجديدة اللينة الناعمة .

وقد ظهرت هذه الظاهرة السابقة فى بعض أغراض الشعر الشامى ، كالغزل

---

(١) يرجع إلى الحضارة الإسلامية ص ٣٩٢ .

(٢) العمدة جـ ١ ص ١٢٥ .

ووصف الخمر ووصف الطبيعة — تأثرا بالمحيط العباسى العام من ناحية ، و بترفه سيف الدولة ومن يلوذ به بوجه خاص من ناحية أخرى ، ولـكن إلى جانب هذه الخاصة العامة كان لبطولة الأمير الحمدانى وحرو به الأثر الـكبير فى إحياء شعر البطولة القديم الذى يمتاز بطول القصائد والأوزان الطويلة ، و بالأساليب البدوية الجزلة وذلك يتجلى فى المدح والحماسة والفخر. فلقد كانت حروب سيف الدولة و بطولته لفتة قوية ، وهزة عنيفة حدت بعض شعرائه أن يتمثلوا العروبة وقوتها — فيما جادت به قرائحهم من الشعر ، فنزعوا هذا المنزع العربى فى القصيد والوزن والأسلوب . وكذلك كان جل قصائد المتنبى وأبى فراس ، و بعض قصائد من اشتركوا معهما فى تصوير هذه الحروب وتلك البطولة ، كالسرى الرفاء .

والمعروف أن بحور الشعر وأوزانه وموسيقا العبارة لها أثر كبير فى إظهار المعانى التى يريد الشعر أن يدلى بها فى موضوعه « فمن المعانى ما هو جاد أو حار أوجياش أوصاخب فلايؤدى إلا بنفس طويل ولا يلائمه إلا الأعارض الطويلة ، ومنها ما هو رقيق أو هادىء أو ماجن أو راقص فيجب أن يصاغ فى تفاعيل تناسبه[(١)] » . وقد أدرك ابن العميد الصلة بين المعانى والأعاريض الشعرية فرأى أن الشاعر عليه أن يتخير للمعنى الذى اعتمده وقصده — أحسن وزن يلائمه وأحسن قافية[(٢)] . « والفربيون يربطون بين وزن الشعر و بين نبض القلب ... ونبضات القلب تزيد كثيرا فى الانفعالات النفسية ، تلك التى قد يتعرض لها الشاعر أثناء نظمه ، فحالة الشاعر النفسية فى الفرح غيرها فى الحزن واليأس ، ونبضات قلبه حين يتملـكه السرور سريعة يكثر عددها فى الدقيقة ، ولـكنها بطيئة حين يستولى عليه الهم والجزع ، ولا بد أن تتغير نغمة الإنشاد تبعا للحالة

(١) تاريخ النقد عند العرب للمرحوم الأستاذ طه إبراهيم ص ١٠٤ و ١٠٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٠٤ .

النفسية ، فهى عند الفرح والسرور متلهفة مرتفعة ، وهى عند اليأس والحزن بطيئة حاسمة[1] » .

ويقول ابن الأثير «الألفاظ تنقسم فى الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه ، فالجزل منها يستعمل فى وصف مواقف الحروب وفى قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك ، وأما الرقيق فإنه يستعمل فى وصف الأشواق وذكر أيام البعاد ، وفى استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك[2] » .

ويقول الجرجانى : « ولا آمرك بإجراء أنواع الشعر كله مجرى واحدا ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعض ، بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعانى فلا يكون غزلك كافتخارك ، ولا مديحك كوعيدك ، ولا هجاؤك كاستبطائك ، ولا هزلك بمنزلة جدك ، ولا تعريضك مثل تصريحك ؛ بل ترتب كلا مرتبته وتوفيه حقه ، فتلطف إذا تغزلت ، وتفخم إذا افتخرت ، وتتصرف للمديح باللباقة والظرف ، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام ، فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه[3] » .

ولهذا كان امتياز الحياة الحمدانية بهذا الجانب الجدى مدعاة إلى امتياز الشعر فى ظلها بظهور الجانب العربى القديم فيه : من طول القصائد والأوزان وجزالة الأسلوب — فى تصوير ما يستدعى هذه الخصائص من حياة الحمدانيين .

ولو رجعنا إلى ما ذكرنا من الأمثلة فى الفصل السابق فى أغراض المديح والفخر والحماسة — لوجدنا فيها مصداق ما نقول ، وإن كان طول القصائد فى هذه الأغراض لا يدرك إلا بالرجوع إلى بعض دواوين الشعراء : كديوان المتنبى وديوان أبى فراس وديوان السرى الرفاء .

---

(١) موسيقى الشعر للدكتور ابراهيم أنيس ص ١٧١ .
(٢) المثل السائر ج ١ ص ٦٥ .
(٣) الوساطة ص ٢٣ .

وإنك لتلاحظ جزالة الأسلوب خاصة فى كثرة ما بدا فى الشعر الحمدانى من ألفاظ البطولة والحرب والعتاد من الخيل والسلاح ، وهى ألفاظ تتلاءم مع ماتؤديه من معانى القوة والبأس .

وإذا كان الباحث فى الأدب يمنى نفسه التنقل بين أجواء الشعر فى القرن الرابع فإنه سيحس حتما حين يمر بظلال سيف الدولة بقعقعة السلاح وصليل السيوف وحمحمة الخيل وظلمة النقع وبريق الأسنة وسفك الدماء وعز النصر وذل الأسر وحسرات الاندحار .

وغير ذلك مما طبع الشعر الحمدانى بطابع القوة والجزالة فى تصويره للصراع الحربى الذى ساد الحياة الحمدانية[١] ، بل لقد شاعت ألفاظ الحرب فى هذه البيئة الحربية حتى رأيناها تجرى فى شعر الصنوبرى شاعر الطبيعة ، إذ يقيم المعارك بين الأزهار على نحو يزيد فى تصوير روعة الطبيعة وجلالها .

استمع إليه يصف إحدى هذه المعارك وقد أقام نفسه حكما فيها ، فأنقذ النرجس الضعيف من حملات سائر الأزهار عليه :

خجل الورد حين لاحظه النر — جس من حسنه وغار البهار
فعلت ذاك حمرة وعلت ذا — صفرة واعترى البهار اصفرار
وغدا الأقحوان يضحك عجبا — عن ثنايا لثامهن نضار
ثم نم النمام واستمع السو — سن لما أذيعت الأسرار
عندها أبرز الشقيق خدودا — صار فيها من لطمه آثار
سكبت فوقها دموع من الطل — كما تسكب الدموع الغزار
فاكتسى البنفسج الغض أثوا — ب حداد قد خانها الاصطبار

---

(١) يرجع إلى ما كتبه الأستاذ أحمد الشايب فى كتاب الأسلوب خاصا بأسلوب الحماسة ص ٦٢ .

وأضر السقام بالياسمين الـــغض حتى آذى به الإضرار
ثم نادى الخيرى فى سائر الزهـ ـر فوافاه جحفل جرار
فاستجاشوا على محاربة النر جس بالجحفل الذى لا يبار
فأتوا فى جواشن سابغات تحت سَجْف من العجاج يثار
ثم لما رأيت ذا النرجس الغـ ـض ضعيفا ما إن لديه انتصار
لم أزل أعمل التلطف للور د حذارا أن يغلب النوار
فجمعناهم لدى مجلس فيـ ـه تغنى الأطيار والأوتار
لو ترى ذا وذا قلت خدود تدمن اللحظ حولها الأبصار(١)

ما أبعد العلاقة بين الجحفل الجرار والجواشن السابغات والعجاج والحرب والانتصار . . . وبين هذه الأزهار الرقيقة الناعمة ، ولـكنها البيئة قد أوحت إلى الشاعر أن يجمع تلك الأزهار فى ميدان الحرب ويقيم معركة حامية الوطيس بينها مبينا ما يمتاز به كل منها فى لونه وشكله ، على نحو بديع وعجيب ، فى أسلوب أضفت عليه هذه المعركة الخيالية قوة وجزالة .

ومع ذلك فقد كان كثير من شعراء سيف الدولة يعيشون على هامش الحياة الجدية الحمدانية ، وقد جعلوا مما غنموه من سيف الدولة وغيره وسيلة إلى الحياة الماجنة ، فعاشوا عيشة خليعة كلها خمر ونساء وغلمان . ومعظم هؤلاء لم يعيشوا فى الجو الحمدانى عيشة مستقرة ، وإنما كانوا يفدون للعطاء ثم يعودون : كالزاهى وابن نباته السعدى والخليع والوأواء . ومعنى ذلك أن تلك الظاهرة أو الظواهر العباسية العامة التى برزت فى صورة واضحة فى القرن الرابع — كانت أيضا بارزة واضحة فى ظل الحمدانيين ، ولعلها لا تقل عن تلك الظواهر الجدية التى استدعتها حروب الحمدانيين ، بل لعلها تزيد عليها إذا نظرنا إلى الشعر فى ظل

(١) الروضيات ص ٣١ وشعر الطبيعة ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

الحمدانيين بوجه عام ، وإن بقى للشعر الحمدانى امتيازه فى الظواهر الجدية على سائر الشعر فى ذلك العصر ، كما امتازت الحياة الحمدانية على ما كان فى الأقطار الإسلامية الأخرى فى هذا الباب .

* * *

وخير ما يمثل لنا الاتجاه إلى المقطوعات وخفة الأوزان ورقة الألفاظ وليونتها فى الشعر الشامى فى عصر سيف الدولة — ديوان الوأواء الذى حققه وطبعه أخيرا الدكتور سامى الدهان .

فنى هذا الديوان ما يزيد على ثلثمائة مقطوعة تقل كل منها عن سبعة أبيات ، على حين نرى قصائده التى يحتوى كل منها على سبعة أبيات فأ كثر — أقل من ثلاثين .

ومن شعر الوأواء الذى تتجلى فيه خفة الوزن ورقة اللفظ قوله(١) :

قل لمريض الحدق ... ذى طرر كالحلق
هل فى فؤادى للضنى ... أو جسدى شىء بقى
فمقلتى أجفانها ... مكحولة بالأرق

وقوله(٢) :

وحديثه كأنه ... أوبة من مسافر
كان أحلى من الرقا ... د على جفن ساهر
بت ألهو بطيبه ... فى رياض زواهر
بين ساق وسامر ... ومغن وزامر

---

(١) ديوان الوأواء ص ١٧٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٠٠ .

وقد يسرف فى اللين حتى يستمد مفرداته من غمار العامة وحيه الذى يعيش فيه ، كقوله[١] :

لم أجد ما به أجـــود بدمعى غير روحى فجدت بالموجود

وقوله[٢] :

قبروه بهجرهم حين صدوا ثم عادوا بوصلهم نشروه

وقوله[٣] :

انظر فؤادا أنت فيه مصور هل فيه يانور العيـون سوا كا

(٢)

ومن الخصائص الشعرية المهمة فى العصر العباسى أيضاً انتشار ألوان البديع وكثرتها . ونحن لا نعنى بالبديع المعنى الاصطلاحى الذى استقر عنده فى العصور المتأخرة ، بل نتوسع فيه بعض[٤] توسع الأولين ، فندرج تحته الصور البيانية أيضاً ، كالتشبيه والاستعارة .

وقد يكون من أهم العوامل التى دعت إلى انتشار البديع فى هذا العصر أن الشعراء المحدثين قد ضيقوا على أنفسهم بتقليدهم للقدماء فى فنون الشعر وأغراضه ، واحتذائهم حذوهم فى كثير من الأخيلة والمعانى ، ونظروا بعد ذلك فإذا أبواب التجديد فى الأغراض والمعانى — كما خيل إليهم — مغلقة فانتحوا ناحية الصياغة ،

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١١٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٧٣ .

(٤) كانت كلمة البديع تساوى كلمة التجديد فى العبارة أو المعنى بالقلب أو التغيير أو التوجيه أو التحسين أو الابتكار — تاريخ الشعر العربى ص ٣٦٤ . وقال ابن رشيق : « والإبداع إتيان الشاعر بالمعنى المستطرف والذى لم تجر العامة بمثله ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع وإن كثر وتكرر » . العمدة ج ١ ص ١٧٧ .

يجددون فيها ويزخرفون ويجملون ، ليثبتوا لأنفسهم فى ميدان الشعر براعة وفضلا . على أن ذلك أيضاً لم يكن جديداً ولا غريباً ، ولكن معالجته لم تكن مطلباً خاصاً من مطالب الشعر القديم . فالعرب لاتنظر فى أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل فتترك لفظة للفظة أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون[١] . وإنما كانت تطلب شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم قصب السبق لمن وصف فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض . وقد كان يقع ذلك فى خلال قصائدها ويتفق لها فى البيت بعد البيت على غير تعمد أو قصد[٢] .

هذا وقد ساعد على نمو الصناعة اللفظية فى العصر العباسى أيضاً أن ذلك العصر كان مصبوغاً بالصبغة الفارسية ، والفرس قوم يغلب عليهم التأنق فى المعيشة والإمعان فى ذلك التأنق ، وهم يميلون إلى الزخرفة فى كل فنونهم ، ولا شك أن ذلك كان له أثره فى اتجاه الأدب العربى إلى البديع وفنون الصناعة .

وقد دعا إلى هذا الاتجاه كذلك ماسبق أن ذكرناه من الانصراف عن شعر البطولة إلى الملح والطرائف .

* * *

وكان شعراء العراق المحدثون هم السباقين إلى الصناعة اللفظية وتلمس ألوان البديع ، ثم انتقلت هذه الظاهرة من هؤلاء إلى شعراء سائر الأقاليم ، وجاء القرن الرابع وقد عظم شأنها . واتسع نطاقها ، وفقدت كثيرا من مظاهر الجمال التى كانت تشع عليها فى القرنين الثانى والثالث ، ومالت إلى الجمود

---

(١) العمدة ج ١ ص ٨٣ .

(٢) الوساطة ص ٣٣ .

والتكلف ، وحال تعمدها والإكثار منها بين الشعراء و بين أداء المعانى على طبيعتها — كما توحى بها العاطفة ، ويدفع إليها الشعور ، لأن صاحب البديع يفكر مرتين : مرة للفكرة ، ومرة لتحويرها والتلطف لها حتى تسكن للبديع[1] . وشجع النقاد الشعراء على هذا الاتجاه فأغرقوا فيه وقيدوا أنفسهم بأغلال البديع .

* * *

فإذا انتقلنا إلى تعرف نصيب الشعر الشامى الحمدانى من تلك الخاصة — وجدنا الأمر يختلف بعض الشىء عما عليه فى العراق .

فنحن نعلم أن الروح الفارسية فى الشام أقل منها فى العراق ، وأن التأنق فى المعيشة ومختلف مظاهر الحياة لم يبلغ مبلغه فى العراق . هذا إلى أن الشام كان فيه أكبر الدواعى إلى مظاهر الجد والبطولة من حروب سيف الدولة ، وذلك يدعو — إلى حدما — إلى الانصراف عن تتبع الملح ، والجرى وراء الطرائف ، كما فى البيئات التى فرغت للهو كالعراق .

وكل أولئك يدعونا لأول وهلة أن نقول : إن نصيب الشعر الحمدانى من تلك الخاصة لم يبلغ ما كان فى العراق . فهل كان الأمر كذلك حقا ؟ .

الحق أن هذه النتيجة يخالفها الصواب من ناحية ، و يجانبها من ناحية أخرى والكلام فى هذا الصدد يحتاج — على أية حال — إلى تفصيل .

فلئن كانت الروح الفارسية ومظاهر التأنق والترف ، كل أولئك فى الشام أقل منه فى العراق — لقد كانت الطبيعة الشامية حافلة بالألوان ، حالية بالصور الجميلة . طبيعة دبجها الخالق — تدبيجا بديعا ، فجعل فيها الزهر مختلفا ألوانه ،

---

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ١٠٩ .

والفواكه متشابهات وغير متشابهات ، والماء يجرى تارة ، وينعقد ثلجا تارة أخرى . . . إلى غير ذلك مما بيناه فيما سبق .

هذه الطبيعة الجميلة المتنوعة الصور التى تشع فيها مظاهر الانسجام والجمال — قد قوت عند الشاميين الشعور بالجمال والإحساس به ، فعملوا على أن يلائموا بين صور الطبيعة الجميلة و بين ما يحلون به شعرهم من فنون البديع . يقول البحترى شاعرهم[1] .

و بديع كأنه الزهر الضا حك فى رونق الربيع الجديد

فاذا أضفنا إلى ذلك أن كثيرا من شعراء سيف الدولة كانوا وافدين على الشام من الأقطار الأخرى ، ولا سيما العراق الذى تغلب عليه الصبغة الفارسية ؛ وأن روح الترف والتأنق كان يشع فى ذلك العصر فى الدولة الإسلامية عامة و إن امتاز فيه العراق على سائر الأقطار الأخرى — إذا أضفنا ذلك إلى ذاك عرفنا إلى أى حد أغرم الشعراء السيفيون بمحاكاة ألوان الجمال فى شعرهم وتقليد الانسجام الطبعى والحضرى فى أساليبهم ، فكثرت فى شعرهم التشبيهات والاستعارات المستمدة من الطبيعة ، ومن كل ما هو جميل تلذه الحواس وترتاح إليه النفوس — وعنوا بالجناس و المطابقة لما يمتازان به من قوة الانسجام :

على أن بعضهم قد عنى أيضا بحسن التعليل لما فيه من الجمال والطرافة ، كالوأواء والصنوبرى .

قال الوأواء[2] :

وقالوا بمقلته زرقة تشين فظل لها مطرقا
وهل يقطع السيف يوم الجلا د إذا لم يكن متنه أزرقا

(١) ديوان البحترى ص ٢٠٦ .
(٢) ديوان الوأواء ص ١٧٠ .

وقال يمدح سيف الدولة (١) :

من قاس جدواك بالغمام فما أنصف فى الحكم بين شكلين
أنت إذا جدت ضاحك أبدا وهو إذا جاد دامع العين

وقال الصنوبرى (٢) :

أيها الحاسد المعد لذمى ذم ماشئت رب ذم كحمد
لافقدت الحسود مدة عمرى إن فقد الحسود أخيب فقد
كيف لا أوثر الحسود بشكرى وهو عندى نعمة الله عندى

* * *

وإنك لتجد الألوان البديعية إنما تكثر فى فنون الترف من الشعر الشامى : من شعر الطبيعة والخمر والغزل — تلك الفنون التى عرفنا فيما سبق من الكلام على أغراض الشعر أنها كانت مترابطة ترابطا وثيقا، فكثيرا ما يقرن وصف الطبيعة بالخمر ، وكثيرا ما يقرن وصف الخمر بالغزل . بل إن اقتران الثلاثة بعضها ببعض ليس بالقليل .

ومع هذا الترابط بين تلك الأغراض بالجمع بينها فى مقام واحد — نجد بينها كذلك ترابطا فنيا يتجلى فى تبادل المعانى الخاصة بكل منها ، واستعارة الألفاظ الدالة على تلك المعانى . .

يقول الوأواء (٣) :

قم فاسقنى بالكأس لا بالقَنْقَلِ واشرب على وجه الزمان المقبل
كست السماء الأرض زهر نجومها بالزهر فاختالت بكم مسبل

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٣ .
(٢) الروضيات ص ٥٢ .
(٣) ديوان الوأواء ص ١٧٥ .

صاغ الغمام لها عيون جواهر وأجاد جلوتها لعين المجتلى
فتأرجت وتبرجت واستوقفت لحظ المجد وخطوة المستعجل
فيها عيون كحل مبهوتة كحلت بدمع الطل إذ لم تكحل
وبها خدود أخجلت فتصفرت وبها ثغور ضحك لا تأتلى
صفر وحمر كالمداهن أودعت دمع الندى فحملن أحسن محمل
شبه الخدود بعقب خطب مؤلم أو شبهها من بعد خوف موجل
ألوانها شتى الفنون وإنما غذيت بماء واحد من منهل

أرأت إلى الوأواء: كيف قرن الخمر بوصف الطبيعة — وإن كانت الطبيعة قد ذهبت بالقسط الأوفى — وكيف أكثر من الاستعارات إكثارا يخفى عن البيان والدلالة على مواضعها، حتى إن كل بيت به استعارة أو أكثر؟ وكيف أتى ببعض صور من الجناس: بين الزهر والزهر، وتأرجت وتبرجت — ومن الطباق: بين السماء والأرض؟ وكيف استعار للطبيعة بعض ألفاظ الغزل: من التبرج والتكحل والخدود والثغور والجلوة؟ وكيف استمد من مظاهر الترف والحضارة بعض الاستعارات: كاستعارة الجواهر للأزهار، وبعض التشبيهات: كتشبيه الأزهار الحمر والصفر بالمداهن؟

ويقول الصنوبرى [1]:

ومورد الخدين يخـ ـطر حين يخطر فى مورد
يسقيك من جفن اللجيـ ـن إذا سقاك دموع عسجد
حتى تظن النجم ينـ ـزل أو تظن الأرض تصعد
فإذا سقاك بعينه وبفيه ثم سقاك باليد

---

(١) الروضيات ص ٦٠ .

حياك بالياقوت ثم الد　　رمن تحت الزبرجد

قرن الصنوبرى الغزل بالخمر — وإن كان الغزل هو الغرض الأصلى لهذه الأبيات — وأكثر من الاستعارات، واستمد بعضها من الطبيعة والبيئة المترفة: من الورد والياقوت والزبرجد والدر والعسجد واللجين، وبعضها من الخمر فى سقاك بعينيه، وطابق بين ينزل ويصعد.

ويقول كشاجم[1]:

للنهر نهـــر قويق　　عندى يد ليس تجحد
عشية اصطدمت فيه　　رشا من المرد أغيد
فراح يسعى بكأس　　مدامها لا يصرد
محفـوفة بحبـاب　　مؤلف يتصعـد
كأنما نظم در　　من ثغره يتـولد
والأرض تكسى بزهر الـــ　　ـرياض وشيا معمد
كأن خـرد عـين　　بها تضاحك خرد
وأبيض اللـون ضاح　　وحالك اللون أسود
وأقحوان كما ارفـــ　　ـض لؤلؤ وتبدد
والنرجس الغض يرنو　　إلى البهـار المنضـد
كما أشـــار محب　　إلى حبيب بموعـد
والنهر بين اعتـدال　　من سيره أو تأود
كأفعـوان تلوى　　ثم استوى وتمـدد

---

(٢) ديوان كشاجم المخطوط ص ٤٨ ، ٤٩ .

كأن فيه سيوفا مهندات تجرد
فتارة هى تنضى وتارة هى تغمد
كأن نيلوفر الزهر فيه سراج توقد
طوراً تضىء وطورا لشدة الريح تخمد
كأن أوراقه الخضر بين مثنى وموحد
آثار أخفاف إبل فى تربة من زمرد
إذا الصبا وجهته أرتك شمراً مجرد
وإن تألق للشمس فيه ضوء مورد
حسبت أن لجينا يزف فيه بعسجد

. . . .

وقد جمع كشاجم بين الطبيعة والخمر والغزل ، وأكثر من التشبيهات والاستعارات والطباق . ويظهر أثر الجمال الطبعى والحضرى جليا فى جمال هذه الصناعة اللفظية وخفتها ورشاقتها وانسجامها كما يظهر فى تخير ألوانها وصورها ومادتها .

وما أظننى بحاجة إلى الإكثار من الأمثلة فى هذا المقام — وفى القليل ما يغنى عن الكثير — لأدل على كثرة ألوان البديع فى فنون الترف التى كانت مترابطة فى الشعر الشامى فى هذا العصر ترابطاً فنياً وثيقاً ، ولأدل على أن تلك الألوان البديعية كانت مستمدة من البيئة الطبيعية ، ومن الحياة الناعمة فى ذلك العصر ، وعلى أن الطبيعة قد أمدت الشعراء بالنصيب الأوفى من التشبيهات والاستعارات .

ولقد كان الشعر الشامى الأصيل أكثر اتصالاً فى صوره ومعانيه بالطبيعة التى لفتت الأنظار إليها بألوانها الزاهية وجمالها الفتان — منه بأى شىء آخر ، وكانت هذه الطبيعة مصدر الوحى القريب إلى خيال الشعراء واتجاههم الفنى .

فالصنوبرى يتغزل فى صبى كتاب فيقول[١] :

انظر إلى أثر المداد بخده   كبنفسج الروض المشوب بورده

ألست ترى أن تشبيه الصنوبرى للمداد الأزرق على الخد الأحمر بالبنفسج المختلط بالورد بين الروض — لم يكن إلا أثراً للطبيعة الشامية ذات الرياض والأزهار ، وأن تلك الصورة الطريفة إنما أوحت بها إليه هذه البيئة الروضية المزهرة ؟

ويقول فى وصف الخمر[٢] :

فسبح القوم لما أن رأوا عجبا   نور من الماء فى نار من العنب

فهل أوحى إليه شىء باستعارة النور لفقاقيع الماء ، ليجانس بين النور والنار — إلا بيئته التى يكثر فيها النور ؟

ويقول الوأواء[٣] :

وجنيت من شجر القلابيد الهوى   مما غرست بمهجتى ثمر الجفا

فنرى أن بيئة الشام ذات الجنات، والروضات قد أوحت إلى هذا الشاعر باستعارات أربع : الجنى والشجر والغرس والثمر ، فجمعها كلها فى بيت واحد ، وإن كان هذا التراكم قد أفسدها كما أفسد بيته المشهور :

---

(١) الروضيات ص ٥١ .
(٢) المصدر نفسه ص ٦٠ .
(٣) ديوان الوأواء ص ١٤٨ .

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت ‏ وردا وعضت على العناب بالبرد[١]

فقد اجتمع فى هذا البيت النرجس والورد والعناب وهى استعارات من حدائق الشام و بساتينها ، فوق مافيه كذلك من الاستعارات الأخرى التى لاتهمنا كثيراً فى هذا المقام .

ومهما قيل من أن هذا البيت أصله قول أبى نواس[٢] :

يبكى فيذرى الدر من نرجس ‏ و يلطم الورد بعناب

فإن لنا أن نقول : إن البيئة توحى بالاختيار كما توحى بالابتكار .

و إذا كانت الصناعة اللفظية بوجه عام قد كثرت فى فنون الترف فى الشعر الشامى — فإنها قلت فى الفنون الجدية التى امتاز بها الشعر فى ظل سيف الدولة ، والتى كان محورها حروب سيف الدولة وما اتصل بها من الأحداث .

لقد كان من شعراء سيف الدولة من أغرم بطبيعته إلى وصف الحرب وتمجيد البطولة والفخر بها ، مما جعله يعجل عن التفكير فى طرائف البديع وملحه — إلى تصوير مافى نفسه من المعانى التى تجيش بها النفس وتضطرم بها الجوانح ، فلا تكلف ولا تصنع ، و إنما هى الفطرة الزاخرة والشعور الحى يتدفق تدفق السيل المنحدر ، لاتكبله أغلال البديع التى تكبل من لايحس فى نفسه قوة العاطفة وفيض الشعور . و إذا جاء شىء من البديع فى شعره فإنما يجىء عفوا كما كان يأتى لدى الأقدمين المطبوعين .

وكذلك بلغ المتنبى وأبو فراس — القمة فى هذا الضرب المطبوع من الشعر . استمع إلى المتنبى يقول فى سيف الدولة بعد منصرفه من بعض حروبه مع الروم[٣] .

(١) المصدر نفسه ص ٨٤ .

(٢) ديوان أبى نواس ص ١١٠ .

(٣) ديوان المتنبى — شرح العكبرى — ج ٢ ص ٣٩٩ .

ما زلت تضربهم دراكا فى الذرا ضربا كأن السيف فيه اثنان
خص الجماجم والوجوه كأنما جاءت إليك جسومهم بأمان
فرموا بما يرمون عنه وأدبروا يطئون كل حنية مرنان
يغشاهم مطر السحاب مفصلا بمثقف ومهند وسنان
حرموا الذى أملوا وأدرك منهم آماله من عاد بالحرمان
وإذا الرماح شغلن مهجة ثائر شغلته مهجته عن الإخوان

واستمع إليه يقول فى معركة الثغور(١) :

رمى الدرب بالجرد الجياد إلى العدى وما علموا أن السهام خيول
شوائل تشوال العقارب بالقنا لها مرح من تحتها وصهيل
وما هى إلا خطرة عرضت له بحران لبتها قنا ونصول
همام إذا ما هم أمضى همومه بأرعن وطء الموت فيه ثقيل
وخيل براها الركض فى كل بلدة إذا عرست فيها فليس تقيل
فلما تجلى من دلوك وصنجة علت كل طود راية ورعيل
على طرق فيها على الطرق رفعة وفى ذكرها عند الأنيس خمول
فما شعروا حتى رأوها مغيرة قباحا وأما خلقها فجميل
سحائب يمطرن الحديد عليهم فكل مكان بالسيوف غسيل

* * *

واستمع إلى أبى فراس يقول لسيف الدولة بعد أن أنفذه فى بعض السرايا فظفر وانتصر(٢) :

(١) ديوان المتنبى — تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .
(٢) ديوان أبى فراس ص ٤٣ ، ٤٤ .

يا ضارب الجيش بى فى وسط مفرقه ... لقد ضربت بنفس الصارم العضب
لا تحرز الدرع عنى نفس صاحبها ... ولا أجير ذمام البيض واليلب
ولا أعود برمحى غير منحطم ... ولا أروح بسيفى غير مختضب
حتى تقول لك الأعداء راغمة ... أضحى ابن عمك هذا فارس العرب
هيهات لا أجحد النعماء منعمها ... خلفت يا ابن أبى الهيجاء فى أبى
يا من يحاذر أن تمضى على يد ... مالى أراك لبيض الهند تسمح بى
وأنت بى من أضن الناس كلهم ... فكيف تبذلنى للسمر والقضب
ما زلت أنكره فضلا وأجحده ... نعمى وأوسع من عجب ومن عجب
حتى رأيتك بين الناس مجتنبا ... تثنى على بوجه غير متئب
فعندها وعيون الناس ترمقنى ... علمت أنك لم تخطىء ولم أصب

* * *

وأبو فراس يكتوى بنار الغربة ، ويذوق آلام الأسر فى بلاد الروم ، فيرسل الشعر غناء حزينا ، يذوب رقة حينا ، ويقذف بالحمم ويفيض بالغضب حينا آخر . فهل ترى ذلك المقام مقاما يتلمس فيه الشاعر البديع ، ويجرى وراءه — كما يفعل الشعراء الخليون الوادعون الذين لا يشغلهم جد الحياة والشعور بهمومها عن ترف البديع وألاعيب الصناعة اللفظية ؟

ولئن ورد البديع فى مثل هذه المواقف إنما يرد زاخرا بالحيوية متضامنا مع سائر مقومات الأسلوب فى تصوير الشعور . وإليك هذا المثال شاهدا على ما نقول .

بلغ أبا فراس أن والدته قصدت حضرة سيف الدولة من منبج تكلمه فى المفاداة وتتضرع إليه ، فلم يكن عنده ما رجت من حسن الإيجاب ، ووافق

ذلك عنفا من الدمستق بأبى فراس ومن معه من الأسرى وزيادة فى إرهاقهم ، فكتب إلى سيف الدولة (١) :

يا حسرة ما أكاد أحملها … آخرها مزعج وأولها
عليلة بالشام مفردة … بات بأيدى العدى مُعَلّلُها
إذا اطمأنت وأين ؟ أو هدأت … عنت لها ذُكْرَةٌ تقلقلها
تسأل عنا الركبان جاهدة … بأدمع ما تكاد تمهلها
يا من رأى بحصن خرشنة … أسد شرى فى القيود أرجلها
يا من رأى فى الدروب شامخة … دون لقاء الحبيب أطولها
يأيها الراكبان هل لكما … فى حمل نجوى يخف محملها
قولا لها إن وعت كلامكما … وإن ذكرى لها ليذهلها
يا أمتا هذه منازلنا … نتركها تارة وننزلها

. . . . . .

لم تخل هذه الأبيات من ألوان الصناعة ، وإن كانت قليلة كالطباق بين آخرها وأولها والجناس بين عليلة ومعللها .

ولكن هل تحس بأن هناك صنعة فى هذا الشعر ؟ أتشعر بثقل فى ذلك الطباق أو ذاك الجناس ؟ أترى الاستعارة فى أسد الشرى متكلفة ؟ إنما هذه الألوان البديعية فى ذلك الشعر أوتار حزينة تنسجم مع أوتار سائر الأسلوب فى تصوير لوعة الشاعر وحزنه لأمه الحائرة الملتاعة لفراقه ، والتى لا تجد من يعينها على فداء ابنها وتخليصه من الأسر ورده إليها .

مثل هذا الشعر الحى البعيد عن تعمل الصنعة وتكلفها قلما تجده فى هذا العصر فى غير ظل سيف الدولة الملىء بالأحداث الجسام .

* * *

(١) اليتيمة جـ ١ ص ٦٠ .

على أن الصناعة اللفظية المعيبة قد تتطرق إلى الشعر الجدى حتى إلى شعر أرباب الطبع الأصيل فى هذا الباب كقول أبى فراس (١) :

إن أسيافنا القصار الدوامى ... صيرت ملكنا طويل الدوام

نحن قوم لنا سداد أمور ... واصطلام الأعداء من وسط لام

واقتسام الأموال من وقت سام ... واقتحام الأهوال من وقت حام

فقد جانس بين الدوامى والدوام ، و بين اصطلام ووسط لام ، و بين اقتسام ووقت سام ، و بين اقتحام ووقت حام ؛ وفى كل ذلك الجناس تعقيد وتلفيق غريب يخرج به الجناس عن صورته الأصلية الموسيقية إلى نوع من العبث واللعب بالألفاظ والكلمات . ولكن ذلك على أية حال قليل نادر ولا يكون إلا فى غفلة من الشاعر عن جد المقام ، وعما تمليه الحماسة الحق من صور التعبير المطبوعة البريئة من التكلف والتعقيد ، فينساق مع روح العصر و يجرفه تيار الجيل .

قلت إذن الصناعة اللفظية فى الجانب الجدى من الشعر فى ظل سيف الدولة ، على حين قد كثرت فى فنون الترف من هذا الشعر ، وكانت الطبيعة الشامية الجميلة من عوامل الإكثار منه فى تلك الفنون خاصة ، كما كانت مصدرا للكثير من صوره وألوانه . ولعل صلته القوية بالطبيعة هى التى جعلته خفيف الظل فى معظم صوره الشامية .

* * *

و يشارك البيئة الطبيعية فى أثرها فى فنون البديع — البيئة الاجتماعية بوجه عام . وقد بينا فيما سبق أثر الترف والتأنق فى الاتجاه إلى الزخرفة وتجميل الأساليب ، وفى إمداد الشعر بألوان من البديع — ولا سيما التشبيهات والاستعارات .

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ١٦١ .

ومن آثار البيئة الاجتماعية فى الشعر ظهور بعض التشبيهات فيه — نتيجة لاتصال الشعراء بالنصرانية بالجوار، والرحلة إلى الأديرة، وحروب المسلمين مع الروم.

ومن ذلك قول الصنوبرى[١] :

وبهار مثل الزنانير محـــــفوف بزهر الخير والحوذان

وقول الوأواء[٢] :

شد زُنّارَهُ على هيف الخصــــر وشد القلوب بالزُّنّار

وقول السرى[٣] :

أنظر إلى الليل كيف تصدعه رايةُ صبح مبيضة العذب

كراهب حن للهوى طربا فشق جلبابه من الطرب

وقوله[٤] :

والفجر كالراهب قد مزقت من طرب عنه الجلابيب

وقول أبى بكر الخالدى[٥] :

والليل من فتكة الصباح به كراهب شق جيبه طربا

* * *

وكذلك كان لانتشار التشيع فى بيئة الحمدانيين وغيرها من البيئات فى هذا

---

(١) الروضيات س ٣٨ .
(٢) ديوان الوأواء س ١٠٢ .
(٣) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ جـ ١ س ١٢١.
(٤) المصدر نفسه .
(٥) المصدر نفسه س ١٦٧ .

العصر — كان له أثره فى ظهور بعض التشبيهات والكنايات فى شعر بعض الشعراء الحمدانيين ، كقول[١] الوأواء فى مدح سيف الدولة :

قل لسمى الوصى يا ثانى القطـــر ويا ثالث الربيعـــين

وقوله يتغزل[٢] :

ولمى عليه أشد من وله البتول على الحسين

وقوله[٣] :

إنى سألتـــك بالنبى محمـد ووصيه الهادى الأمين المهتدى

وقول الصنوبرى[٤] :

وكذا الهاشمى مثلك لايمـــدح إلا بهاشمى الكلام

* * *

وتأثرت بعض صور الصناعة فى الشعر بموجة المجون واللهو والاستهتار التى شاعت منذ أوائل العصر العباسى . كالاستعارة فى قول الوأواء[٥] :

سأطيل السجود فى قبلة الكأ س بتسبيح ألسن العيدان

وحسن التعليل فى قول الصنوبرى[٦] :

دخول النار للمهجور خـير من الهجر الذى هو يتقيه

لأن دخوله للنار أدنى عذابا من دخول النار فيه

* * *

(١) ديوان الوأواء ص ٢٢٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٨ .
(٣) المصدر نفسه ص ٨٩ .
(٤) الروضيات ص ٦٥ .
(٥) ديوان الوأواء ص ٢٤٤ .
(٦) الروضيات ص ٥٠ .

وقد أدت العناية بالخط وبجويده وعظم شأن النساخين والخطاطين فى هذا العصر من أمثال محمد وعبد الله ابنى مقلة إلى كثرة اتخاذ حروف الكتابة وأشكالها وتنقيطها صوراً للتشبيهات والاستعارات الطريفة :

قال الوأواء[1] :

وكأن عقرب صدغه لما انثنت   قاف معلقة بعطفة فاء

وقال[2] :

كتبت فى نهار خد أنيق   واو ليل مليحة التفريق

وقال الصنوبرى[3] :

ما أخطأت نوناته من صدغه   شيئاً ولا ألفاته من قده

وقال أيضاً[4] :

وروض أحسنت تكتيبه   به المزن وتنقيطه

وقال المتنبى[5] :

وكل فتى للحرب فوق جبينه   من الضرب سطر بالأسنة معجم

* * *

وكان لتعدد الأجناس فى المجتمع الإسلامى من الديلم والروم والسودان وغيرهم — أثر فى بعض التشبيهات كذلك . فالوأواء مثلا يشبه نظرة الحبيب بسيوف الديلم الذين عرفوا بالقسوة والفتك وسفك الدماء .

(١) ديوان الوأواء ص ٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٦٩ .
(٣) الروضيات ص ٥١ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٨ .
(٥) ذكرى أبى الطيب للدكتور عبد الوهاب عزام ص ٤٣٠ .

فيقول[1] :

الديلم الديلم آفاتى ومن يقوى على الديلم إلا من صبر
كنا نخاف القتل من أسيافهم فاليوم ما نقتــل إلا بالنظر

ويشبه النجوم فى الليل المظلم بأحداق الروم فى محاجر السودان فيقول[2] :

وكأن النجوم أحداق روم ركبت فى محاجر السودان

* * *

وجملة القول إن الشعراء قد استمدوا كثيراً من صور الصنــاعة فى الشعر فى ظل سيف الدولة مما يحيط بهم من ألوان البيئة الطبيعية والاجتماعية — وإن كان أثر الطبيعة فى ذلك أجلى وأوضح .

(٣)

ومن خصائص الشعر العباسى المبالغة فى المعانى .

وليس معنى ذلك أن المبالغة لم تــكن فى الشعر العربى قبل العباسيين ، فقد وجد منها الـكثير فى شعر الأوائل ، ولـكنها شــاعت فى العصر العباسى حتى صار مذهبا عاماً للمحدثين ، ولا سيما بعد أن دعا إليها قدامة فى كتابه نقد الشعر ، وفضلها على الحد الأوسط[3] .

وكان للتشيع الذى ساد كثيراً من البيئات الإسلامية فى القرن الرابع — ومنها بيئة الحمدانيين — أثر كبير فى اتجاه الشعر إلى المبالغة فى المدح بوجه خاص حتى كأن كل ممدوح قد أصبح إماما من أئمة الشيعة الذين رفعهم الشيعيون الغالون فوق الإنسانية ، وخلعوا عليهم أوصافاً مفرطة فى الغلو والمبالغة .

---

(١) ديوان الوأواء ص ١١٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٣ .
(٣) نقد الشعر ص ٣٥ .

وأكثر ما تظهر المبالغة — فى شعر المتنبى الشاعر العراقى الكوفى ، والكوفة مهد التشيع ، فنشأ المتنبى نشأة شيعية غالية لم تلبث أن استحالت إلى قرمطية خالصة[١] ، تبيح للناس أو لبعض الناس على الأقل من الرأى والقول والعمل مالم يكن يستباح[٢] .

ومن مبالغاته قوله فى مدح سيف الدولة :

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الإسلام

وقوله :

فلما رأوه وحده قبل جيشه دروا أن كل العالمين فضول

وقوله :

تشبيه جودك بالأمطار غادية جود لكفك ثان ناله المطر
تكسب الشمس منك النور طالعة كما تكسب منها نورها القمر

وقوله :

إن كان قد ملك القلوب فإنه ملك الزمان بأرضه وسمائه
الشمس من حساده والنصر من قرنائه والسيف من أسمائه
أين الثلاثة من ثلاث خلاله من حسنه وإبائه ومضائه
مضت الدهور وما أتين بمثله ولقد أتى فعجزن عن نظرائه

وقد عمم المتنبى هذه المبالغة فى شعره ، ولم يقف بها عند موضوع خاص ، فهو يقول فى وصف رماح سيف الدولة :

---

(١) مع المتنبى ج ١ ص ٧٠ .
(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٢٤ .

قواض مواض نسج داود عندها إذا وقعت فيه كنسج الخدرنق

ويقول فى غبار الحرب :

عجاجاً تعثر العقبان فيه كأن الجو وعْثٌ أو خَبَار

ويقول للحبيبة مبالغاً فى وصف جسمه بالنحول :

حلت دون المزار فاليوم لوزر ت لحال النحول دون العناق

ومن مبالغات غيره من شعراء سيف الدولة قول السرى الرفاء فى المدح[١] :

وأجريت بالقتل الدماء فلو جرت به الخيل حولا ما أثرن القساطلا

وقول الوأواء فى الغزل[٢] :

ولو نصبوا رحى بإزاء دمعى لكانت من تحدره تدور

وقول أبى عثمان الخالدى[٣] :

وأنحلنى بالهجر حتى لو أننى قذى بين جفنى أرمد ما توجعا

* * *

ولاشك أن المبالغة إذا جاوزت الحد ، وركبت متن الشطط ، كما فى معظم الأمثلة السابقة — تعد عيبا من عيوب الشعر لأنها تحيله إلى ضرب من الشعوذة وتبعده عن صادق الوجدان وطبيعة الحياة . وإذا كان الأدب — كسائر الفنون — تعبيرا عن الحياة وتصويرا لها — « فلا بد أن يكون ملائما للحياة متمشيا معها ، فلا بد أن يكون معتدلا اعتدال الحياة مستويا استواءها لاغلو فيه ولا إفراط[٤] » أما أن يجمح به الخيال ، فيخرج عن المألوف ، وينبو عما يقبله العقل ويتجافى عن قوانين الحياة — فإن هذا شطط وهيام فى وديان الضلال العقلى ،

(١) ديوان السرى ص ٢١٥ .

(٢) يوان الوأواء ص ١١١ .

(٣) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٧٢ .

(٤) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ١٦٩ .

ولا يعد من الفن الرائع أو الأدب القويم ، بل هو خيال شارد وأوهام منحرفة.[١]
ولقد أورد صاحب المثل السائر بيتين فى معنى واحد أحدهما للمتنبى وهو :

كأنما تلقاهم لتسلكهم فالطعن يفتح فى الأجواف مايسع

والثانى لقيس بن الحطيم وهو :

ملكت بها كفى فأنهرت فتقها يرى قائما من دونها ماوراءها

ثم قال : وأبو الطيب أكثر غلوا فى هذا المعنى ، وقيس بن الحطيم أحسن لأنه قريب من الممكن ، فإن الطعنة تنفذ حتى يتبين فيها الضوء ، وأما أن يجعل المطعون مسلكا يسلك — كما قال أبو الطيب — فإن ذلك مستحيل ولا يقال فيه بعيد[٢] .

فابن الأثير فضل بيت ابن الحطيم ، لأن معناه قريب من الممكن على حين كان معنى بيت المتنبى مستحيلا .

وعلى هذا جمهرة الأدباء والنقاد تراهم ينفرون من الإحالة والمبالغة المقيتة ، وقد عدوها من معايب المتنبى فى الشعر .

(٤)

وقد عمد الشعراء العباسيون إلى التعمق فى المعانى ومزجها بالروح الفلسفى والمنطق وتوليدها من العلوم المختلفة ، وجرهم ذلك إلى استعمال ألفاظ الفلاسفة والعلماء وصيغهم وتعبيراتهم . وكان ذلك كله نتيجة للثقافة الضخمة الغزيرة التى تنوعت وتكاملت فى عهد العباسيين ، فصارت تشمل الثقافة العربية من دينية ولغوية ، والثقافات الأجنبية من فارسية ويونانية وغيرها . والشعر الشامى

(١) الأصول الفنية للأدب ص ٩٥ .
(٢) المثل السائر ص ٣٠٢ .

الأصيل يمتاز بوجه عام بالوضوح وعدم العناية بالبحث فى دقائق المعانى والفلسفات ، وذلك لما سبق أن قررناه من أن الثقافة لم تبلغ فى الشام ما بلغته فى العراق ، إذ أن ترجمة العلوم الأجنبية ونضج العلوم العربية وتكامل الثقافة بوجه عام ، كل أولئك إنما كان على عهد العباسيين الذين اتخذوا مقرهم بغداد فى العراق — ولما سبق أن ذكرناه كذلك من أن الشاميين يعتمدون فى شعرهم على الوراثة والبيئة أكثر مما يعتمدون على العلم والثقافة . هذا إلى أن الشاميين بوجه عام يتعشقون الجمال والوضوح لأن طبيعة بلادهم جميلة صافية ، وهم ينزعون فى شعرهم إلى الصور والألوان التى تعتمد على الحس أكثر مما تعتمد على العقل والمنطق والتفكير المجرد . وحسبك أن الوأواء الشاعر الشامى يقول فى بعض غزله :

يا من حلا حين ذاقه نظرى   لو لم يبن منه مر إعراض

أرأيت إلى هذه الحسية المفرطة التى جعلته يذوق حبيبه بنظره كما يذوق بعض الفواكه الشامية الحلوة بلسانه ؟

وهذه الحسية التى استولت على الشاميين إنما كانت أثرا لهذه الطبيعة التى استحوذت على حسهم بصورها وألوانها بل وطعومها ، فاستمدوا منها معظم تشبيهاتهم واستعاراتهم وأخيلتهم ، كما ذكرنا فى الكلام على الخاصة السابقة . ولكننا نعلم أن معظم الشعراء فى ظل سيف الدولة كانوا طارئين على حلب وافدين عليها من الأقاليم الأخرى ولا سيما العراق ؛ فهل افترق شعر هؤلاء عن شعر الشاميين ؟ وهل كانوا أكثر عمقا ، وأقرب إلى التأثر بالفلسفة والعلم من أبناء تلك البيئة الشامية السمحة السهلة ؟

ليس هناك من شك فى هذا الاختلاف ، وإن كان ذلك التفاوت يعظم بين شعر المتنبى الشاعر العراقى ، وبين شعر جميع الشعراء الشاميين ، على حين

يكاد لا يبلغ درجة ذات بال بين سائر الشعراء الطارئين ، و بين أولئك الشاميين . وقد يعلل ذلك بأنه ليس من اللازم أن يزخر بالثقافة مكان ما ، فيكون جميع الشعراء أو جلهم فى هذا المكان ملمين بما فيه من الثقافة ، مستخدمين إياها فى إنتاجهم الشعرى ؛ لأن الثقافة لا يعيها الإنسان وعيا تلقائيا دون جهد وعناء ، بل لا بد من تكليف النفس الاطلاع عليها وتحصيلها ، ومن أجل هذا نجد شاعرا فى بلد قد ألم بالثقافة المعروفة فى بلده ، بل المعروفة فى عصره — فظهر ذلك جليا واضحا فى شعره ، و إلى جانبه نجد شاعرا آخر لم يتح له ذلك ؛ فبدا شعره خالى الوفاض ، فقيرا فى ثقافته ، متواضعا فى معانيه .

هذا إلى أن ضعف الخلافة الإسلامية فى بغداد ، واضطراب الأمور فى العراق ، وما كان لذلك من أثر فى انقسام الدولة العربية — كل أولئك زهد الكثير من الشعراء فى الاستقرار فى العراق الذى كان من قبل منتجعا للشعراء ومستقرا للعلماء والفضلاء ، حيث لم يعد المقام يستطاب هناك ، بعد أن آلت الحال إلى الفوضى والاضطراب . وشغلهم طلب الرزق عن أن يتدارسوا الثقافة و يلموا بها حبا فيها ، وطلبا للمزيد منها . و يكفى أن يقرأ الشاعر من الشعر وعلوم اللغة ما يؤهله ليقول شعرا يستعين به على طلب القوت — فى عصر اضطربت فيه الحياة الاقتصادية اضطرابا عظيما ، وضن فيه الأغنياء والأمراء إلا على من أشاد بذكرهم ، وأشبع رغبتهم فى المدح والثناء . فإذا تسنى هذا لرجل فما أسرع ما يقصد من يطمع فى نواله وعطائه ، وما أسرع ما يلقى بآماله على شعره الذى يمدح به هذا و ينتجع به ذاك ، و يترك حرفته الحقيرة التى لم تكن تقوم بأمره : من رفو للثياب أو الجزارة أو نحو ذلك ، مما كان يحترف به بعض الشعراء فى ذلك الزمان .

فلا نعجب إذن إذا وجدنا معظم الشعراء الوافدين على سيف الدولة

يشبهون إلى حد كبير من نبتوا فى البيئة الشامية التى لم يكن للثقافة فيها الشأن الذى كان لها فى سائر الأقطار الأخرى ولا سيما العراق .

وإذا كانت حلب فى عصر سيف الدولة قد غصت بالعلماء والأدباء والفضلاء — فليس معنى ذلك أن سيكون لها خطر كبير فى تأثيرها فى شعراء الشام السيفيين الذين نبتوا فى الشام ، قبل أن تستحدث هذه الثقافة المحدثة الطارئة على بيئة فقيرة متواضعة العلم والعرفان . وإنما يطلب ذلك التأثير الكبير فيمن جاءوا بعد عصر سيف الدولة وأظلتهم تلك البيئة بظلها وهم فى طور النشأة والتكوين كأبى العلاء ، وإن لم يبق ذلك الظل وارفا ، كما كان فى أيام أمير بنى حمدان العظيم .

وبعد هذا الإيضاح المجمل أستطيع أن أقول : إن الشعر بوجه عام فى ظل سيف الدولة لم يكن للفلسفة والعلم نصيب كبير فى خصائصه فلم يكثر فيه التعمق فى المعانى والتفنن فى توليدها ، واستعمال المصطلحات العلمية وألفاظها ، ويكاد لا يشذ عن ذلك من شعراء سيف الدولة غير أبى الطيب المتنبى الذى يعد شعره بحق امتدادا لذلك التطور الذى مضى فيه الشعر العباسى ، بعد الاتصال بالثقافات الأجنبية ونمو الحركة العلمية عامة فى عصر العباسيين .

• • •

فنحن إذا تلمسنا آثار الثقافة فى شعر غير المتنبى لم نجد إلا آثار قليلة الألوان من الثقافة الخفيفة التى يستوى فيها الخاصة والعامة غالبا ، ومن ذلك ما نلحظه من أثر المعارف الدينية فى قول الوأواء[١] :

لها حكم لقمان وصورة يوسف ونغمة داود وعفة مريم
ولى سقم أيوب وغربة يونس وأحزان يعقوب ووحشة آدم

(١) ديوان الوأواء ص ٢٧٦ .

وقوله[١] :

قالت وقد فتكت فينا لواحظها   ما إن أرى لقتيل الحب من قود

وقول الصنوبرى[٢] :

كأن بين رياحيننا   أعشار آى ضمها مصحف

وقول كشاجم فى عشور القرآن متعرضا لبعض القراءات[٣] :

هى مشكولة بعدة أشكا   ل ومقروءة على أنحاء

فإذا شئت كان حمزة فيها   وإذا شئت كان فيها الكسائى

وقول بعض آل حمدان[٤] :

خذوا بدمى هذا الغزال فإنه   رمانى بسهمى مقلتيه على عمد

ولاتقتلوه إننى أنا عبده   ولم أر حرا قط يقتل بالعبد

ومن ذلك أيضاً ما نراه من تأثر الشعر بالمعارف الطبية فى قول الصنوبرى فى نهر قويق[٥] :

قويق على الصفراء ركب جسمه   . . . . الخ . .

وبالفلك فى قول كشاجم من قصيدة له فى وصف أجزاء القرآن[٦] :

سبعة شبهت بها الأنجم السبـ   ـعة ذات الأنوار والأضواء

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٣ .

(٢) الروضيات ص ٢٣ .

(٣) ديوان كشاجم المخطوط ص ٤ .

(٤) اليتيمة — طبعة سنة ١٩٣٤ — ج ١ ص ٧٢ .

(٥) انظر ص ١١ من هذا البحث .

(٦) ديوان كشاجم المخطوط ص ٣ .

وفى قول الوأواء يصف الدواليب والنواعير[١] :

فكأنها فلك يدور وعلوه   يرمى القرار بكل نجم طالع

* * *

أما المتنبى فقد كان مثقفا ثقافة واسعة — كان يعد أحد علماء اللغة والنحو فى عصره على ما عرفنا فيما سبق ، كما يدل شعره على أنه أحاط بكثير من المعارف وألوان الثقافة المختلفة فى القرن الرابع الهجرى .

وكان أبو الطيب يعمل على أن تتجاوب ثقافته الغزيرة مع تلك البيئة العلمية التى استحدثها سيف الدولة فى حلب ، ليدل على مبلغ ثقافته ، ولينال إعجاب العلماء والمثقفين .

فهو يولد المعانى من النحو ، ويستخدم مصطلحاته فى شعره ، فيقول فى مدح سيف الدولة :

تفيت الليالى كل شىء أخذته   وهن لما يأخذن منك غوارم

إذا كان ما تنويه فعلا مضارعا   مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

على أن أثر النحو فى شعر المتنبى لم يقف عند هذه الظاهرة ، فقد كان المتنبى — كما نعلم — كوفيا ، ومذهب الكوفيين أكثر اتساعا وأرحب صدرا لقبول شواذ اللغة ، فوقع فى كلامه كثير مما يجيزه الكوفيون ويرده البصريون . ويظهر أن المتنبي كان يعمد عمدا إلى هذه الشواذ التى لا تدور إلا على ألسنة العلماء . يقول ابن جنى : « إن كان فى بعض ألفاظه تعسف عن القصد فى صناعة الإعراب من التمسك بأهداب شاذ ، أو حمل على نادر — فمن غير جهل كان منه ولا قصور عن اختيار الوجه الأعرف له[٢] .

---

(١) ديوان الوأواء ص ٢٧٥ .
(٢) ذكرى أبى الطيب ص ٢٥٨ .

ومن ذلك قوله فى مدح سيف الدولة :

مهلا ألا لله ما صنع القنا فى عمرو حاب وضبة الأغتام

أراد عمرو بن حابس ، والكوفيون يجيزون الترخيم فى غير النداء[١].

وقوله :

حالفته صدورها والعوالى لتخوضن دونه الأهوالا

ولتمضن حيث لايجد الرمح مدارا ولا الحصان مجالا

قال العكبرى : قال أبو الفتح كان الوجه أن يقول لتمضين كما تقول حلفت هند لتقومن — وهى وإن كانت جماعة الصدور (صدور الخيل) والعوالى ، لكنه أجراها مجرى الواحدة — وقد أجاز الكوفيون مثل ذلك : لتمضن ولترمن . فعلى هذا حذفت الياء لسكونها وسكون النون الأولى بعدها ، ولم تحرك الياء بالفتح[٢] .

وإلى هذا كان المتنبى يحاول أن يبهر اللغويين بما يأتى به فى شعره من الألفاظ النافرة والكلمات الشاذة حتى كأنه وليد خباء وغذى لبن لم يطأ الحضر ولم يعرف المدر كما يقول الصاحب بن عباد[٣] . ومن ذلك قوله :

أيفطمه التوارب قبل فطامه ويأكله قبل البلوغ إلى الأكل

* * *

واستعمل المتنبى ألفاظ المتصوفة ومعانيهم المغلقة . ومن ذلك قوله :

نحن من ضايق الزمان له فيـــك وخانته قربك الأيام

قال الصاحب : ولو وقع هذا القول فى عبارات الجنيد والشبلى لتنازعته

---

(١) العكبرى ج ٢ ص ٢٨٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٦ .

(٣) الكشف عن مساوىء شعر المتنبى ص ١٤ .

المتصوفة دهرا بعيدا[١] . هذا إلى أنه كان يحاول أن يرضى الفقهاء والمتكلمين بمثل قوله :

فنى تغرم الأولى من اللحظ مهجتى ... بثانية والمتلف الشيء غارمه

وما حاجة الأظعان حولك فى الدجى ... إلى قمر ما واجد لك عادمه

يقول الدكتور طه حسين : وما أرى إلا أنه قصد بهذا الطباق بين الوجود والعدم إلى مداعبة المتكلمين كما قصد بالإتلاف والغرم إلى مداعبة الفقهاء[٢] .

وخرج المتنبى عن طريق الشعر إلى طريق الفلسفة — كما يقول الثعالبى[٣] — فى مثل قوله :

والأسى قبل فرقة الروح عجز ... والأسى لايكون قبل الفراق

وقوله :

إلف هذا الهواء أوقع فى الأنـ ... ـفس أن الحمام مر المذاق

ويقول الحاتمى فى رسالته عن المتنبى : ووجدت أبا الطيب أحمد بن الحسين قد أتى فى شعره بأغراض فلسفية ومعان منطقية ، فإن يكن ذلك منه عن فحص ونظر وبحث — فقد أغرق فى درس العلوم ، وإن يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق فقد زاد على الفلاسفة بالإيجاز والبلاغة والألفاظ العربية ، وهو على الحالتين على غاية من الفضل وسبيل نهاية من النبل[٤] .

وقد أورد الحاتمى من حكمته ما أتى فى شعره موافقا لقول أرسطاليس فى حكمته . ومن ذلك قوله :

---

(١) اليتيمة ج ١ ص ١٤٥ .
(٢) مع المتنبى ج ٢ ص ٣٥٦ .
(٣) اليتيمة ج ١ ص ١٤٥ .
(٤) عن النقد المنهجى ص ١٦٤ .

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل(١)

وأصله عند أرسطو : «روم نقل الطباع من ردىء الأطماع شديد الامتناع»

وقوله :

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلل(٢)

وأصله عند أرسطو : قد يفسد العضو لصلاح أعضاء ، كالكى والفصد اللذين يفسدان الأعضاء لصلاح غيرها .

ويرى الدكتور طه حسين أن المتنبى قد فتح بعض أبواب الفلسفة لأبى العلاء فى قوله :

يدفن بعضنا بعضا ويمشى أواخرنا على هام الأوالى

وكم عين مقبلة النواحى كحيل بالجنادل والرمال

وقوله :

إذا ما تأملت الزمان وصرفه تيقنت أن الموت ضرب من القتل

وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل

وقوله :

سبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها منعنا بها من جيئة وذهوب

تملكها الآتى تملك سالب وفارقها الماضى فراق سليب

وقوله :

ولذيذ الحياة أنفس فى النفـ ـس وأشهى من أن يمل وأحلى

(١) عن الفن ومذاهبه فى الشعر ص ١٩٩ .
(٢) عن المصدر نفسه .

وإذا الشيخ قال أف فما مـــل حياة وإنما الضعف ملا

آله العيش صحة وشباب فإذا وليا عن المرء ولى

أبدا تسترد ماتهب الدنـــيا فياليت جودها كان بخلا

فكفت كون فرحة تورث الغـــم وخل يغادر الوجد خلا

وهى معشوقة على الغدر لاتحـ ـفظ عهدا ولا تتمم وصلا

وقوله :

فذى الدار أخون من مومس وأخدع من كِفَّةِ الحابل

تفانى الرجال على حبها وما يحصلون على طائل(١)

ومن الأدباء من يشك فى ثقافة المتنبى الفلسفية كالأستاذ أحمد أمين ، إذ يقول : إن أبا الطيب فيما نعلم لم يثقف ثقافة فلسفية ، إنما تثقف ثقافة عربية خالصة . قرأ بعض دواوين الشعراء ، ولقى كثيرا من علماء الأدب واللغة كالزجاج وابن السراج والأخفش وابن دريد ، وكل هؤلاء لا شأن لهم بالفلسفة ومناحيها(٢) .

ويقول : فإن كان قد وصل إلى أبى الطيب قليل من حكم اليونان ونظمها فإن أكثر حكمه منبعها نفسه وتجاربه وإلهامه ، لا الفلسفة اليونانية وحكمها ... فنحن إذا التمسنا له مثالا فى حكمه فلسنا نجده فى أفلاطون وأرسطو وأبيقور ، وإنما نجده فى زهير بن أبى سلمى ، وقد نطق فى الجاهلية بالحكم الرائعة ، مما دلته عليه تجاربه ، وأوحى به إلهامه ، كما نجده فى شعر أبى العتاهية ، وقد ملأ عالمه حكما وأمثالا خالدة على الدهر(٣) .

---

(١) مع المتنبى ج ٢ ص ٣٨٦ و ٣٨٨ و ٣٩٠ و ٣٩١ و ٤٠٧ على التوالى .
(٢) عدد الهلال الخاص بالمتنبى أول أغسطس سنة ١٩٣٥ ص ١١٣٥ .
(٣) المصدر نفسه ص ١١٣٤ .

ويقسم الدكتور مندور[1] حكم المتنبي قسمين : أحدهما يطلق عليه الحكمة العملية أو الأخلاقية ، وهو يرى أن هذا القسم من الممكن أن يصدر فيه الشاعر عن تجار به في الحياة ، كما يرى أن له نظائر في الشعر العربي — والآخر يسميه الحكمة النظرية ، وهذه لا يستبعد أن يكون المتنبي قد تأثر فيها بالفلسفة اليونانية وبخاصة عندما تشهد الصياغة بذلك ، إذ أن معجم الشاعر وطرق تعبيره قد تكون في مسائل الأخذ عن غيره أو التأثر بهم أهدى سبيل إلى الحقيقة .

ورأى الدكتور مندور عندى أقرب إلى القصد والصواب ، ورد مائة حكمة تقريبا إلى حكم أرسطو كما فعل الحاتمي لا يخلو من تعسف ، كما أن الشك فى ثقافة المتنبي الفلسفية لامبرر له ، فالشاعر كان كثير القراءة والاطلاع وملازمة الوراقين ، وكان مشغوفا باقتناء الكتب ، جادا في الحصول عليها ، مستصحبا إياها في حله وترحاله كما حدثنا من كتبوا عن تاريخه وأخباره — فما الذي يمنع أن يكون بعض هذه الكتب في الفلسفة ؟ وهل الثقافة الفلسفية مقصورة على الأخذ المباشر عن الفلاسفة والدراسة عليهم ؟ على أن الفارابي ـ أرسطو العرب ـ كان في بلاط سيف الدولة فما الذي يمنع أن يكون المتنبي قد أخذ بعض الأفكار الفلسفية عنه ؟

ومهما يكن من شيء فقد كثرت الحكمة في شعر المتنبي كثرة لم تعهد لشاعر قبله حتى عدها الصاحب مذهبا لم يسبق إليه . وكان منها ما هو أثر لثقافته الفلسفية ، ومنها ما كان أثرا لحياته وتجار به ونظراته في المجتمع وما يجرى فيه من أحداث .

* * *

(١) النقد المنهجى ص ١٦٦ وما بعدها .

وثقافة المتنبى الفلسفية لايقتصر أثرها فى شعره على ما استعار من الحكم وبعض الأفكار الفلسفية فحسب ، وإنما يظهر أثرها أيضا فيما استعار من الأقيسة المنطقية والقوالب الفلسفية . كما نرى فى مثل قوله :

الجيش جيشك غير أنك جيشه فى قلبه ويمينه وشماله

إذ يجعل ممدوحه جيشا ، ثم يجعل الجيش جيشه ، وفى الوقت نفسه يجعله جيش الجيش ، فهو جيش دائر على نفسه ، أو هى فكرة فيها دور كما يقول أصحاب الفلسفة[1] .

ونحن نجد من شعراء سيف الدولة غير المتنبى من ظهرت فى شعره آثارات من هذه الصياغة الفلسفية والمنطقية ، كالصنوبرى إذ يقول[2] :

غلبتم على قلبى فصرتم أحق بى وأملك لى منى فصرت لكم عبدا

جرى حبكم مجرى حياتى ففقدكم كفقد حياتى لا رأيت لكم فقدا

وكالوأواء إذ يقول[3] :

فكأنما بخل الضنا بضنا ضناى من النحول

وطبيب هجرك لايجو د بهجر هجرك للعليل

ومثله قوله[4] :

قد سرنى أنهم قد سرهم سقمى فازددت كيما يسروا بالضنى سقما

الله يعلم أنى يوم بينهم ندمت إذ لم أمت فى إثرهم ندما

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر ص ٢٠٣ .
(٢) الروضيات ص ٥٠ .
(٣) ديوان الوأواء ص ١٨٣ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٠٠ .

وقول الناشىء الأصغر فى عتاب الملوك[1] :

إذا أنا عاتبت الملوك فإنما　　أخط بأقلامى على الماء أحرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب ألم يكن　　توده طبعاً فصار تكلفا

وأثر الثقافة الفلسفية فى شعر هؤلاء لا يكاد يتعدى هذه الصيغ الفلسفية والتعبيرات المنطقية .

وأما الحكمة التى يغلب عليها أن تكون صدى للحياة الاجتماعية — فإنه يندر من الشعراء من لم تكن له فيها جولة ، وإن اختلفت الجولات مدى واتساعاً وعمقاً . وجولة المتنبى على أية حال فى هذه كانت العظمى ، إلى جانب ما يكاد ينفرد به من الحكمة النظرية التى كانت صدى لثقافته الفلسفية .

ونحن لا نخلى الحكمة أيا كان نوعها من التأثر بالثقافة ، لأن ثقافة الأديب لها أثر خطير فى تلوين تصوره لدنياه ، وللمظهر الذى تلوح فيه لعينيه وتقع فى روعه وتتمثل فى خياله . فليس معنى قولنا ـ إذن ـ أن من الحكم ما كان صدى للمجتمع والحياة والتجارب أن هذا النوع لم يتأثر أيضاً بما يكون قد ألم به الشاعر من ألوان العلم والمعرفة .

ومهما يكن من شىء فقد كان للصراع النفسى الذى تمثل فى تنافس الشعراء حول سيف الدولة ، إلى جانب ما تمثل من تنافس القادة والرؤساء فى المحيط الإسلامى العام ـ أثر جدير بالذكر فيما بدا من حكم ذلك الزمان . وأظهر ما يكون ذلك فى حكم المتنبى التى تصور الحسد وفساد النفوس فى تلك الأيام من مثل قوله :

خليلك أنت لا من قلت خلى　　وإن كثر التجمل والكلام

وقوله :

شر البلاد مكان لا صديق به　　وشر ما يكسب الإنسان ما يصم

(١) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ جـ ١ ص ١٩٧ .

وقوله :

إنما أنفس الأنيس سباع   يتفارسن جهرة واغتيالا

وقوله :

من أطاق التماس شيء غلابا   واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

وقوله :

كل غاد لحاجة يتمنى   أن يكون الغضنفر الرئبالا

ومن حكم غير المتنبي في ذلك قول ابن نباتة السعدي(١) :

وكم من خليل قد تمنيت قربه   فجربته حتى تمنيت بعده

وقول أبي عثمان الخالدي(٢) :

كن من صديقك لا من غيره حذراً   إن كان ينجيك منه شدة الحذر

وكان للصراع الحربي أثر فيما نلحظه من تفجر ينابيع الحكمة على ألسنة الشعراء ، ولا سيما أبو فراس الذي اكتوى بنيران هذه الحروب ، وقاسى من ويلاتها ما تشيب له النواصي ويقطع الأنفس حسرات . ولولا حروب الحمدانيين مع الروم ما كانت روميات أبي فراس التي نلحظ فيها كثيراً من أمثلة الحكمة الصافية التي جادت نفسه المكلومة الحزينة بها وهو غريب عن الأهل، والأوطان ، وقد عز الفداء — من مثل قوله :

هل ترى النعمة دامت   لصغير أو كبير

وقوله :

خفض عليك ولا تكن قلق الحشا   مما يكون وعله وعساه

---

(١) اليتيمة — طبعة سنة ١٩٣٤ — ج ٢ ص ٣٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٩ .

فالدهر أقصر مـدة مما ترى وعساك أن تلقى الذى تخشاه

وقوله :

كذلك الوداد المحض لايبتغى له ثواب ولا يخشى عليه عقـاب

* * *

ومن هذا نعلم أن ذلك الضرب من الحـكمة لم ينفرد به المتنبى ، و إن امتاز ما ورد منه فى شعره خاصة — بالعمق والقوة والـكثرة ، وكان لثقافته العميقة الواسعة وطبعه الخصب أ كبر الأثر فى تلك الخصائص التى امتازت بها الحـكمة فى شعره بوجه عام مما جعله جديرا أن يكون فى عصره حكيم الشعراء .

* * *

هل أثر سيف الدولة فى الخصائص الفنية ؟

(١) لقد أوحت بطولة سيف الدولة إلى الشعراء المعانى الرائعة التى تضاهيها روعة وقوة — كقول المتنبى فى سيف الدولة :

نهبت من الأعمار مالوحويته لهنئت الدنيا بأنك خالد

جعل للمتنبى قتل الأعداء نهبا لأعمارهم ، واغتصاباً لها ؛ ثم فرض أن هذه الأعمار الـكثيرة اتصل بعضها ببعض ، فـكونت عمرا طويلا غير محدود ، ثم ارتقى إلى أوج أسمى ، ففرض أن سيف الدولة وهب هذه الأعمار غير المتناهية التى انتزعها من أعدائه ، ولم يكتف بأن هذا ـ إن تم ـ يصل به إلى الخلود ، بل ادعى أن الدنيا بمن فيها وما فيها تهنأ بهذا الخلود[١] . قال ابن جنى لولم يمدح أبو الطيب سيف الدولة إلا بهذا البيت لـكان قد بقى فيه وحده مالا يخلقه الزمان[٢] .

---

(١) من مقال للأستاذ على الجارم بعدد الهلال الخاص بالمتنبى ص ١١٤٦ .

(٢) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ — ج ١ ص ١٥٧ .

وكقوله أيضاً :

إذا ما لم تسر جيشاً إليهم أسرت إلى قلوبهم الهلوعا

أرأيت إلى المتنبى وقد جعل سيف الدولة مصدر الرعب يسيره إلى قلوب الأعداء فيقوم مقام الجيوش فى دحرهم وهزيمتهم .

ومن روائع معانى المتنبى فى سيف الدولة قوله(١) :

ضاق الزمان ووجه الأرض عن ملك ملء الزمان وملء السهل والجبل

فنحن فى جذل والروم فى وجل والبر فى شغل والبحر فى خجل

وما أورع قول النامى(٢) :

هذا عجاج فأين الأفق وهو قنا وتلك خيل فأين الأرض وهى دم

لقد ملىء الجو قنا حتى يكاد النامى يتلمس الأفق فلا يراه ، وقد احتجب بهذه القنا المتشابكة — على حين قد صارت الأرض بحاراً من الدماء تسبح فيها الخيل فلا يرى لها أديم .

ومن روائع معانى ابن نباته السعدى فى سيف الدولة قوله(٣) :

سيوفك أمضى فى النفوس من الردى وخوفك أمضى من سيوفك فى العدى

فتى يتحامى لذة النوم جفنه كأن لذيذ النوم فى جفنه قذى

أطرفك شاك أم سهادك عاشق يغار على عينيك من سنة الكرى

ومن سهرت فى المكرمات جفونه رعى طرفه فى جوها أنجم العلا

---

(١) المصدر نفسه ص ١٦٦ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٩٢ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٥٨ .

خليس ينام القلب والجفن ساهر ولا تغمد العينان والقلب منتضى

(٢) وقد اتخذ الشعراء من اسم سيف الدولة سبلا شتى للافتنان فى مديحه ، واستخدموا هذا الاسم فى توليد كثير من معانى المدح والإشادة بالبطولة .

كقول المتنبى :

تهاب سيوف الهند وهى حدائد فكيف إذا كانت نزارية عربا

وقوله :

أتحسب بيض الهند أصلك أصلها وأنك منها ساء ما تتوهم

إذا نحن سميناك خلنا سيوفنا من التيه فى أغمادها تتبسم

وقوله :

فأنت حسام الملك والله ضارب وأنت لواء الدين والله عاقد

وكقول السرى :

ورأيت سيف الدولة السيف الذى يزداد فى ظلم الكريهة رونقا

وقول أبى فراس :

ولما ثار سيف الدين ثرنا كما هيجت آساداً غضابا

وقول الوأواء :

هو السيف إلا أنه ليس نابيا إذا عاقة المقدور عن كل ضارب

(٣) وقد كان لشخصية سيف الدولة العظيمة الجديرة بالحب والإعجاب أثر فى استحداث خصائص فنية فى شعر بعض الشعراء وخاصة المتنبى، ومن ذلك ماعده الثعالبى من محاسن المتنبى التى تفرد بها من مخاطبة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب والصديق .

كقوله لسيف الدولة :

مالى أكتم حبا قد برى جسدى ... وتدعى حب سيف الدولة الأمم
إن كان يجمعنا حب لغرته ... فليت أنا بقدر الحب نقتسم

وقوله لكافور :

وما أنا بالباغى على الحب رشوة ... ضعيف هوى يبغى عليه ثواب
وما شئت إلا أن أدل عواذلى ... على أن رأيى فى هواك صواب
وأعلم قوما خالفونى فشرقوا ... وغربت أنى قد ظفرت وخابوا
إذا نلت منك الود فالمال هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

وقوله لابن العميد :

تفضلت الأيام بالجمع بيننا ... فلما حمدنا لم تدمنا على الحمد
فجد لى بقلب إن رحلت فإننى ... مخلف قلبى عند من فضله عندى

وقوله لعضد الدولة :

أروح وقد ختمت على فؤادى ... بحبك أن يحل به سواكا
فلو أنى استطعت حفظت طرفى ... فلم أبصر به حتى أراكا

وهذه الخاصة لم توجد فى شعر المتنبى قبل اتصاله بسيف الدولة ، فما علة ذلك ؟ العلة هى أن المتنبى لم يتصل قبل سيف الدولة بممدوح مثله ملك قلبه ونال إعجابه ، فسيف الدولة قد أعطى المتنبى حتى أغناه . وشعره ينطق بفضل سيف الدولة الكبير عليه ، ومن ذلك قوله :

تركت السرى خلفى لمن قل ماله ... وأنعلت أفراسى بنعماك عسجدا
وقيدت نفسى فى هواك محبة ... ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

إذا سأل الإنسان أيامه الغنى وكنت على بعد جعلنك موعدا

كما أنه رأى فيه المثل الأعلى الذى يتعشقه ، فهو الفتى العربى البطل المجاهد ، والمتنبي متعصب للعروبة تغنى بها من قبل أن يتصل بسيف الدولة ، وأظهر ألمه لمارآه من سيادة الأعاجم ، إذ يقول :

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم

. . . . . الخ

كما أنه كان يحب الحرب حتى جعل الكلام عنها فى أول قصائد المدح أحيانا كالنسيب عند الشعراء الآخرين ، فهو يقول فى مطلع القصيدة التى مدح بها إبراهيم التنوخى :

أحاد أم سداس فى أحاد لييلتنا المنوطة بالتناد

كأن بنات نعش فى دجاها خرائد سافرات فى حداد

أفكر فى معاقرة المنايا وقَوْدِ الخيل مشرفة الهوادى

زعيم للقنا الخطى عزمى بسفك دم الحواضر والبوادى

ويبدو أن المتنبي كان إذا أحب شيئا استخدم لغة الحب فى الكلام عنه ، ولهذا نراه يستعمل ألفاظ الغزل والنسيب فى أوصاف الحرب ، وقد عد الثعالبى أيضا ذلك من محاسن المتنبى التى تفرد بها ومن ذلك قوله :

أعلى الممالك ما يبنى على الأسل والطعن عند محبيهن كالقبل

وقوله :

شجاع كأن الحرب عاشقة له إذا زارها فدته بالخيل والرجل

أحب المتنبي سيف الدولة إذن لكرمه الوفير و بطولته الفذة وعروبته النادرة

فى ملوك هذا الزمان ، فكان من أثر ذلك تلك الخاصة الفنية التى ظهرت فى شعره أول ما ظهرت — فى مدائحه له ، وهى استخدام ألفاظ الحب فى المديح . وليست العلة لذلك ما ذكره الثعالبى من أنه كان يسلك هذا المسلك اقتدارا منه ، وتبحرا فى الألفاظ والمعانى ، ورفعا لنفسه عن درجة الشعراء ، وتدريجا لها إلى مماثلة الملوك .

ولعل الذى حدا الثعالبي أن يعلل لهذه الخاصة ذلك التعليل أنه رآها أيضا فى شعر المتنبي لمن مدحهم بعد سيف الدولة ككافور وابن العميد وعضد الدولة . ولا يستطيع قائل أن يقول : إن المتنبي كان يحب هؤلاء كما كان يحب سيف الدولة .

والحق أن ظهورها فى مدحه هؤلاء أيضا إنما كان بعد أن استقرت فى شعر المتنبي وصارت خاصة له فى المدة الطويلة التى لازم فيها سيف الدولة وهى زهاء تسع سنوات . لقد تعود المتنبي على ذلك فى ظل سيف الدولة مدفوعا بعامل العاطفة ، فلما فارق ظله لم يتخل عن تلك الخاصة مدفوعا بعامل العادة .

ويتصل بهذه الخاصة خاصة أخرى بدت فى شعر المتنبي فى ظل سيف الدولة تلك هى أن المتنبي كان قليلا ما يبد أمدائح سيف الدولة بالغزل جريا على عادة الشعراء السالفين ومحافظة على نهج الأقدمين ، على حين كان قبل اتصاله بسيف الدولة يحافظ على هذا النهج غالبا فيبدأ المدائح بالنسيب .

فقصائد المتنبي فى مدح سيف الدولة زهاء الأربعين قصيدة لم يبدأ منها بالغزل إلا نحو ثلاث عشرة . وأما قصائده قبل اتصاله بسيف الدولة فهى حوالى الخمسين قصيدة ، بدأ منها بالغزل نحو الأربعين . وقد يبدو اتصال تلك الخاصة بما قبلها غريبا ، ولكن المتنبي يعلل لنا زهده فى النسيب بعد أن صار إلى سيف

الدولة — بما يزيل تلك الغرابة التى تسبق لأول وهلة إلى الأذهان وذلك حيث يقول :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم ... أ كل فصيح قال شعرا متيم ؟
لحب ابن عبد الله أولى فإنه ... به يبدأ الذكر الجميل ويختم
أطعت الغوانى قبل مطمح ناظرى ... إلى منظر يصغرن عنه ويعظم

فلو صدقنا المتنبى فيما يقول من أنه بعد أن اتصل بسيف الدولة الجدير بالحب — قد تملكه حبه فصرفه عن حب النساء التى ينسب بهن الشعراء ، لوصدقناه فى دعواه هذه لعرفنا اتصال هذه الخاصة بسابقتها ، إذ كانت كل منهما أثرا لشخصية سيف الدولة فى نفس المتنبى وشعره ، وظاهرة من ظواهر حب المتنبى لذلك الأمير العظيم .

ولولا ما قدمناه من الأسباب التى تؤيد المتنبى فيما يدعيه من هذا الحب لقلنا إنها دعوى شاعر متكسب متهم فيما يقول . وهل أدل على حب المتنبى لسيف الدولة من هذا الغزل الرمزى الذى يغالب فيه الشوق إلى هذا الصديق القديم وهو عند كافور أحد خصوم الحمدانيين :

حببتك قلبى قبل حبك من نأى ... وقد كان غدارا فكنت أنت وافيا
وأعلم أن البين يشكيك بعده ... فلست فؤادى إن رأيتك شاكيا
فإن دموع العين غدر بربها ... إذا كن إثر الغادرين جواريا

والحق أن المتنبى لم يكن من شعراء الغزل الذين تحتل المرأة من قلوبهم محل العشق والهيام ، وإنما كان يتغزل مدفوعا بعامل التقليد والمحافظة على عمود الشعر الذى جرى جمهرة الشعراء من قبله على التمسك به والمحافظة عليه . وقد فعل ذلك فى معظم قصائده قبل أن يتصل بسيف الدولة . ولكن يبدو أنه كان ضائقا

بهذا المسلك الذى لايلائم طبيعته ، ولا يتفق مع فطرته ، فلما اتصل بسيف الدولة كان قد جاوز طور التقليد ، وأصبحت له شخصيته المتميزة من ناحية ، ثم رأى من ناحية أخرى أميرا جديرا بالحب والمدح والثناء ، وكثرت أمامه مناظر الحرب التى يتعشقها و يغرم بوصفها والتحدث عنها — كل أولئك جعله يعجل عن الغزل إلى ما يميل إليه قلبه ، زاهدا فى نسيب يعلم فيما بينه و بين نفسه أنه سلوك تقليدى محض لايعبر عن ذات نفسه حق التعبير .

ومن مطالعه السيفية غير الغزلية قوله :

دروع لملك الروم هذى الرسائل   يرد بها عن نفسه و يشاغل

وقوله :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع   إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

وقوله :

لكل امرىء من دهره ماتعودا   وعادات سيف الدولة الضرب فى العدا

وقوله :

سر حيث شئت يحله النوار   وأراد فيك مرادك المقدار

ويكاد لايشبه المتنبى فى قلة بدء قصائد المديح بالنسيب من شعراء سيف الدولة الذين تيسرلى الحصول على دواوينهم — سوى أبى فراس ، فإن له نحو ست وعشرين قصيدة فى مديح سيف الدولة وعتابه لم يبدأ منها بالنسيب إلا أربعا واشتراك هذين الشاعرين فى هذه الخاصة ، مع مانعرف من تشابههما فى القوة فى حياتهما ، وفى أدبهما وفى قوة اتصالهما بسيف الدولة — يجعلنا نقول : إن الجانب الجدى من شخصية سيف الدولة وحياته كان له أثر كبير فى امتياز هذين الشاعرين بتلك الخاصة ، وإن كانت قد وجدت فى شعر أحدهما منذ

نشأته وهو أبو فراس ، وفى شعر الآخر بعد أن استظل بظلال الحمدانيين وهو المتنبى .

وممن جرى على خطة البدء بالنسيب فى معظم مدائحه عامة السرى الرفاء . فسيفياته تبلغ نحو سبع وثلاثين قصيدة ، بدأ منها بالغزل اثنتين وعشرين . ومدائحه لسوى سيف الدولة فى حلب أو غيرها نحو ثلاث وسبعين قصيدة ، بدأ منها بالغزل نحو السبع والخمسين .

والوأواء له فى سيف الدولة ثلاث قصائد بدأها كلها بالنسيب ، وكذلك فعل فى مدائحه الثلاث للشريف العقيقى ممدوحه فى دمشق .

وكان الوأواء خاصة بسرف فى النسيب الذى يبدأ به قصائد المديح ، مما جعل هذا النسيب يربو غالبا على المديح ، وحسبك أن غزله التمهيدى الذى بدأ به إحدى[1] قصائده لسيف الدولة بلغ ثلاثا وعشرين بيتا ، على حين لم يتجاوز المدح سبعة أبيات .

* * *

وظاهرة قلة بدء القصائد بالغزل فى شعر المتنبى التى ظهرت فيه فى ظل سيف الدولة ـ بقيت كاستخدام لغة الحب فى المديح فى ذلك الشعر بعد أن فارق الشاعر الحمدانيين ، وإن اختلفت النسبة صعودا وهبوطا فى ذلك الغزل الذى بدأ به المتنبى القصائد التى أنشأها فى مدح من مدحهم بعد سيف الدولة . ومهما يكن من شىء فإن نسبة القصائد التى بدأها بالغزل فى مديح هؤلاء إلى القصائد التى لم يبدأها به فى هذا المديح لم تبلغ ما بلغته فى مديح من مدحهم قبل اتصاله بسيف الدولة إلا فى قصائده القليلة فى ابن العميد .

---

(١) مطلع هذه القصيدة :

قفوا ما عليكم من وقوف الركائب لنبذل مذخور الدموع السواكب

[ص ٢٤ ديوان الوأواء] .

فللمتنبى فى مديح كافور إحدى عشرة قصيدة بدأ منها بالغزل ثلاثا ؛ واشتملت اثنتان على غزل لم يبدأ به ، ولكنه كان تاليا فى إحداهما لما بدأ به الشاعر من الشكوى والحماسة ، وفى أخراهما كان تاليا لما بدأ به من الشكوى والفخر والحكمة .

والمتنبى فى ابن العميد ثلاث قصائد ، بدأ منها بالغزل اثنتين ، وله فى عضد الدولة سبع قصائد ، بدأ منها بالغزل ثلاثا .

وإذا صح هذا الاحصاء يتبين صدق ما أقول من أن تلك الخاصة التى بدأت فى شعر المتنبى فى ظلال سيف الدولة — وهى قلة بدء القصائد بالغزل — قد لازمته أيضا بوجه عام بعد أن فارق تلك الظلال ، وكانت كسابقتها أثرا من آثار شخصية سيف الدولة فى الخصائص الفنية .

وحب المتنبى لسيف الدولة لم يقتصر أثره فى غزله على قلته فى ظله وظل من اتصل المتنبى بهم بعده ، وإنما كان له أثر آخر فيما قاله من الغزل القليل فى ظل كافور ، هو انتحاؤه فيه منحى الرمزية التى أشرت إليها فيما سبق . وأعنى بذلك أنه لم يقصد فى غزله هذا إلى التغزل فى النساء على ما يفهم من ظاهره ، وإنما كان يقصد إلى حبيبه القديم سيف الدولة وإلى الحياة فى جوار ذلك الحبيب الذى قضت الأيام عليه رغم أنفه أن يفارقه، وأن يصور حسرته وآلامه أجل ذلك ، وقد كان يحس رهبة هذا الفراق قبل حدوثه بعد أن فسدت حاله لدى سيف الدولة بدسائس خصومه وحساده ، مما حمله على أن يقول :

يامن يعز علينا أن نفارقهم　　　وجداننا كل شىء بعدكم عدم

وموقف المتنبى من ذلك الغزل موقف الحبيب الغاضب العاتب على حبيبه فى شدة مرة، وفى رفق مرة أخرى ؛ وموقف الحانق تارة على الدنيا التى تفرق بين المحبين ، وتارة أخرى على نفسه التى سولت له هذا الفراق .

ففى أول قصيدة أنشدها كافورا :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا   وحسب المنايا أن يكن أمانيا

رمز إلى سيف الدولة بذلك الحبيب الغادر الذى ينازعه قلبه الشوق والحنين إليه ، فيزجر هذا القلب و يحمله على أن يكف عن ذكر من لم يرع ذمام المودة وعهد الوفاء :

حببتك قلـبى . . . .   الأبيـات السابقـة .

وفى قصيدة أخرى يرمز إلى الحياة فى كنف سيف الدولة حيث البداوة أغلب من الحضارة ، وحيث البأس أظهر من اللين — يرمز إلى ذلك بالتغزل فى الأعرابيات ذوات الجمال الطبيعى الذى يفضله الشاعر على جمال الحضريات المصنوع ، و يرمز بهؤلاء الحضريات إلى ما فى مصر من حياة ناعمة فاترة فيها تكسر وفيها خضوع[١] ، و يفضل الحياة الأولى على الثانية بتفضيله الأعرابيات على الحضريات .

يقول المتنبى فى أول القصيدة :

من الجآذر فى زى الأعاريب   حمر الحلى والمطايا والجلابيب

ثم يقول بعد قليل :

ما أوجه الحضر المستحسنات به   كأوجه البدويات الرعابيب

والقصيدة الثالثة من القصائد التى اشتملت على الغزل من الكافوريات مطلعها :

أود من الأيام مالا توده   وأشكو إليها بيننا وهى جنده

(١) مع المتنبى جـ ٢ ص ٥٦٦ .

ثم يقول :

يباعدن حبا يجتمعن ووصله فكيف بحب يجتمعن وصده

أبى خلق الدنيا حبيبا تديمه فما طلبي منها حبيبا ترده

ولست أشك فى أنه يعنى سيف الدولة ، إذ يذكر هذا الحبيب الذى فرقت بينه و بينه الأيام ، و إذ يستبعد أن ترد الأيام هذا الحبيب بعد أن صد عنه ، مع أنها قد عملت على الجفاء بينه و بين ذلك الحبيب وهو فى جواره قبل أن تفرق الأيام بينهما ، و إذا كان من طبع الأيام ألا تديم المحبة بين المحبين فمن العبث أن يطلب منها أن ترد الحبيب إلى الوصل بعد أن أعرض وهجر .

وأما القصيدة الرابعة التى بدأها بالغزل فى مديح كافور فهى قافيته التى يقول فى مطلعها :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

أما تغلط الأيام فى بأن أرى بغيضا تنائى أو حبيبا تقرب

ولله سيرى ما أقل تئية عشية شرق الحدالى وغرب

عشية أحفى الناس بى من جفوته وأهدى الطريقين التى أتجنب

فبم يرمز المتنبى إلى هذا البغيض الذى يود أن تبعده الأيام ؟ إلى كافور بعد أن خاب أمله فيه أن يوليه ولاية . ومن الحبيب الذى يرجو أن تقرب به الأيام بعد أن أبعدته عنه ؟ إنه سيف الدولة . قال العكبرى فى شرح البيت الأخير : « يريد بأحفى الناس سيف الدولة . يقول هو ألطف الناس بى ، فجفوته بتركه إلى غيره ، وكان أهدى الطريقين أن أعود إليه ، إلا أنى هجرته ، وأخذت الطريقة إلى مصر[1] » .

(١) شرح التبيان : العكبرى ج ١ ص ١٢٧ .

وآخر قصيدة اشتملت على غزل من كافوريات المتنبى — هى نونيته التى قالها وقد بلغه أن قوما نعوه فى مجلس سيف الدولة . ومطلع هذه القصيدة هو قوله :

بم التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن

وقد صبغت مناسبة القصيدة غزله الرمزى فيها بطابع الحكمة وتزهيد الناس فى حب من لا يستحق الحب ، ثم بطابع السخط والغضب على أحبائه ، إذ يدعو عليهم بالبعد معلنا أنه لن يأبه لهذا البعاد ، لأنهم ليسوا أهلا أن تبذل روحه شوقا إليهم — وذلك حيث يقول :

مما أضر بأهل العشق أنهم هووا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا

تفنى عيونهم دمعا وأنفسهم فى إثر كل قبيح وجهه حسن

تحملوا حملتكم كل ناجية فكل بين على اليوم مؤتمن

ما فى هوادجكم من مهجتى عوض إن مت شوقا ولا فيها لها ثمن

* * *

وإذن فقد كان غزل المتنبى فى مدائح كافور غزلا رمزيا ، وليس من ذلك الغزل التقليدى الذى يقصد به إلى النسيب بالنساء . وقد يخالفنا فى هذا كله أو بعضه من لا يتفق معنا فى فهم جو هذا الغزل الذى عرضته الآن ، فيعد هذا الغزل كله أو بعضه نسيبا فى النساء على ظاهره . والحق أن الغزل الرمزى موضع خلاف بين المدارك والأذواق ، فليس فيه غالبا ما يقطع برمزيته ، ولكن هذا الحزن الصادق الذى يشع فى غزل الكافوريات ، إلى بعض الإشارات التى تفهم فى ثنايا الأبيات ، إلى ما عرف من تاريخ المتنبى من حب سيف الدولة ، ثم غضبه عليه وأسفه على فراقه ، ثم خيبة آماله فى كافور — كل هذا يوحى بأنه

هذا الغزل يخالف المألوف من غزل المتنبي التقليدى ، ويدعونا إلى أن نفهمه على غير ظاهره .

وقد يكون من الممكن أن نفهم بعض غزل المتنبي فى غير الكافوريات على وجه الرمزية ، ولكن لا أحسب أن دلائل الرمزية تحتشد فى هذا — احتشادها فى غزل الكافوريات .

ومن ذلك قول المتنبي من قصيدة يمدح بها أبا المنتصر شجاع بن أوس بن معن الرضى الأزدى :

أرق على أرق ومثلى يأرق   وجوى يزيد وعبرة تترقرق

جهد الصبابة أن تكون كما أرى   عين مسهدة وقلب يخفق

مالاح برق أو ترنم طائر   إلا انثنيت ولى فؤاد شيق

فقد يكون فى هذا رمز إلى آماله التى استولت على قلبه وحسه وإلى حنينه إلى موطنه بعد أن أحس بآلام الغربة ، وهو يتقلب فى بلاد الشام قبل اتصاله بسيف الدولة . وفى هذا الغزل لهجة صادقة مؤثرة ونغمة حزينة تؤيد هذه الرمزية ، كما يؤيدها ما عرف من تاريخ المتنبي من بعد الآمال وطول الأسفار ؛ ولكن دلائل الرمزية فى الكافوريات مع هذا — أقوى برهانا وأسطع بيانا .

والرمزية فى الغزل معروفة منذ القدم فى الشعر العربى : ومن الأدباء من يعد الافتتاحية الغزلية فى الشعر الجاهلى صورة رمزية . يقول الدكتور نجيب البهبيتى فى كتابه تاريخ الشعر العربى : « إن الاستفتاح الغزلى للقصيدة كان يأخذ الجو الذى يعيش فيه الشاعر والذى يملى عليه شعره . فالمرأة فى ذلك رمز وأسماء النساء أسماء تقليدية تجرى فى الشعر عند الشعراء دون وقوع على صاحباتها ، فيقول عمرو بن قميئة — وهو صاحب امرئ القيس — فى رحلته إلى قيصر :

قد سألتني بنت عمرو عن الـــأرضين إذ تنكر أعلامها
لما رأت ساتيدما استعبرت لله در اليوم من لامها
تذكرت أرضا بها أهلهـــا أخوالها فيها وأعمامها

ويتقل صاحب شعراء النصرانية عن أبى الندا قوله : « سبب بكائها أنها لما فارقت بلاد قومها ووقعت فى بلاد الروم — ندمت على ذلك ، وإنما أراد عمرو بن قميئة بهذه الأبيات نفسه ، فكنى عن نفسه بها . فهذا نص قديم أدرك فيه أبو الندا القيمة الرمزية لحديث عمرو عن ابنته[1] » ، ويمضى الدكتور نجيب فى هذا الرأى والبرهنة عليه بعرض أمثلة من الغزل الجاهلى موضحا رمزيتها مبينا ما ترمز إليه من جوانب التاريخ السياسى للعرب قبل الإسلام .

ونحن وإن كنا لانقول بعموم هذه الرمزية فى جميع الغزل التمهيدى فى العصر الجاهلى كما يبدو من كلام الدكتور نجيب ، إلا أننا لانشك فى أن بعض هذا الغزل كان ينحو منحى الرمزية ، مما يدل على قدم هذه النزعة فى الشعر العربى . فإذا انضم إلى ذلك ما عرف به المتنبى مما أشار إليه النقاد والأدباء من أنه كان يجنح أحيانا إلى أساليب الصوفية وطرقهم فى التعبير — لم تكن ثمة غرابة فى اتجاه المتنبى فى بعض غزله إلى هذه الرمزية التى عرفت فى الشعر العربى فى القديم والحديث ، ولا سيما أن الجو الذى اكتنفه فى ظل كافور كان جوا ملبدا قاتما يدعو إلى هذه الرمزية التى يجد فيها الشاعر نفسه أكثر استمتاعا بحرية التعبير .

وقد انفلتت من أبى فراس بعض أبيات فى غزله القليل فى قصائده الروميات ؛ نلمح فيها مثل هذه الرمزية التى انطبع بها غزل المتنبى فى الكافوريات .

لقد كان أبو فراس حانقا على سيف الدولة لإبطائه فى القيام بواجب فدائه وإنقاذه من ذل الأسر وشفائه من لوعة الغربة والبعد عن الوطن والأهل

(١) تاريخ الشعر العربى ص ١٠٠ وما بعدها . وانظر شعراء النصرانية ج ١ ٢٩٥ .

والصحاب مع أنه جدير بهذا الفداء ؛ فمثله لايقوم مقامه فى عشيرته وإن فضله على قومه لعظيم ، وقد صور ذلك فى غير موضع من شعره ؛ ومن ذلك قوله[١] :

متى تخلف الأيام مثلى لكم فتى ... طويل نجاد السيف رحب المقلد
متى تلد الأيام مثلى لكم فتى ... شديداً على البأساء غير ملهد
فإن تفتقدونى تفتقدوا شرف العلا ... وأسرع عواد إليها معود
وإن تفتقدونى تفتقدوا لعلاكم ... فتى غير مردود اللسان أو اليد
يطاعن عن أعراضكم بلسانه ... ويضرب عنكم بالحسام المهند

وأنا أرجح مايراه الدكتور أحمد بدوى من : «أن سيف الدولة لم يسرع إلى فك إسار ابن عمه قصدا ، وأن قلب سيف الدولة كان متغيرا على أبى فراس ، وأن الصفاء الذى كان يسود علاقتهما قد شابه شىء من الكدر والجفاء . والدليل على هذا ذلك الشعر الكثير الذى يحدثنا عن عتاب سيف الدولة له ؛ وما كان يبذله الشاعر من الجهد فى رد هذا العتاب[٢] » . ويقول الدكتور أحمد بدوى : «ولست أعرف السبب الحقيقى الذى دفع الأمير إلى العتب على ابن عمه ، ولكن مما لاشك فيه أن بعض أصدقاء أبى فراس قد غدر به ، وبعض حساده قد شمت فيه ، فمن المعقول أن يكون هؤلاء قد انتهزوا فرصة أسره ، وأوغروا صدر الأمير عليه ، ولا أدرى بم اتهموه ، ولا نصيب هذه التهمة من الصحة . وكل ماأستطيع إثباته هو أن سيف الدولة قد عتب على أبى فراس ، وأن الشاعر قد بذل جهده فى أن يرد هذا العتب[٣] » .

---

(١) ديوان أبى فراس ص ٧٩ ، ٨٠ .
(٢) شاعر بنى حمدان ص ٦٧ ، ٦٨ .
(٣) المصدر نفسه ص ٦٨ .

وبهذا نستطيع أن نفهم الرمزية التى فى غزل أبى فراس فى مطلع قصيدة من الروميات أرسلها إلى سيف الدولة :

أما لجميل عندكن ثواب ... ولا لمسىء عندكن متاب

وقوله فى رومية أخرى :

معللتى بالوصل والموت دونه ... إذا مت ظمآنا فلانزل القطر
حفظت وضيعت المودة بيننا ... وأحسن من بعض الوفاء لك العذر

وقوله فى هذه القصيدة .

بنفسى من الغادين فى الحى غادة ... هواى لها ذنب وبهجتها عذر
تروغ إلى الواشين فى وإن لى ... لأذنا بها عن كل واشية وقر

إلى أن يقول :

فلا تنكرينى يا بنة العم إنه ... ليعرف من أنكرته البدو والحضر
ولاتنكرينى إننى غير منكر ... إذا زلت الأقدام واستنزل النصر

لقد تشابه حال أبى فراس عند الروم ، وحال المتنبى لدى كافور ، إلى حد ما . فأبو فراس أسير لا يجد من ابن عمه سيف الدولة العزيز عليه خفة إلى فدائه ، والمتنبى عند كافور قد فارق سيف الدولة الحبيب ، وشعر بخيبة الآمال فى ممدوحه الجديد ، وهو أيضا قد أصبح فى مصر أسيرا أو يشبه الأسير قد ضرب كافور حوله مراقبة شديدة ؛ وأرصد عليه العيون والجواسيس مخافة أن يفلت فيملأ الدنيا عليه هجاء كما فعل بعد أن سنحت له فرصة الفرار . فكلاهما حزين واجد على سيف الدولة لأمر ما ، ومن أجل ذلك قد اتفقا فى هذه الرمزية ، وإن كانت هذه الخاصة لاتكاد تتعدى القليل من غزل أبى فراس فى الروميات ، على حين تكاد تعم غزل المتنبى فى الكافوريات .

ومهما يكن من شىء فإن غلبة الرمزية على غزل المتنبى فى ظل كافور — ظاهرة فى شعره جديرة بالملاحظة ، ولم تكن إلا أثرا لحب المتنبى لسيف الدولة وأسفه على فراقه وموجدته عليه ، وإن كان لخيبة آماله فى كافور أثر لا يجحد فيما شاب هذا الغزل من الحزن والأسى .

ونستطيع بعد ذلك أن نفهم السر فى أن ما قاله المتنبى من الغزل فى مدائح كافور كان أقرب إلى الطبع والتعبير عن خلجات النفس وأبعد عن التكلف الغالب على معظم غزل المتنبى فى غير مصر بما فى ذلك ما قاله فى ظل سيف الدولة نفسه من الغزل . ذلك بأن غزل المتنبى فى مدائح كافور كان وراءه حقيقة هى علاقته بسيف الدولة التى رمز إليها بهذا الغزل .

وأما غزله الآخر فهو لم يكن بوجه عام — كما ذكرت فيما سبق — ملبيا لداعى الصبابة والهوى ، وإنما هو غزل تقليدى جارى فيه الشعراء الأقدمين . وشاعر الغزل التقليدى يعمد إلى تصور المعانى العامة التى تجرى بين المحبين ، وأما حالات الحب الدقيقة ، ومايجرى بين المحبين من حوادث خاصة — فهو لا يصورها ، لأنه لم يجربها بنفسه[١] .

ومجمل القول إن شخصية سيف الدولة كان لها فى شعر المتنبى بوجه خاص — آثار امتد بعضها إلى شعره فى أطواره التالية لحياته فى ظل الحمدانيين .

ونستطيع بعد ذلك أن نلخص تلك الآثار فيما يأتى :

(١) استعمال ألفاظ الغزل والنسيب فى المديح .

(٢) قلة بدء قصائد المديح بالغزل والنسيب .

---

(١) الغزل عند العرب — حسان أبو رحاب — ص ١٠٨ .

وهاتان الخاصتان لازمتا شعر المتنبي — بوجه عام — بعد فراقه سيف الدولة أيضا .

(٣) الرمزية فى الغزل الذى ورد فى مدائح كافور ، وامتياز هذا الغزل بالصدق وقوة العاطفة — عن سائر غزل المتنبى بوجه عام — بما فى ذلك ما قاله من الغزل فى مدائح سيف الدولة .

وبعد :

فما الذى وصلت إليه بهذا البحث ؟

لقد وصلت إلى أن نهضة الشعر فى حلب فى ظل سيف الدولة كانت طارئة مستحدثة ، فالشعر فى حلب فى الفترة التى سبقت سيف الدولة من القرن الرابع — لم يكن شيئا مذكورا . وأن سيف الدولة قد أيقظ هذه النهضة ، فأفاد منها فى توطيد ملكه ونشر صيته فى الآفاق ، وفى إرضاء نزعاته الأدبية والعربية .

وأن البيئة السيفية الطارئة كان لها كثير من الأثر فى أغراض الشعر وفنونه وفى خصائصه ومميزاته ، إلى جانب الطبيعة التليدة ، واتصال بلاد الشام بغيرها من البيئات فى القديم والحديث .

وأن الشعر فى ظل سيف الدولة بوجه عام كان ذا تيارين متميزين إلى حد كبير : تيار الجد الذى استلزمته حياة الحمدانيين المحاربة المناضلة ، وتيار الترف والمجون — وقد استلزمته بيئة سيف الدولة المترفة بوجه خاص من ناحية ، والترف العام فى محيط الدولة العباسية من ناحية أخرى .

وأن تيار الجد يكاد يكون الخاصة الوحيدة التى تميز الشعر فى ظل سيف الدولة من الشعر فى حلب قبله ، ومن الشعر فى ظلال غيره من أمراء

ذلك العصر من ناحية أخرى . وبذلك التيار امتدت للشعر العربي جزالته وقوته وعروبته وقصيده ونبل معانيه وشرفها — فترة من الزمان .

* * *

ومن هذه النتائج يتبين أن الشعر في ظل سيف الدولة يصور إلى حد كبير أدبا إقليميا خاصا هو شعر إقليم حلب في فترة من فترات التاريخ ، وهو مع ذلك يشترك مع الشعر في سائر الأقاليم الأخرى في ذلك العصر — في أنه يمثل — في جانبه المترف خاصة — تحول الشعر العربي إلى ناحية الليونة والصناعة والزهد في القصيد والإقبال على المقطوعات ؛ كما يتبين أن ذلك الشعر بجانبيه الجدى واللاهى ليس فيه جديد ينفرد به عن سائر الشعر العربي بوجه عام .

والحق أن الذى ينظر إلى حالة الشعر العربي لايجده تغير في جملته ، وما يوجد من الفروق بين الأشعار وطرائقها في العصور المختلفة أكثره أو كله يرجع إلى الاختلاف في الأسلوب والديباجة وإدخال بعض الألفاظ والعبارات التى لم تكن ، ثم إلى اختلاف طرق الخيال باختلاف المنظورات كالفرق بين وصف الصحراء ووصف البساتين والفرق بين وصف الأطلال والكلام في الخمر ، وهذا لايعد من الأطوار الأدبية المعروفة ، لأنه مبنى على أصل واحد هو تقليد القدماء في الشعر الوجدانى[١] .

يقول ابن رشيق في كتابه العمدة في الكلام عن القدماء والمحدثين — وإنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه ، فالكلفة ظاهرة على هذا وإن أحسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن[٢] .

---

(١) مقدمة لدراسة بلاغة العرب للدكتور أحمد ضيف ص ١٧٤ .

(٢) العمدة جـ ١ ص ٥٨ .

وهذا يدل على أن الخلاف بين الشعر العربي فى عصر وآخر لم يكن فى اختراع نوع جديد من أنواع الشعر لم يكن معروفا من قبل ، وإنما هو فى الأسلوب والديباجة والصناعة ليس غير ، وكذلك كان الشعر فى ظل سيف الدولة .

نعم إن فن الحماسة قد ارتقى فى هذا الشعر رقيا عظيما ولا سيما فى شعر أبى الطيب ، ولكن ذلك كما قلت من قبل لا يعد ابتداعا لفن جديد ، إذ لم يتخل فيه الشاعر عن وجدانه وذاتيته ؛ وكل ما يقال فى ذلك أن هذا الفن القديم قد نما وقوى ، وكثر فيه القول الجيد كثرة منحته شيئا من الامتياز ، بالقياس إلى غيره من شعر الحماسة فى العصور الأخرى .

ولو تجرد المتنبى فى حماسته من نفسه التى كانت همه الشاغل فى كل ما يقول ويفعل — لسد حاجة الشعر العربى إلى الملحمة .

ومهما يكن من شىء فإن الشعر العربى كان وما يزال فى حاجة إلى نقاد يوجهونه وجهة موضوعية ، تفصل بينه وبين هذه الذاتية التقليدية التى تغلغت فيه منذ القدم ، وتلقى به فى أحضان المجتمع حتى نراه فى مصاف الآداب العالمية الرفيعة ، يسهم معها بنصيب موفور فى إسعاد الإنسانية ، وتصوير المثل العليا لها ؛ والأخذ بيدها وشد أزرها فيما تنشده من ألوان الخير والحق والجمال .

المراجع

(١) المراجع العربية

أولا : المخطوطات :

١ — إشارة التعيين إلى تراجم النحاة واللغويين : أبو المحاسن القرشى : نسخة بدار الكتب تحت رقم ١٦١٢ تاريخ .

٢ — الإمتاع والمؤانسة : أبو حيان التوحيدى : صورة شمسية بدار الكتب تحت رقم ١١٢١٥ ز .

٣ — بغية الطلب فى تاريخ حلب : كمال الدين بن العديم : نسخة بدار الكتب .

٤ — الديارات : الشابشتى : نسخة بدار الكتب تحت رقم ١٧٥٦ تاريخ .

٥ — ديوان الصنوبرى — الجزء الثانى : مصور على شريط بمعهد مخطوطات الجامعة العربية .

٦ — ديوان كشاجم : نسخة بدار الكتب تحت رقم ٥٩٧ أدب .

ثانيا : المطبوعات :

(ا) الكتب

٧ — أحسن التقاسيم : المقدسى : طبعة ليدن .

٨ — أدب مصر الإسلامية (عصر الولاة) : الدكتور محمد كامل حسين : نشر دار الفكر العربى .

٩ — استخدام المصادر وطرق البحث فى التاريخ المصرى الوسيط — الدكتور على ابراهيم حسن — نشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٩م

١٠ — الأسلوب ، الأستاذ أحمد الشايب : الطبعة الثانية : مكتبة النهضة

١١ — الأصول الفنية للأدب : الأستاذ عبد الحميد حسن : نشر مكتبة الأنجلو المصرية .

١٢ — إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : الأستاذ محمد راغب الطباخ — الطبعة الأولى : المطبعة العلمية بحلب .

١٣ — الأغانى : أبو الفرج الأصفهانى : طبع دار الكتب .

١٤ — الإمبراطورية البيزنطية : نورمان بينز : الطبعة المعربة : لجنة التاليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٠ م ،

١٥ — البداية والنهاية فى التاريخ : أبو الفداء : مطبعة السعادة ١٩٣٢ م

١٦ — بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة : السيوطى : مطبعة السعادة : الطبعة الأولى

١٧ — تاريخ آداب اللغة العربية : جورجى زيدان : مطبعة الهلال : ١٩١١ م .

١٨ — تاريخ الأدب العربى : الأستاذ أحمد حسن الزيات : مطبعة لجنة الترجمة والتأليف والنشر : الطبعة السابعة : سنة ١٩٣٩

١٩ — تاريخ الإسلام السياسى والثقافى والاجتماعى : الدكتور حسن إبراهيم حسن : الطبعة الثانية سنة ١٩٤٩ م

٢٠ — تاريخ الأمم والملوك : الطبرى : طبعة مصطفى محمد سنة ١٩٣٩ م

٢١ — تاريخ التمدن الإسلامى : جورجى زيدان : مطبعة الهلال : الطبعة الرابعة سنة ١٩٣١ م

٢٢ — تاريخ حماة : الأستاذ أحمد الصابونى : مطبعة حماة : الطبعة الأولى سنة ١٣٣٢ هـ

٢٣ — تاريخ الشعر العربى : الدكتور نجيب البهبيتى : مطبعة دار الكتب سنة ١٩٥٠ م

٢٤ — تاريخ الشعوب الإسلامية : بروكلمان : النسخة المعربة : طبع دار الملايين : بيروت : سنة ١٩٤٩ م

٢٥ — تاريخ الفلسفة : ديبور : ترجمة الأستاذ محمد عبد الهادى أبى ريدة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٨ م

٢٦ — تاريخ الفلسفة : الأستاذ محمد على مصطفى وزميله : الطبعة الأولى : سنة ١٩٣٣ م

٢٧ — التاريخ الكبير : ابن عساكر : مطبعة روضة الشام:سنة ١٣٣٢ م

٢٨ — تاريخ النقد الأدبى عند العرب : الأستاذ طه أحمد إبراهيم : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر : سنة ١٩٣٧ م

٢٩ — تجديد ذكرى أبى العلاء : الدكتور طه حسين : مطبة المعارف : سنة ١٩٣٧ م .

٣٠ — تطور الخمريات فى الشعر العربى : الأستاذ جميل سعيد : مطبعة الاعتماد : سنة ١٩٤٥ م .

٣١ — جغرافية آسيا وأستراليشيا : الأستاذ حسن محمد جوهر وزملاؤه المطبعة الأميرية سنة ١٩٣٩ م .

٣٢ — الجغرافيا التاريخية الإسلامية : الأستاذ محمد حسونة : مطبعة لجنة البيان العربى

٣٣ — الحضارة الإسلامية : آدم متز : ترجمة الأستاذ محمد عبد الهادى أبى ريدة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤١ م.

٣٤ — خزانة الأدب : البغدادى : المطبعة الأميرية ببولاق : سنة ١٩٢٥ م .

٣٥ — خطط الشام : الأستاذ محمد كرد على : المطبعة الحديثة بدمشق سنة ١٩٠٩ م .

٣٦ — دائرة المعارف الإسلامية .

٣٧ — دائرة معارف القرن العشرين : الأستاذ محمد فريد وجدى .

٣٨ — دراسات فى علم النفس الأدبى : الأستاذ حامد عبد القادر : نشر لجنة البيان العربى .

٣٩ — الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب : ابن الشحنة : طبعة بيروت سنة ١٩٠٩ م .

٤٠ — دمية القصر : الباخرزى : المطبعة العلمية بحلب : الطبعة الأولى .

٤١ — ديك الجن الحمصى : البدوى الملثم : مطبعة المقتطف والمقطم سنة ١٩٤٩ م .

٤٢ — ديوان أبى الطيب المتنبى : تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام : مطبعة لجنة الترجمة والتأليف والنشر سنة ١٩٤٤ م .

٤٣ — ديوان أبى فراس : تحقيق الدكتور سامى الدهان : طبع بيروت سنة ١٩٤٤ م

٤٤ — ديوان أبى نواس : ترتيب وشرح الأستاذ محمود كامل فريد : نشر المكتبة التجارية سنة ١٩٤٥ م .

٤٥ — ديوان البحترى : مطبعة هندية : الطبعة الأولى : سنة ١٩١١ م .

٤٦ — ديوان السرى الرفاء : نشر مكتبة القدسى .

٤٧ — ديوان الوأواء الدمشقى : تحقيق الدكتور سامى الدهان : مطبعة المجمع العلمى العربى بدمشق .

٤٨ — ديوان كشاجم : طبع بيروت : سنة ١٩٤٣ م .
٤٩ — ذكرى أبى الطيب : الدكتور عبد الوهاب عزام : طبع بغداد .
سنة ١٩٣٦ م .
٥٠ — الروضيات من شعر الصنوبرى : جمع الأستاذ محمد راغب
الطباخ : المطبعة العلمية بحلب سنة ١٩٣٢ م .
٥١ — زبدة الحلب من تاريخ حلب : كمال الدين بن العديم : ج ١ :
تحقيق الدكتور سامى الدهان : المطبعة الكاثوليكية : بيروت :
سنة ١٩٥١ م
٥٢ — سيف الدولة وعصر الحمدانيين : الأستاذ سامى الكيالى : المطبعة
الحديثة بحلب سنة ١٩٣٩ م .
٥٣ — شاعر بنى حمدان : الدكتور أحمد بدوى : مكتبة الأنجلو .
٥٤ — شرح التبيان : العكبرى : الطبعة الأولى : سنة ١٣٠٨ هـ .
٥٥ — شرح ديوان المتنبى : الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى : الطبعة
الثانية سنة ١٩٣٨ م .
٥٦ — شعراء النصرانية : الجزء الأول : مطبعة الآباء المرسلين
اليسوعيين : بيروت سنة ١٨٩٠ م .
٥٧ — شعر الحرب فى أدب العرب : الدكتور زكى المحاسنى : نشر
دار الفكر العربى .
٥٨ — شعر الطبيعة فى الأدب العربى : الدكتور سيد نوفل : نشر
مكتبة الخانجى سنة ١٩٤٥ م .
٥٩ — الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية (فى المدينة) الدكتور
شوقى ضيف : دار الفكر العربى .
٦٠ — الشعر والشعراء : ابن قتيبة : المطبعة الجمالية : الطبعة الأولى
سنة ١٣٢٢ هـ .

٦١ — الصبح المنبي عن حيثية المتنبي : الأستاذ يوسف البديعي : مكتبة عرفة بدمشق سنة ١٣٥٠ هـ .

٦٢ — صلة تاريخ الطبري : عريب بن سعد القرطبي : طبعة مصطفى محمد سنة ١٩٣٩ م .

٦٣ — ضحى الإسلام : الأستاذ أحمد أمين : الجزء الأول : الطبعة الثالثة : لجنة التأليف سنة ١٩٣٨ م .

٦٤ — ضحى الإسلام : الأستاذ أحمد أمين : الجزء الثاني : الطبعة الثانية : لجنة التأليف سنة ١٩٣٨ م .

٦٥ — ضحى الإسلام : الأستاذ أحمد أمين : الجزء الثالث : الطبعة الأولى : لجنة التأليف سنة ١٩٣٩ م .

٦٦ — ظهر الإسلام : الأستاذ أحمد أمين : الطبعة الثانية سنة ١٩٤٦م.

٦٧ — العبر وديوان المبتدأ والخبر : ابن خلدون : طبع بولاق : سنة ١٢٨٤ هـ .

٦٨ — العمدة : ابن رشيق : مكتبة أمين هندية : الطبعة الأولى سنة ١٩٢٥ م .

٦٩ — الغزل عند العرب : للأستاذ حسان أبي رحاب : الطبعة الأولى مطبعة مصر سنة ١٩٤٧ م .

٧٠ — فجر الإسلام : الأستاذ أحمد أمين : الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٥ م .

٧١ — الفرق بين الفرق : أبو منصور البغدادي : مطبعة المعارف سنة ١٩١٠ م .

٧٢ — الفن ومذاهبه في الشعر العربي : الدكتور شوقي ضيف : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٧٣ — : فنون الإسلام : الدكتور زكى محمد حسن : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر : سنة ١٩٤٨ م .

٧٤ — الفهرست : ابن النديم : المكتبة التجارية

٧٥ — فوات الوفيات : ابن شاكر : طبعة بولاق سنة ١٢٨٣ هـ

٧٦ — فى الفنون الإسلامية : الدكتور زكى محمد حسن : مطبعة الاتحاد سنة ١٩٣٨ م .

٧٧ — فيض الخاطر : الأستاذ أحمد أمين : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٨ م .

٧٨ — القاموس المحيط : الفيروزبادى .

٧٩ — كتب وشخصيات : الأستاذ سيد قطب : مطبعة الرسالة سنة ١٩٤٦ م .

٨٠ — الكامل : ابن الأثير : طبع بولاق سنة ١٢٩٠ هـ

٨١ — الكشف عن مساوىء شعر المتنبي : الصاحب بن عباد : نشر مكتبة القدسى .

٨٢ — المؤتلف والمختلف : الآمدى : نشر مكتبة القدسى .

٨٣ — مؤتمر الموسيقى العربية : المطبعة الأميرية سنة ١٩٣٣ م .

٨٤ — المتنبى : الأستاذ شفيق جبرى : مطبعة ابن زيدون بدمشق سنة ١٩٣٠ م .

٨٥ — المثل السائر : ابن الأثير : مكتبة محمود توفيق : الطبعة الأولى سنة ١٩٣٥ م .

٧٦ — مجمع الأمثال : الميدانى : نشر عبد الرحمن محمد بميدان الجامع الأزهر .

٨٧ — محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : الخضرى : المكتبة التجارية الطبعة الخامسة .

٨٨ — مذكرات فى التاريخ السياسى : الأستاذ محمد فخر الدين : مطبعة العلوم سنة ١٩٣٣ م

٨٩ — مروج الذهب : المسعودى : طبع بولاق سنة ١٢٨٣ ﻫ

٩٠ — المزهر : السيوطى : مطبعة صبيح

٩١ — مسالك الممالك : الإصطخرى : طبعة ليدن : نشر دى غويه سنة ١٨٧٠ ﻫ

٩٢ — المسالك والممالك : ابن حوقل : طبعة ليدن

٩٣ — مصر فى العصور القديمة : الأستاذ إبراهيم نمير سيف الدين وزملاؤه : المطبعة الأميرية سنة ١٩٤٩ م .

٩٤ — مصر فى عهد الإخشيديين : الدكتورة سيدة الكاشف : طبعة جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٥٠ م

٩٥ — مصر والشام: الدكتور سعد أطلس: مطبعة المعارف سنة ١٩٤٥ م

٩٦ — مطالع البدور : الغزولى : طبع مصر سنة ١٣٠٠ ﻫ

٩٧ — مع المتنبي : الدكتور طه حسين: مطبعة لجنة التأليف سنة ١٩٤٤م

٩٨ — معجم الأدباء : ياقوت : مطبعة دار المأمون .

٩٩ — معجم البلدان : ياقوت : مطبعة السعادة : الطبعة الأولى .

١٠٠ — معجم الشعراء : المرزبانى : نشر مكتبة القدسى .

١٠١ — مقدمة لدراسة بلاغة العرب : الدكتور أحمد ضيف : مطبعة السفور سنة ١٩٢١ م .

١٠٢ — من الأدب المقارن : الأستاذ نجيب العقيقى : دار المعارف سنة ١٩٤٨ م .

١٠٣ — من حديث الشعر والنثر : الدكتور طه حسين : مطبعة الصاوى : الطبعة الأولى سنة ١٩٣٩ م .

١٠٤ — المهلهل للأستاذ محمد فريد أبي حديد : مطبعة لجنة التأليف . الطبعة السابعة سنة ١٩٣٩ م .

١٠٥ — الموازنة : الآمدى : مطبعة حجازى : الطبعة الأولى سنة ١٩٤٤ م .

١٠٦ — موسيقى الشعر : الدكتور إبراهيم أنيس : نشر دار الفكر العربى .

١٠٧ — النابغة الذبيانى : الأستاذ عمر الدسوقى : نشر دار الفكر العربى .

١٠٨ — النثر الفنى : الدكتور زكى مبارك : طبع دار الكتب سنة ١٩٣٤ م .

١٠٩ — النجوم الزاهرة : أبو المحاسن : الجزء الثالث : طبع دار الكتب سنة ١٩٣٢ م .

١١٠ — تحية تاريخية أدبية : ماريوس كانار : طبع الجزائر سنة ١٩٣٤

١١١ — النزعات الاستقلالية : الأستاذ عبد الفتاح السرنجاوى : مطبعة باب الخلق : الطبعة الخامسة سنة ١٩٤٥ م .

١١٢ — نقد الشعر : قدامة بن جعفر : المطبعة المليجية الطبعة الأولى سنة ١٩٣٤ م .

١١٤ — النقد المنهجى : الدكتور محمد مندور : مكتبه النهضة .

١١٥ — نهر الذهب : الأستاذ كامل الغزى : المطبعة المارونية بحلب .

١١٦ — الوساطة بين المتنبي وخصومه : عبد العزيز الجرجانى : دار إحياء الكتب العربية : الطبعة الأولى سنة ١٩٤٥ م .

١١٧ — الوسيط : الأستاذ أحمد الإسكندرى وزميله : مطبعة المعارف: الطبعة الخامسه ١٩٢٥ م .

١١٨ — وفيات الأعيان : ابن خلكان : طبع القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ .

١١٩ — وفيات الأعيان : ابن خلكان : طبعة دار المأمون ،

١٢٠ — يتيمة الدهر : الثعالبي : مطبعة الصاوى سنة ١٩٣٤ م .

١٢١ — يتيمة الدهر : الثالبي : تحقيق الأستاذ محمد محي الدين : طبعة سنة ١٩٤٧ م .

(ب) الدوريات

١٢٢ — اقرأ « الشاعر الطموح » : الأستاذ على الجارم : فبراير سنة ١٩٤٧ م .

١٢٣ — اقرأ « بين البحر والصحراء » الأستاذ شفيق جبرى : ديسمبر سنة ١٩٤٦ م .

١٢٤ — الرسالة : عدد ٦٨ من سنة ١٩٣٤ م .

١٢٥ — الرسالة : عدد ١٧٢ من سنة ١٩٣٦ م .

١٢٦ — صحيفة دار العلوم : العدد الرابع من السنة الثانية : عدد خاص بالمتنبي : الجزء الأول .

١٢٧ — الهلال : عدد خاص بالمتنبي : أغسطس سنة ١٩٣٥ م .

(٢) المراجع الانجليزية

128 — History of Syria : by Philip K. Hitti London, 1951

129 — The Historical Geography of the Holy Land, 25th by Smith, George Adam, edition, London, 1931

180 — The Lands of the Eastern Caliphate. by Lestrange, Y. Cambridge University press. 1905

(٣) المراجع الفرنسية

131 — Geographie du Liban et de La Syrie, 5e. par Edde, Jacque. édition Beyrouth, 1941

132 — Un Poéte Arabe du IVe Siécle de L'Hégire (Xe Siécle de J. — C.) : About - Tayyib Al - motanabbî . Par Blachére - R. Paris 1935 .

الفهرس

١ — تصدير . ص (حـ ، ء ، هـ)

٢ — المقدمة (من ص ١ إلى ٥)

٣ — الفصل الأول : الشام الشمالية — جغرافيتها وتاريخها (من ص ٦ إلى ص ٣٥) .

(ا) القسم الجغرافى — موقع بلاد الشام وحدودها . أقسامها الطبيعية جوها . أنهار الشام الشمالية . بحيراتها . عيونها . المحصولات الزراعية . الصناعات التى قامت عليها . المواد الأرضية وما قام عليها من الصناعات . الحيوان والطير .

(ب) القسم التاريخى — الآراميون . المصريون . الحثيون . الآشوريون والبابليون . الفرس . اليونان . الرومان . الفتح الإسلامى : العوامل التى يسرت هذا الفتح . وقوف الفتح الإسلامى عند جبال طوروس وأثره . إقليم العواصم والثغور . أجناد الشام وأصل هذه التسمية . حال الشام فى العصر الإسلامى . عهد العباسيين الأولين . ضعف السلطة المركزية فى بغداد . الدوله الطولونية . القرامطة . الدولة الإخشيدية . مجمل حال الشام فى أواخر الثلث الأول من القرن الرابع .

٤ — الفصل الثانى : سيف الدولة (من ص ٣٦ إلى ص ٨٤) أصوله . الأسرة الحمدانية . مواطنها . جهادها فى سبيل السيادة والملك . حال الخلافة العباسية إذ ذاك . إمارة الحمدانيين بالموصل . ولادة سيف الدولة . نشأته وثقافته . مقتل أبيه وأثره فى نفسه . ولاية أخيه ناصر الدولة للموصل ورعايته له . هل فكر سيف الدولة فى تكوين دولة بالعراق ومتى ؟ دولة

سيف الدولة فى حلب . حروب سيف الدولة . شخصية سيف الدولة الأدبية . سياسته الاقتصادية . ترفه . أثر الحياة الاقتصادية فى الفنون . تشيع سيف الدولة . إلى أى حد أثرت نزعته الدينية فى سياسته الداخلية والخارجية؟ ماذا يقول التاريخ عن سيف الدولة الدولة؟ الحمدانية بعد سيف الدولة ونهايتها .

٥ — الفصل الثالث : الحياة الأدبية فى حلب (من ص ٨٥ إلى ص ١٢٦) .

(أ) قبل سيف الدولة — فى العصر الجاهلى : فى العصر الإسلامى فى العصر العباسى إلى قيام دولة الحمدانيين فى حلب .

(ب) فى عصر سيف الدولة .

دعائم الحياة الأدبية فى عصره :

(١) اللغة والنحو — انفراد العراق بوضع أسس هذين العلمين وأسباب ذلك . امتزاج اللغة والنحو . أول ما وضع الأئمة فى علم اللغة . مدرستا البصرة والكوفة فى النحو . مدرسة بغداد . أشهر فرسان اللغة والنحو فى بلاط سيف الدولة . أثر اللغة والنحو فى الشعر .

(٢) الفلسفة — نهوضها فى عصر العباسيين . أصالة الثقافة الأجنبية فى سوريا . جهود السوريين فى الترجمة . حيلولة الظروف السياسية دون نمو الثقافة الأجنبية فى بلاد الشام فى العصر العباسى الأول . تشجيع أمراء الدويلات فى العصر العباسى الثانى للحركة الفلسفية . أشهر الفلاسفة فى بلاط سيف الدولة . أثر الفلسفة فى الشعر .

(٣) النثر — (ا) الخطابة — امتداد قوة الخطابة إلى صدر العصر العباسى الأول . ضعفها بعد ذلك . امتداد هذا الضعف إلى العصر العباسى الثانى . حروب سيف الدولة وأثرها فى الخطابة . ابن نباته الفارقى .

(ب) الكتابة — نشأة الكتابة الفنية فى الشام فى أواخر عهد الأمويين. نهضة الكتابة فى عهد العباسيين . تطور أسلوب الكتابة من طريقة عبد الحميد إلى طريقة ابن العميد . أشهر كتاب سيف الدولة .

أثر الخطابة والكتابة فى الشعر .

(٤) الحياة الفنية — دائرة الفنون الجميلة .

(ا) النقش والتصوير والبناء — جهود الأمم المختلفة التى تداولت حكم بلاد الشام فى تلك الفنون إلى عهد سيف الدولة . تشجيع سيف الدولة لهذه الفنون . قصر سيف الدولة بالحلبة .

(ب) الموسيقى — لمحة تاريخية عن هذا الفن إلى العصر العباسى . نهضة الموسيقى فى هذا العصر . عناية سيف الدولة بالموسيقى . الفارابى . بنت يحنا . صورة شعرية لبيوت القيان . الفرق ما بين حلب وبغداد فى العناية بهذا الفن .

أثر الحياة الفنية فى الشعر .

(٥) مجالس سيف الدولة وأثرها .

٦ — الفصل الرابع : الشعر والشعراء (من ص ١٢٧ إلى ص ١٦٥) .

(ا) الشعر والشعراء فى حلب فى الثلث الأول من القرن الرابع : ضآلة شأن الشعر فى تلك الفترة . وفود المتنبى إلى ذلك الإقليم إذ ذاك . الشعراء الذين أنجبتهم تلك البيئة : أبو الغوث البحترى . الرقى .

(ب) الشعر والشعراء فى حلب فى عهد سيف الدولة :

(١) العوامل التى حفزت الشعراء إلى الوفود على حلب فى ذلك العهد .

(٢) النهضة الشعرية فى شمالى سورية فى ذلك العهد كانت طارئة أوجدها سيف الدلة . سياسة سيف الدولة لم تكن تكفل لهذه النهضة الاستمرار بعد وفاته .

(٣) أصناف الشعراء فى عهد سيف الدولة .

تمهيد : كثرة الشعراء الذين اتصلوا بسيف الدولة . قلة المراجع التى تتحدث عن هؤلاء الشعراء . أهم المراجع وعيوبها . جناية كثرة الشعراء على معظمهم .

أصناف الشعراء :

أولا — شعراء كانوا فى البلاد التى وقعت فى حوزة سيف الدولة : الصنوبرى . الأحصى . النامى . الخليع الشامى .

ثانيا — شعراء وافدون على حلب من جنوب الشام : الوأواء .كشاجم.

ثالثا — شعراء وافدون من بعض الأقطار الأخرى — من العراق : المتنبى . أبو فراس . السرى الرفاء . الخالديان . أبو الفرج البيعاء . ابن نباته السعدى . الزاهى . الناشيء الأصغر — من مصر : المغنم . ابن أبى الجوع. أبو على صالح بن رشدين .

(٤) الشعر الذى يحسب على بيئة سيف الدولة من شعر الشعراء الطارئين .

(٥) إلى أى حد يكون الشعر مصدرا تاريخياً لعهد سيف الدولة ؟

٧ — الفصل الخامس — الشعر من حيث موضوعاته وفنونه (من ص ١٦٦ إلى ص ٢٥٥) :

(ا) أهم العوامل الموجهة للأغراض والفنون : سيف الدولة . الطبيعة. الترف والمجون .

(ب) أشهر الأغراض والفنون

(١) المدح : غلبة فن المديح على سائر الأغراض الأخرى ، وكثرته برغم أن معظمه كان موجها إلى شخص واحد هو سيف الدولة . معانى المديح .

(٢) الحماسة : توزع شعر الحماسة بين المديح والفخر . حروب سيف الدولة وأثرها فى هذا الفن . حماسة المديح — الحماسة الأصيلة . الحماسة

التقليدية . حماسة الفخر — كثرتها فى شعر الحمدانيين وقلتها فى شعر الشعراء المتكسبين .

(٣) الهجاء — أهم العوامل المؤثرة فيه : السياسة الداخلية ، السياسة الخارجية ، التنافس الأدبى . معانى الهجاء . عفة الهجاء فى ظل سيف الدولة بالقياس إلى غيره فى ذلك العصر .

(٤) الوصف .

ا — وصف الطبيعة : عوامل نموه : جمال الطبيعة الشامية . الثقافة الشعرية . العناية بوصف الخمر . انتشار الديرة فى بلاد الشام . الترف . الحضارة — غلبة الحسية على هذا الوصف — أشهر شعراء الطبيعة .

ب — وصف الخمر — العوامل المؤثرة فيه : الثقافة الشعرية . الديرة . أصالة الشام الخمرية . الترف . ليونة العاطفة والمبالغة فى اللذائذ الحسية .

حـ — وصف الآثار الإنسانية الفنية وغيرها . وصف بعض ما كان يجود به سيف الدولة على الشعراء . غلبة الحسية على هذا الوصف أيضا .

(٥) الغزل — العوامل المؤثرة فى هذا الفن : (١) الروح الفارسية وما كان لها من أثر فى الغزل بالمذكر . العوامل التى ساعدت على انتشار هذه الروح فى الشام فى عصر سيف الدولة . (٢) كثرة الجوارى . أثر الحروب فى ذلك . (٣) الغناء .

أنواع الغزل : الغزل بالمذكر والغزل بالمؤنث . الغزل الماجن والغزل العفيف . الغزل التقليدى . أثر العناية بالصناعة اللفظية فى ضعف الغزل .

(٦) الرثاء — ضعف معظم الرثاء — اتجاهه إلى التعزية ، خلطه بالمدح ، قلة الرثاء القوى .

(٧) الإخوانيات — العوامل التى ساعدت على انتشارها . كثرة الشعر الإخوانى بين الحمدانيين ورجال دولتهم . الإخوانيات الشعبية .

٨ — الفصل السادس : الخصائص الفنية (من ص ٢٥٦ إلى ص ٣١٦)

تمهيد — تعذر استقلال الخصائص الفنية للشعر السيفى عن خصائص الشعر العباسى . أسباب ذلك .

الخصائص الفنية للشعر العباسى ومدى تأثرها فى حلب بالبيئة الحلبية السيفية :

(١) شيوع المقطعات الصغيرة والأوزان القصيرة والعبارات اللينة فى العصر العباسى . أسباب ذلك . ظهور هذه الخاصة فى الأغراض المترفة من الشعر الشامى ، امتياز الشعر فى الأغراض الجدية بطول القصائد والأوزان وجزالة الأسلوب . أثر حروب سيف الدولة فى ذلك .

(٢) انتشار ألوان البديع فى الشعر العباسى — المقصود بالبديع — العوامل التى ساعدت على انتشاره فى هذا العصر . كثرة البديع فى الأغراض المترفة من الشعر الشامى وقلته فى الأغراض الجدية . أثر الطبيعة الشامية فى الصناعة اللفظية . أثر الحياة الاجتماعية فى تلك الصناعة : أثر الترف والاتصال بالنصرانية والتشيع وعظم شأن الخط والخطاطين وتعدد الأجناس .

(٣) المبالغة فى المعانى فى الشر العباسى : أثر دعوة قدامة إلى المبالغة أثر التشبع . المبالغة المفرطة معيبة .

(٤) التعمق فى المعانى ومزجها بالروح الفلسفى والمنطقى ، وتوليدها من العلوم المختلفة ، وأثر ذلك فى استعمال ألفاظ الفلاسفة والعلماء وصيغهم وتعبيراتهم . سبب شيوع هذه الخاصة فى الشعر العباسى . نصيب الشعر الشامى من تلك الخاصة. عظم تأثر شعر المتنبى بثقافته الضخمة. قلة أثر الثقافة فى شعر غيره .

هل أثر سيف الدولة فى الخصائص الفنية ؟ (١) أثر بطولته (٢) أثر اسمه (٣) أثر شخصيته المحبوبة فى استحداث خصائص فنية فى شعر المتنبى

بوجه خاص : (ا) مخاطبة الممدوح بمثل مخاطبة المحبوب والصديق (ب) قلة بدء قصائد المديح بالغزل (ح) الرمزية فى غزل الكافوريات . قوة العاطفة فى هذا الغزل وضعفها فى سائر غزله بما فى ذلك غزله فى السيفيات .

٩ — الخاتمة (من ص ٣١٦ إلى ص ٣١٨)

١٠ — المراجع (من ص ٣١٩ إلى ص ٣٢٩)

KASHMIR UNIVERSITY
Iqbal Library
Acc. No 310827
Dated 15.08.09

الخطأ والصواب

وقعت بعض الأخطاء المطبعية التى لا تخفى على فطنة القارىء ونحن نشير إلى بعضها فيما يلى :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠	١٠	السهولة	السهول
٣٠	٩	سرا	شرا
٣٢	هامش (١) سطر ٩	العصا	العصاة
٤٠	١	يتح	يتيح
٤٣	هامش ١ سطر ٩	حه	حكمه
٥٠	١٧	الثرورة	الثروة
٥١	١٦	البريدين	البريديين
٦٨	١٧	واستنشد	استنشد
٧٨	١٩	القاضى	الفياضى
٧٩	١١	ظهوه	ظهوره
٨٨	٢٠	النحو	والنحو
٨٩	هامش ٦	دكر	ذكره
١٨٣	١٠	شا	شاعرا
١٨٨	٩	سيافارقين	ميافارقين
٢٤٠	١١	مطاقا	مطلقا
٢٧٠	٨	اصطدمت	اصطدت
٢٧٢	١٥	القلا	القلى
٢٤٤	٢	اتجاه الشعراء إلى جانب	اتجاه الشعراء إلى التنزل بهن إلى جانب
٢٥٠	١٨	غراض	أغراض
٣٠٧	١٧	أجل	من أجل

Title [redacted]

Author [redacted]

Accession No. [redacted]

Call No. [redacted]

Borrower's No.	Issue Date	Borrower's No.	Issue Date

JAMMU & KASHMIR UNIVERSITY
LIBRARY
Kashmir Division - Srinagar